دروس تربوية للمرأة المسلمة

من خلال مواقف نسائية خالدة

بقلم
عصام محمد الشريف
عفا الله عنه




مركز المرأة للدراسات والاستشارات
ت : ٢٤٤٦٠٢٢
ت.ف: ٢٤٤٦٠٣٣
ترخيص رقم :(٧١)


دروس تربوية
للمرأة المسلمة

الطبعة الأولى

(١٤٢٥ هـ ـ ٢٠٠٤م)

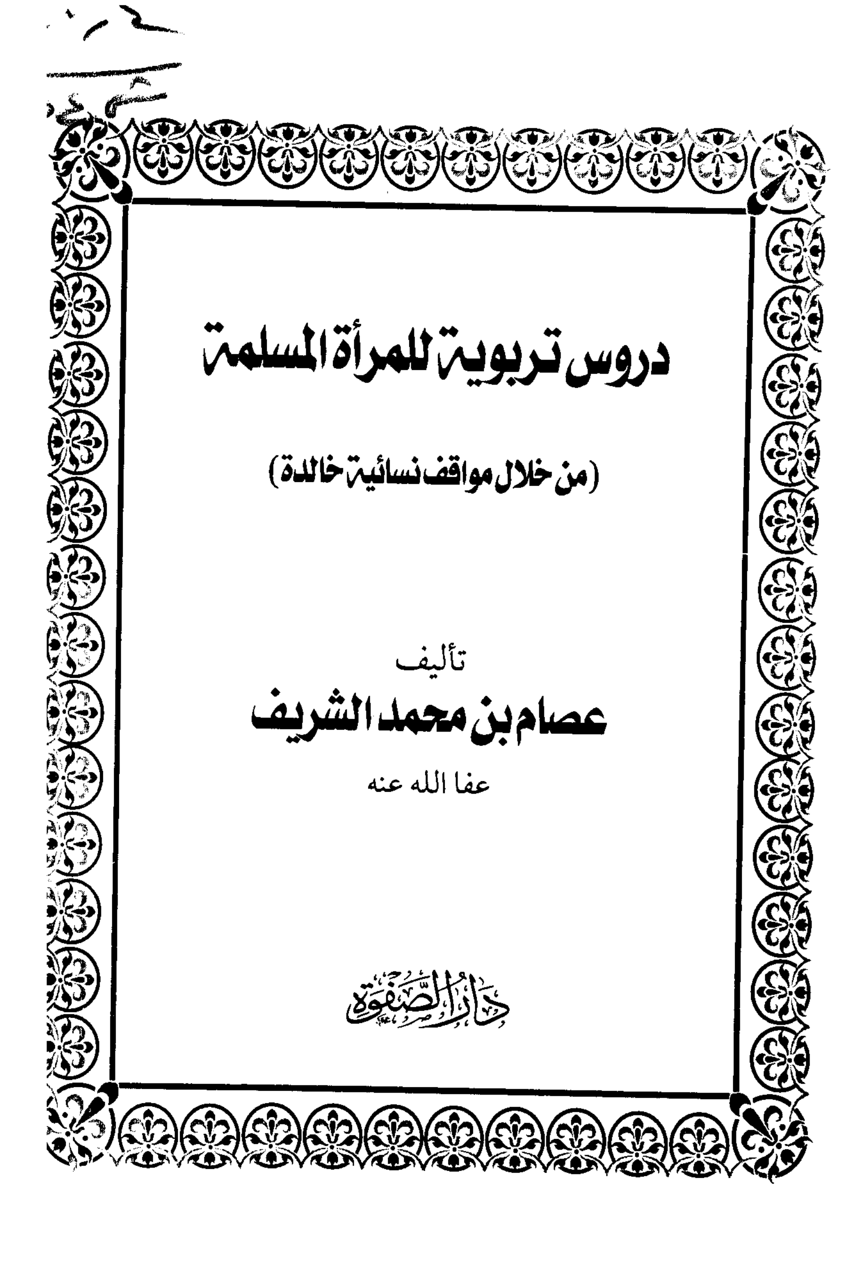
رقم الإيداع

(٨٧٠٠ / ٢٠٠٤)

الترقيم الدولي

977 - 5959 - 53 - 5





دروس تربوية للمرأة المسلمة

(من خلال مواقف نسائية خالدة)

تأليف

عصام بن محمد الشريف

عفا الله عنه

دار الصفوة

بسم الله الرحمن الرحيم

تـقـديـم

الحمـد لله الذي هدى من الضلالة، وعلَّم من الجهالة، وأنعم بعد القلة، وأعز بعد الذلة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت، بيده الخير، وهو حي لا يموت، وهو على كل شيءٍ قدير.

وأشهد أن نبينا محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلِّ على محمد النبي وأزواجه أمهات المؤمنين، وذريته، وأهل بيته، كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد:

أما بعد:

فقد رأيت أن أجمع مواقف بعض أمهات المؤمنين، ونساء الصحابة والتابعين، ومن بعدهن من النساء الصالحات، التي أجدها في قراءاتي أو أسمعها من خلال الشريط الإسلامي، حيث إنها مواقف تحتاج منا جميعًا - والنساء خاصة - وقفة تدبر واستلهام للعبر والدروس من هذا الجيل الشامخ الذي يضرب لنا القدوة الحقيقية، في وقت عزَّت فيه القدوة.

وهذه المواقف هي دروس تربوية لكل نساء المسلمين، كي يتعلمن منها ويلتمسن السلوك الصحيح في معاملاتهن مع الله ومع المخلوقين.

إن سبر غور سيرة الصحابيات ومن بعدهن من النساء الصالحات لذة

لا يعادلها لذة، وذلك لأن فيها كنوزًا ودروسًا مستفادة، تخدم الأجيال المتعاقبة؛ لاسيما في عالمنا اليوم، الذي يموج بحياة مادية يتسابق فيها الناس على متاع زائل زائف، فما أحرانا ـ رجالاً ونساءً ـ أن نعرج على هذه السيرة العطرة لنساء صالحات، لنرى كيف أحب هؤلاء دينهن وربهن ورسولهن ﷺ، وكيف عاشوا لهذا الدين وخدموا دعوة الله عز وجل.

وهذه النماذج التي بين يدي القارئ الكريم أمثلة حية على ما صنعه هذا المنهج الرباني في النفس البشرية من تربية متوازنة متكاملة، وما يمكن أن يقدمه البيت المسلم للدعوة من بذل وعطاء وتضحية.

والله أسأل أن يكون لهذه الدروس والمواقف الأثر البالغ في نفوس نساء المسلمين ـ والديِّنات بصفة خاصة لأنهن أقرب إلى الهدى من غيرهن ـ وأن يقرَّ الله عيني وعين كل غيور على الإسلام برؤية جيل صالح من النساء، قد فهم دينه فهمًا صحيحًا لا التواء فيه ولا انحراف، والتزم به التزامًا حقيقيًا قائمًا على الاعتزاز بالدين والغيرة عليه، ودعا إليه انطلاقًا من أن الدعوة إلى الله عز وجل هي حياته وشغله الشاغل.

عصيت الله أيامي وليلي　　وفي العصيان قد أسبلتُ ذيلي

فويلي إن حُرمت جنَانَ عدْنٍ　　وويلي إن دخلتُ النار ويلي

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

[الأحقاف: ١٥]

وصلِّ اللهم على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا .

وكتبه

عصام بن محمد الشريف

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

الثلاثاء في ١٤ من ربيع الآخر ١٤٢٣ هـ

الموافق ٢٥ من يونيو ٢٠٠٢م

* * *



(١)

موقف خديجة رضي الله عنها

موقف خديجة رضي الله عنها

عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: «أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: **ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال**: اقرأ، **قلت**: ما أنا بقارئ، **فأخذني فغطني الثانية، حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال**: اقرأ، **فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال**: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ**﴾ [العلق: ١-٣]، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: **زملوني زملوني**، فزملوه حتى ذهب عنه الروع.

فقال لخديجة وأخبرها الخبر: **لقد خشيت على نفسي**، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى - ابن عمِّ خديجة - وكان امرءًا تنصر في الجاهلية، كان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية

ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أو مُخْرِجِيَّ هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصُرُك نصرًا مؤزرًا، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي[١].

وفي رواية مسلم: «كلا أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا، والله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف»[٢].

غريب الألفاظ:

فلق الصبح: أي ضياؤه.

فيتحنث: بمعنى يتحنف أي يتبع الحنيفية دين إبراهيم.

لا يخزيك: الخزي هو الفضيحة والهوان.

الكلَّ: هو من لا يستقل بأمره.

تكسب المعدوم: تعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك، أو تكسب غيرك المال المعدوم أي تعطيه إياه تبرعًا.

الجِذْع: الصغير من البهائم، والمراد هنا أي شابًا.

---

(١) رواه البخاري (فتح الباري ١/ ٣٠، ٣١) بدء الوحي، وفي التفسير، وفي التعبير، ومسلم (٢/ ١٩٧ ـ ٢٠٤) بشرح النووي.

(٢) شرح النووي على مسلم (٢/ ٢٠٠).

الدروس والعبر

أولاً: مكانة خديجة وفضلها رضي الله عنها:

* روى مسلم عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نسائها مريم بنتُ عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد».

قال أبو كريب: وأشار وكيع إلى السماء والأرض.

قال النووي رحمه الله: أراد وكيع بهذه الإشارة تفسير الضمير في نسائها، وأن المراد به جميع نساء الأرض أي كل من بين السماء والأرض من النساء، والأظهر أن معناه أن كل واحدة منهما خير نساء الأرض في عصرها[1]، وهو ما ذهب إليه الحافظ في الفتح[2].

* وروى مسلم أيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله هذه خديجة أتتك معها إناء فيه إدامٌ أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها عز وجل ومنِّي وبشِّرها ببيت من الجنة من قصب[3] لا صَخَبَ[4] فيه ولا نَصَبَ[5].

(١) النووي بشرح مسلم (١٥/ ١٩٨).
(٢) فتح الباري (٧/ ١٦٨).
(٣) قال جمهور العلماء: المراد به قصب اللؤلؤ المجوف (مسلم ١٥/ ٢٠٠).
(٤) الصخب: الصوت المختلط المرتفع.
(٥) النصب: المشقة والتعب.

قال السهيلي: قوله: «لا صخب ولا نصب»: مناسبة نفي هاتين الصفتين - أعني المنازعة والتعب - أنه ﷺ لما دعا إلى الإسلام أجابت خديجة طوعًا فلم تحوجه إلى رفع صوت ولا منازعة ولا تعب في ذلك بل أزالت عنه كل نصب، وآنسته من كل وحشة، وهونت عليه كل عسير، فناسب أن يكون منزلها الذي بشرها به ربها بالصفة المقابلة لفعلها»[١].

* وروى أيضًا عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما غِرْتُ على امرأة ما غِرْتُ على خديجة، ولقد هَلَكَتْ قبل أن يتزوجني بثلاث سنين، لِمَا كنتُ أَسمعه يذكرها، ولقد أمره ربه عز وجل أن يُبشرها ببيت من قصب في الجنة، وإن كان ليذبح الشاة ثم يُهديها إلى خلائلها[٢].

وفي رواية عنها أيضًا: ما غرت على نساء النبي ﷺ إلا على خديجة وإني لم أدركها.

قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة فيقول: «**أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة**».

قالت: فأغضبته يومًا، فقلت: خديجة، فقال رسول الله ﷺ: «**إني قد رزقت حُبَّها**».

وفي رواية أيضًا عنها: استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة فارتاح لذلك، فقال: «**اللهم هالةُ بنت خويلد**» فغرت فقلت: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء

---

(١) المصدر السابق (٧/ ١٧٢).

(٢) أي صدائقها، جمع خليلة وهي الصديقة.

الشدْقين(١) هلكت في الدهر فأبدلك الله خيراً منها .

قال النووي : قولها : «فارتاح لها» : أيْ هش لمجيئها وسُر بها لتذكره بها خديجة وأيامها ، وفي هذا كله دليل لحسن العهد وحفظ الود ورعاية حرمة الصاحب والعشير في حياته ووفاته وإكرام أهل ذلك الصاحب .

* وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرتُ على خديجة وما رأيتها ، ولكن كان النبي ﷺ يُكثر ذكرها ، وربما ذبح الشاة ثم يُقطِّعُها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة ، فربَّما قلت له : كأن لم يكن في الدنيا إلا خديجة! فيقول : «**إنها كانت وكانت ، وكان لي منها ولد**» .

قال الحافظ : قوله : «**إنها كانت وكانت**» أي كانت فاضلة وكانت عاقلة ونحو ذلك ، وعند أحمد من حديث مسروق عن عائشة : «**آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء**» .

ثم قال رحمه الله : ومما كافأ النبي ﷺ به خديجة في الدنيا أنه لم يتزوج في حياتها غيرها ، فروى مسلم من طريق الزهري عن عروة عن عائشة قالت : «لم يتزوج النبي ﷺ على خديجة حتى ماتت» ، وهذا مما لا اختلاف فيه بين أهل العلم والأخبار ، وفيه دليل على عظم قدرها عنده ، وعلى مزيد فضلها لأنها أغنته عن غيرها ، واختصت به بقدر ما اشترك فيه غيرها مرتين ، لأنه ﷺ عاش

(١) قال النووي (١٥/ ٢٠٣) : معناه عجوز كبيرة جدًا ، حتى قد سقطت أسنانها من الكبر ، ولم يبق لشدقها بياضُ شيء من الأسنان ، إنما بقي فيه حمرة لثتها .

بعد أن تزوجها ثمانية وثلاثين عامًا انفردت خديجة منها بخمسة وعشرين عامًا وهي نحو الثلثين من المجموع، ومع طول المدة فصان قلبها من الغيرة ومن نكد الضرائر الذي ربما حصل له هو منه ما يشوش عليه بذلك، وهي فضيلة لم يشاركها فيها غيرها.

ومما اختصت به: سبقها نساء هذه الأمة إلى الإيمان، فسنت ذلك لكل من آمنت بعدها، فيكون لها مثل أجرهن.

وقال النووي: في هذه الأحاديث دلالة لحسن العهد، وحفظ الود، ورعاية حرمة الصاحب والمعاشر حيًا وميتًا، وإكرام معارف ذلك الصاحب[1].

ثانيًا: موقف الزوجة من زوجها إذا ألم به شيء:

لنا أن نتخيل ما حدث لرسول الله ﷺ . . . وكيف كانت نفسيته، وكيف كان خوفه مما ألمَّ به عندما جاءه جبريل عليه السلام يأمره بأن يقرأ.

لذا عاد النبي ﷺ إلى بيته يرجف فؤاده، خائفًا، قائلاً: زملوني زملوني، حتى ذهب عنه ﷺ هذا الخوف، ثم أخذ يقص على زوجه خديجة رضي الله عنها الخبر.

فماذا كان موقف خديجة رضي الله عنها؟

كيف استقبلت زوجها وقد ألمَّ به ما ألمَّ؟

وكيف هوَّنت عليه، وهدَّأت من روعه، ووقفت بجانبه؟

فعلت ذلك وهي تعطي القدوة العملية، والمثال الرائع، والموقف الصلب

(١) فتح الباري (٧/ ١٧٠، ١٧١).

الخالد إلى يوم الدين، عندما تقف الزوجة بجوار زوجها، تؤازره وتسانده وتقويه.

لم تعرض عنه، ولم تصفه بالجنون مثلاً!

لم تتخلى عنه، أو يشغلها شيء عنه!

بل وقفت موقفًا سيبقى خالدًا . . . لتتعلم منه النساء على مر الأيام، كيف تقف الزوجة بجوار زوجها إذا ألمت به مصيبة أو أصابه كرب أو هم أو مكروه.

ماذا فعلت خديجة رضي الله عنها إذن؟

أقسمت بالله تعالى أن الله عز وجل لن يخزيه ولن يتخلى عنه، ثم أخذت في ذكر أخلاقه وصفاته والتي بسببها لن يخزيه الله تعالى أبدًا.

قال الحافظ رحمه الله: وفي هذه القصة من الفوائد:

استحباب تأنيس من نزل به أمرٌ، بذكر تيسيره عليه، وتهوينه لديه.

وأن من نزل به أمر استُحب له أن يُطلع عليه من يثق بنصيحته وصحة رأيه.

ثم قال رحمه الله: ثم استدلت على ما أقسمت عليه من نفي ذلك أبدًا، بأمر استقرائي، وصفته بأصول مكارم الأخلاق، لأن الإحسان إما إلى الأقارب أو إلى الأجانب، وإما بالبدن أو بالمال، وإما على من يستقل بأمره أو من لا يستقل[1].

وقال النووي رحمه الله: قال العلماء رضي الله عنهم: معنى كلام خديجة

---

(١) فتح الباري (١/ ٣٣، ٣٤).

رضي الله عنها : إنك لا يصيبك مكروه لما جعل الله فيك من مكارم الأخلاق وكرم الشمائل ، وذكرت دروبًا من ذلك ، وفي هذا دلالة على أن مكارم الأخلاق وخصال الخير سبب السلامة من مصارع السوء ، وفيه مدح الإنسان في وجهه في بعض الأحوال لمصلحة ، وفيه تأنيس من حصلت له مخافة من أمر ، وتبشير وذكر أسباب السلامة له ، وفيه أعظم دليل وأبلغ حجة على كمال خديجة رضي الله عنها ، وجزالة رأيها وقوة نفسها ، وثبات قلبها ، وعظم فقهها[1] .

هكذا فلتكن الزوجة الصالحة ، تقف مع زوجها في محنته وفي كربه وفي مرضه وفي ابتلائه في دينه أو دنياه ، تقف معه تتحمل المسئولية كاملة بكل شجاعة وثبات ورباطة جأش ، تقويه وتسليه ، وتذكره بالله ، وتوصيه بتقوى الله سبحانه وتعالى حتى لا يميل عن طريق الإيمان .

لا تتخلى عنه وهو يريد من يقف بجواره .

ولا تنعزل عنه وهو يريد من يأخذ بيديه .

لا تُيئسه من رحمة الله تعالى وقرب فرجه ، فهو يريد من تُبشره وتُطمئن قلبه .

بل تأخذ بيديه وتعينه على اجتياز المحنة ، وتذكره بأعماله الصالحة ليتوسل بها إلى الله عز وجل كي يرفع بلاءه عنه .

وتُعدد له خصال الخير عنده ، وأنه إن ابتلي من الله فلتكفير ذنوبه ورفع درجاته .

---

(١) مسلم بشرح النووي (٢/ ٢٠٢) .

تقابله دائمًا بالابتسامة اللطيفة، والوجه البشوش، فتسكن نفسه ويُطرد شيطانه.

ثالثًا: عظم مكانة الزوج:

وقفت خديجة رضي الله عنها مع زوجها ﷺ موقفًا ينم عن عقلية امرأة تتسم بقوة الإيمان، وحسن البصيرة، في الوقت الذي يبرز لنا فيه أيضًا عظم مكانة الزوج في الإسلام، وذلك حتى تقف كل زوجة مع زوجها مثل هذا الموقف.

وقد رفع الإسلام مكانة الزوج إلى مرتبة عالية، تحتاج من المرأة معها إلى وقفة تدبر وإجلال:

فعن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها، ولو سألها نفسها وهي على قتب لم تمنعه نفسها**»[(١)].

فسبحان الله! فقد ربط النبي ﷺ حق الله بحق الزوج أولاً، فكل امرأة مقبلة على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ، ذاكرة لله عز وجل، محصلة للعلم الشرعي، وهي في نفس الوقت مضيعة لبعض حقوق زوجها، أو غير طالبة لرضاه، قد أخطأت الطريق إلى الله، حتى تؤدي حق زوجها أولاً في طاعة الله تعالى بطلب مرضاته، والقيام بحقوقه.

وعن معاذ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا، إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه قاتلك الله، فإنما هو**

---

(١) رواه أحمد، وابن ماجه، وغيرهما (الصحيحة ١٢٠٣).

عندك دخيل، يوشك أن يفارقك إلينا»[١] .

فسبحان الله! من الذي جنَّد زوجة الرجل من الحور العين في الآخرة، حتى تدعو على زوجته من أهل الدنيا التي تؤذيه؟! إنما هو الله، وما ذلك إلا لعظم مكانة الزوج، وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ثلاثة لا تجاوز صلاتهم آذانهم: العبد الآبق حتى يرجع، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وإمام قوم وهم له كارهون»**[٢] .

قال المناوي ـ رحمه الله ـ: «**ثلاثة لا تجاوز صلاتهم آذانهم**» في رواية رؤوسهم؛ أي لا ترتفع إلى السماء وهو كناية عن عدم القبول كما صرح به في رواية الطبري[٣] .

وعن حُصين بن محصن قال: حدثتني عمتي قالت: أتيت رسول الله ﷺ فقال: «**أي هذه، أذات بعل؟**» قلت: نعم، فقال: «**كيف أنت منه؟**» قالت: ما آلوه[٤] إلا ما عجزت عنه، قال: «**فانظري أين أنت منه، فإنما هو جنتك ونارك»**[٥] .

فانظري أيتها المرأة المسلمة ـ رحمنا الله وإياك ـ كيف أن الزوج سبب لدخولك الجنة بطاعتك له في طاعة الله والقيام بحقوقه، وسبب لدخولك النار إذا ضيعت حقوقه ورضاه.

---

(١) رواه الترمذي، وأحمد، وابن ماجه، وصححه الألباني (الصحيحة ١٧٣).
(٢) رواه الترمذي، وحسنه الألباني (مشكاة المصابيح ١١٢٢).
(٣) فيض القدير (٣/ ٣٢٣).
(٤) أي لا أقصر في خدمته وطاعته.
(٥) رواه أحمد، والنسائي، وقال الألباني: إسناده صحيح (آداب الزفاف ص٢٨٥).

وعن التسائي أن رسول الله ﷺ قال: «**ونساؤكم من أهل الجنة الودود الولود العئود على زوجها، التي إذا غضب جاءت حتى تضع يدها في يد زوجها وتقول: لا أذوق غُمضًا حتى ترضى**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ما ينبغي لأحد أن يسجد لأحد، ولو كان أحدٌ ينبغي له أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لما عظَّم الله من حقه**»(٢).

وعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «**لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها، والذي نفسي بيده لو كان من مقدمه إلى مفرق رأسه قرحة تنبجس بالقيح والصديد ثم استقبلته تلحسه ما أدت حقه**»(٣).

فهل تدبرت المرأة هنا أيضًا، كيف أن المرأة لو جاز لها السجود ـ وهو عبادة لا تجوز لغير الله ـ لكان أولى الناس بذلك هو الزوج؟! فهل من مكانة أعظم للزوج من هذه المكانة؟!

رابعًا: أهمية مكارم الأخلاق:

جمع الله تعالى في كتابه المبارك مكارم الأخلاق خير جمع، وبيَّنها لعباده أحسن بيان، وسار بها رسول الله ﷺ خير سيرة، وعامل بها الناس أفضل معاملة.

---

(١) قال الألباني: للحديث شواهد يتقوى بها (الصحيحة ٢٨٧).

(٢) رواه ابن حبان، وحسنه الألباني في إرواء الغليل (١٩٩٨).

(٣) قال المنذري: رواه أحمد بإسناد جيد (إرواء الغليل ٧/ ٥٥).

لذا فقد لزمنا التفقه في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، فنتدبر الآيات، ونتأسى به ﷺ.

لذا كان من الأمور المهمة لكل مسلم ومسلمة أن يتعلم مكارم الأخلاق ويتفقه فيها وذلك للأسباب الآتية:

١ - التأسي برسول الله ﷺ الذي قال: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»، وفي رواية: «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**»(١).

٢ - الترقي إلى أعلى درجات الإيمان، وذلك لقوله ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم**»(٢).

٣ - تثقيل الميزان يوم القيامة، وذلك لقوله ﷺ: «**ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من خلق حسن**»(٣).

٤ - اغتنام الأجر والثواب، وذلك لقوله ﷺ: «**إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم**»(٤).

٥ - القرب من مجلس النبي ﷺ يوم القيامة، وذلك لقوله ﷺ: «**إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، وإن**

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢/ ٨، ٣)، والبخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني (صحيح الأدب المفرد برقم ٢٠٧، ٢٧٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢)، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٨٤).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٠٠٤)، وأبو داود (٢٧٩٩)، وغيرهما، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي برقم (١٦٢٩) ٢/ ١٩٤).

(٤) رواه أبو داود (٤٧٩٨)، وأحمد (٦/ ٩٠)، وغيرهما، وصححه الألباني (الصحيحة ٨٧٦).

أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون»(١) .

٦ ـ الدخول في زمرة أحب عباد الله إلى الله، وذلك لقوله ﷺ : «**أحب عباد الله إلى الله أحسنهم خلقًا**»(٢) .

ولا يخفى على أحد أهمية مكارم الأخلاق مع الـخَلْق بدءًا من الوالدين والزوج والأولاد، وانتهاءً بالمدعوين .

فإذا كان للشخص رصيد طيب من حسن الخلق، كان له القبول والحب عند الناس .

خامسًا: أهمية إدخال السرور على المسلم:

إن موقف خديجة رضي الله عنها من رسول الله ﷺ عندما قالت له : «كلا والله ما يخزيك الله أبدًا . . . » لهو إشارة إلى أهمية إدخال الطمأنينة والسرور على الزوج المسلم إذا ألمَّ به ما يؤلمه أو يزعجه، فما بالنا لو كان ذلك في محيط المجتمع المسلم كله .

لذا فقد أولى الإسلام هذه القضية اهتمامًا كبيرًا، نلحظه في هذا الحديث العظيم .

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «**أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرورٌ يُدخله على مسلم، أو يكشف عنه كربة، أو يقضي عنه دَيْنًا، أو تطرد عنه جوعًا، ولأن**

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠١٨)، وهو حديث حسن (الصحيحة ٧٩١) .

(٢) رواه الطبراني، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٢٢٨)، وصحيح الجامع (٩٦٢) .

أمشي مع أخ في حاجة أحب إليّ من أن أعتكف في هذا المسجد شهرًا ـ يعني مسجد المدينة ـ، ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظًا ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رجاءً يوم القيامة، ومَن مشى مع أخيه في حاجة حتى تتهيأ له، أثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام، وإن سوء الخلق يفسد العمل، كما يفسد الخل العسل»[(١)] .

فالشاهد من هذا الحديث: قوله ﷺ عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل ومنها: «**سرور يدخله على مسلم**»، ولنا أن نتخيل ماذا يُحدث هذا السرور في نفوس الناس؟!!

ولابد أن يُعلم أن إدخال السرور على المسلمين له مظاهر كثيرة منها:

١ ـ قضاء الحوائج:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**»[(٢)] .

٢ ـ إيثار الآخرين على النفس:

فقد مدح الله عز وجل الأنصار بهذه الصفة الكريمة فقال: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾ [الحشر: ٩].

قال ابن كثير: «أي يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم، ويبدءون

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج، والطبراني، وحسنه الألباني (الصحيحة برقم ٩٠٦).

(٢) رواه مسلم (٢٦٩٩)، والترمذي (١٩٩٥)، وأحمد في مسنده (٢/ ٥٠٠).

بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك»[١] .

٣ ـ **التهنئة في كل مناسبة طيبة** كالزواج، والعود من السفر، والمعافاة من المرض، وإذا رزق بمولود، والتهنئة بالعيد ونحو ذلك .

٤ ـ الزيارة في الله :

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : «**إن رجلاً زار أخًا له في قرية أخرى، فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكًا فلما أتى عليه قال : من تريد؟ قال : أريد أخًا لي في هذه القرية، قال : هل لك عليه من نعمة تربُّها عليه؟ قالْ : لا، غير أني أحببته في الله تعالى، قال : إني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه**»[٢] .

٥ ـ البشاشة عند اللقاء :

وذلك لقوله ﷺ : «**لا تَحْقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**»[٣] .

وفي رواية للترمذي : «**تبسمك في وجه أخيك لك صدقة**»[٤] .

٦ ـ عيادة المريض :

عن ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «**إن الرجل إذا عاد أخاه**

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٣٨).

(٢) رواه مسلم (١٦/ ١٢٤)، وأحمد (٢/ ٢٩٢).

(٣) رواه مسلم (١٦/ ١٧٧)، وأحمد في مسنده (٣/ ٣٨٣).

(٤) صححه الألباني (صحيح سنن الترمذي برقم ١٥٩٤، والصحيحة برقم ٥٧٢).

المسلم لم يزل في خرفة[١] **الجنة حتى يرجع»** قيل: يا رسول الله وما خرفة الجنة؟ قال: «**جنَاهَا**»[٢].

٧ ـ إجابة الدعوة:

قال ﷺ: «**من دُعيَ فلم يجب فقد عصى الله ورسوله**»[٣].

٨ ـ تقديم الطعام:

قال بعض السلف: الاجتماع على الطعام من مكارم الأخلاق.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لأن أجمع إخواني على صاع من طعام أحبَّ إليَّ من أن أعتق رقبة.

سادسًا: المرأة بين نقصان العقل ورجاحته[٤]:

يعتقد البعض أن حديث النبي ﷺ: «**... ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن**»[٥]: فيه إهانة للمرأة، وحطٌ من كرامتها، ومنزلتها في المجتمع!

(لكن الحقيقة غير ذلك تمامًا، لأن هذا الحديث يشرح لنا طبيعة المرأة من ناحية التكوين، فالمرأة بطبيعة تكوينها تغلب عليها العاطفة، وهذا ليس عيبًا،

---

(١) الخرفة: هي الثمرة الناضجة.

(٢) رواه مسلم (١٦/ ١٢٥).

(٣) رواه مسلم بمعناه (٩/ ٣٧).

(٤) للمؤلف كتاب حول هذا الموضوع بعنوان: «النساء أكثر أهل النار... الأسباب وطرق النجاة» فليراجع.

(٥) رواه البخاري ومسلم، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٤٨)، وغيرهم.

ولكنه ميزة تناسب مهمتها في الحياة؛ لأنه مفروض بطبيعتها أن تعطي من الحنان أكثر، ومن التفكير العقلي أقل.

إنها هي التي تحنو، وهي التي تمسح الدموع، وتضع مكانها الابتسامة.

وهي التي تمسح تعب اليوم وشقاءه عن زوجها وأولادها، ولا يتم هذا بالعقل ولكنه يتم بالعاطفة.

إن هذا لا يعني طعنًا في فكر المرأة وذكائها، وإن كان يعني كشفًا عن طبيعتها.

ويهمني أن ألقي ضوءًا على حدث هام كان للمرأة دور كبير في حسمه، مما يدل على رجاحة العقل وحسن التصرف، وذلك الحدث هو صلح الحديبية.

حينما تم توقيع صلح الحديبية، أمر رسول الله ﷺ أن يذبحوا الهدي، ويحلوا إحرامهم، ولكن الحمية الدينية في داخلهم، والصلح الذي منعهم من الطواف ببيت الله الحرام، أشعلت ثورة في صدورهم، منعتهم أن يروا الحكمة في توقيع هذا الصلح، وكيف أن الله سبحانه وتعالى جعل في هذا الصلح إشارة لانتصار الإسلام وفتح مكة.

نقول: إن رسول الله ﷺ أمر المؤمنين بأن يذبحوا الهدي، ويحلوا إحرامهم، ولكن أحدًا منهم لم يفعل ذلك.

فدخل الرسول عليه الصلاة والسلام على زوجته أم سلمة وهو شديد الغضب، فقالت: مالك يا رسول الله؟ فلم يرد، فكررتها عدة مرات.

حتى قال ﷺ : «**هلك المسلمون، أمرتهم بأن ينحروا ويحلقوا فلم يفعلوا**» فقالت أم سلمة : يا رسول الله، لا تَلُمْهُم فإن داخلهم أمرٌ عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح . . يا نبي الله اخرج ولا تكلم أحدًا منهم، وانحر هديك، واحلق رأسك .

ففعل رسول الله ﷺ ذلك، وقام المسلمون فنحروا وحلقوا .

وهكذا نرى أن رسول الله ﷺ أخذ برأي زوجته أم سلمة في أمر من أشق الأمور وأشدها، ولو كان عقلها ناقصًا ـ نقص ذكاء أو نقص استيعاب ـ ما نزل رسول الله ﷺ على رأيها، ولكن نقص العقل في الحديث الشريف معناه : أنها تفعل أشياء يقف العقل عندها، وإنما تفعلها بالعاطفة، ولو لم تكن العاطفة أقوى من العقل في المرأة لما سهرت الليالي بلا نوم بجوار ابنها المريض، ولما عاشت وتحملت تبقى مع زوجها وأولادها في الأزمات، ولما استطاعت أن تتحمل مشقة التربية وصعابها)[١] .

* * *

(١) المرأة في القرآن الكريم، للشيخ محمد متولي الشعراوي ص(٤٨ ـ ٥٥) بتصرف واختصار .



(٢)
موقف أم سليم رضي الله عنها عند وفاة ولدها

موقف أم سليم رضي الله عنها عند وفاة ولدها

قال أنس رضي الله عنه:

«قال مالكٌ أبو أنس لامرأته أمِّ سُلَيم - وهي أمُّ أنس - إن هذا الرجل - يعني النبي ﷺ - يُحرّم الخمر فانْطَلَق حتى أتى الشام فهلك هناك.

فجاء أبو طلحة، فخطب أم سليم، فكلمها في ذلك، فقالت: يا أبا طلحة! ما مثْلُك يُرَدُّ، ولكنك امرؤٌ كافرٌ، وأنا امرأة مسلمة لا يصلح لي أن أتزوجك! فقال: ما ذَاكَ دَهْرُك! قالت: وما دهري؟ قال: الصفراء والبيضاء[1]! قالت: فإني لا أريد صفراء ولا بيضاءَ، أريد منك الإسلام، فإن تُسلم فذاك مَهْري، ولا أسألك غيره، قال: فمن لي بذلك؟ قالت: لك بذلك رسول الله ﷺ.

فانْطَلَق أبو طلحة يريد النبي ﷺ، ورسول الله ﷺ جالس في أصحابه، فلما رآه قال: «**جاءكم أبو طلحة غُرَّة الإسلام بين عينيه**»، فأخبر رسولَ الله ﷺ بما قالت أم سليم، فتزوجها على ذلك.

قال ثابت: (وهو البُناني أحد رواة القصة عن أنس): فما بلغنا أن مهراً كان أعظم منه أنها رضيت الإسلام مهراً.

---

(١) مراده بذلك إغراءها بالذهب والفضة والمال الوفير.

فتزوجها وكانت امرأة مليحة العينين، فيها صِغَرٌ، فكانت معه حتى وُلد له بُني[1]، وكان يحبُّه أبو طلحة حبًا شديدًا، ومرِض الصبي مرضًا شديدًا، وتواضَعَ أبو طلحة لمرضه أو تَضَعْضَعَ له، فكان أبو طلحة يقوم صلاة الغداة يتوضأ، ويأتي النبي ﷺ فَيُصَلِّي معه، ويكون معه إلى قريب من نصف النهار، ويجيء يقيل ويأكل، فإذا صلى الظهر تهيّأ وذهب، فلم يجئ إلى صلاة العَتْمَة.

فانطلق أبو طلحة عَشيّةً إلى النبي ﷺ (وفي رواية: إلى المسجد) ومات الصبيُّ فقالت أمُّ سليم: لا ينعينَّ إلى أبي طلحة أحدٌ ابنه حتى أكون أنا الذي أنعاه له، فَهيَّأت الصبيَّ، فَسَجَّت عليه، وَوَضَعَتْهُ في جانب البيت، وجاء أبو طلحة من عند رسول الله ﷺ حتى دخل عليها ومعه ناسٌ من أهل المسجد من أصحابه فقال: كيف ابني؟ فقالت: يا أبا طلحة ما كان منذ اشتكى أسكن منه الساعة وأرجو أن يكون قد استَرَاح! فَأَتَتْهُ بعشائه فقربته إليهم فتَعَشَّوا، وخرج القوم.

قال: فقام إلى فراشه فوضع رأسه، ثم قامت فَتَطَيَّبَتْ، وتَصَنَّعَتْ له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك، ثم جاءت حتى دخلت معه الفراش، فما هو إلا أن وجد ريح الطيب، كان منه ما يكون من الرجل إلى أهله.

فلما كان آخر الليل قالت: يا أبا طلحة أرأيت لو أن قومًا أعاروا قومًا عارية لهم، فسألوهم إياها، أكان لهم أن يمنعوهم؟ فقال: لا، قالت: فإن الله عز وجل كان أعارك ابنك عاريةً، ثم قبضه إليه، فاحْتَسب واصبر! فغضب ثم

---

(١) ذكر بعض أهل العلم أنه أبو عمير الوارد ذكره في «الصحيح» في حديث: **«يا أبا عمير ما فعل النغير؟»**.

قال: تَرَكْتني حتى إذا وَقَعْتِ بما وَقَعْتِ به نَعَيتِ إليَّ ابني! فاسترجع، وحمدَ الله.

فلما أصبح اغتسل، ثم غدا إلى رسول الله ﷺ فصلَّى معه فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «**بارك الله لكما في غابر ليلتكما**»، فَثَقَلَتْ من ذلك الحَمْلِ، وكانت أم سليم تسافر مع النبي ﷺ، تخرج إذا خرج، وتدخل معه إذا دخل، وقال رسول الله ﷺ: «**إذا وَلَدت فأتوني بالصبي**».

قال: فكان رسول الله ﷺ في سَفَر وهي معه، وكان رسول الله ﷺ إذا أتى المدينة من سفر لا يطرقها طروقًا، فدنوا من المدينة، فضربها المخاض، واحتبس عليها أبو طلحة، وانطلق رسول الله ﷺ، فقال أبو طلحة: يا رب إنك لتعلم أنه يعجبني أن أخرج مع رسولك إذا خرج، وأدخل معه إذا دخل، وقد احْتَبَسْتُ بما ترى.

قال: تقول أم سليم: يا أبا طلحة ما أجدُ الذي كنت أجدُ فانطلقا، قال: وضَرَبَها المخاضُ حين قَدموا، فوَلَدت غلامًا، وقالت لابنها أنس: يا أنس! لا يَطْعمُ شيئًا حتى تَغْدُوَا به إلى رسول الله ﷺ، وبَعَثَتْ معه بتَمَرات، قال: فبات يبكي، وبتُّ مُجْنحًا عليه، أكالئُه حتى أصبحت.

فغدوت إلى رسول الله ﷺ، وعليه بُرْدَةٌ، وهو يَسِمُ إبلاً أو غَنَمًا قَدمَت عليه، فلما نظر إليه، قال لأنس: «**أَوَلَدَتْ بنتُ مِلْحَان؟**»، قال: نعم، فقال: «**رُوَيدك أفرغ لك**»، قال: فألقى ما في يده، فتناول الصبيَّ، وقال: «**أمعه شيء؟**»، قالوا: نعم، تمرات، فأخذ النبي ﷺ بعض التمر فمَضَغَهنَّ، ثم جمع بُزاقَه، ثم فَغَرَ فاه، وأوْجَرَه إياه، فجعل يُحَنِّك الصبيَّ، وجعل الصبيُّ

يتلمَّظ : يَمُصُّ بعض حلاوة التمر وريق رسول الله ﷺ ، فكنَّ أولَ مَنْ فَتَح أمعاء ذلك الصبي على ريق رسول الله ﷺ فقال : «انظروا إلى حُبِّ الأنصار التمر» ، قال : قلت : يا رسول الله سَمِّه ، قال : فمسح وجهه وسماه عبد الله ، فما كان في الأنصار شابٌّ أفضل منه ، قال : فخرج منه رجلٌ كثير ، واستشهد عبد الله بفارس .

وعند البخاري (١٣٠١) قال سفيان : «فقال رجل من الأنصار : فرأيت لهما تسعة أولاد كلُّهم قد قرأ القرآن»[1] اهـ . أي من ولد ولدهما عبد الله .

* * *

(١) أخرجه الطيالسي (٢٠٥٦) ، والسياق له ، ومن طريقه البيهقي (٤/ ٦٥ ، ٦٦) ، وابن حبان (٧٣٥) ، وأحمد (٣/ ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٨١ ، ١٩٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠) ، ورواه البخاري (٣/ ١٣٢ ، ١٣٣) ، ومسلم (٦/ ١٧٤ ، ١٧٥) مختصراً ، وروى النسائي (٢/ ٨٧) قسمًا من أوله .
هذا تخريج الشيخ العلامة محمد ناصر الدين الألباني في «أحكام الجنائز» ص(٣٨) ، ملخصًا ، حيث بين زيادات كل واحد من المذكورين ، وقد أضفت الزيادة الأخيرة التي عند البخاري لصلتها وأهميتها ، وموضع الحديث في «صحيح البخاري» الطبعة السلفية - مع الفتح - عند رقم (١٣٠١) ، (٥٤٧٠) ، وفي «صحيح مسلم» طبعة محمد فؤاد عبد الباقي ، رقم (٢١٤٤) [٢٢] (ص١٦٨٩ ، ١٦٩٠) [١٠٧] ص(١٩٠٩ ، ١٩١٠) ، وقد أطال محقق «صحيح ابن حبان» النَّفَس في تخريج هذا الحديث فراجعه - غير مأمور - (١٦/ ١٥٧) ، (نقلاً عن كتاب «امرأة تهفو لمثلها القلوب» لخالد الشايع) .

الدروس والعبر

أولاً: مكانتها وفضلها رضي الله عنها:

إن ما خصَّها النبي ﷺ به من التكريم والتقدير لَيُعلم منه مباشرة مكانتها وفضلها رضي الله عنها، وإلا لماذا خصها النبي ﷺ بكل ذلك؟!

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ لا يدخل على أحد من النساء إلا على أزواجه، إلا على أم سليم فإنه كان يدخل عليها، فقيل له في ذلك فقال: «**إني أرحمها، قُتل أخوها وأبوها معي**»[1].

* وعن أنس قال: كان النبي ﷺ يدخل بيت أم سليم فينام على فراشها وليست فيه، قال: فجاءت ذات يوم فنام على فراشها فأُتيت، فقيل لها: هذا النبي ﷺ نام في بيتك على فراشك[2].

وجمهور العلماء على أن أم سليم وأختها أم حرام كانتا من محارمه.

قال النووي رحمه الله: كانتا خالتين لرسول الله ﷺ مَحْرَمين إما من الرضاع، وإما من النسب فتحل له الخُلوة بهما[3].

* وعنه رضي الله عنه أيضًا قال: كان النبي ﷺ يزور أم سليم أحيانًا فتدركه الصلاة، فيصلي على بساط لنا وهو حصير ينضحه بالماء.

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (٤/ ٤٦١).
(٢) رواه مسلم ـ كتاب الفضائل برقم (٢٣٣١).
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/ ١٠).

* وعنه أيضًا قال: زار رسول الله ﷺ أم سليم فصلى في بيتها تطوعًا، وقال: «**يا أم سليم إذا صليت المكتوبة فقولي: سبحان الله عشرًا، والحمد لله عشرًا، والله أكبر عشرًا، ثم سلي الله ما شئت، فإنه يقال لك: نعم، نعم، نعم**».

* وكان ﷺ يتفقدها بالسؤال إذا غابت عنه، فعندما حج النبي ﷺ لم تحج معه أم سليم، فقال لها: «**ما لأم سليم لم تحج معنا العام؟**»، قالت: يا نبي الله كان لزوجي ناضحان، فأما أحدهما فحج عليه، وأما الآخر فتركه يسقي عليه نخله، قال ﷺ: «**فإذا كان رمضان، أو شهر الصوم، فاعتمري فيه، فإن عمرة فيه مثل حجة ـ أو قال: ـ تقضي مكان حجة**»[١].

* ومن أعظم ما يدل على مكانة أم سليم وفضلها رضي الله عنها بشرى رسول الله ﷺ لها بالجنة، فعن أنس رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**دخلتُ الجنة فسمعت خَشْفَةً**[٢]، **فقلت: ما هذا؟ فقيل: الرميصاء بنت ملحان**»، وفي رواية البخاري: «**دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طلحة**»[٣]، وفي رواية لمسلم قال: «**أريتُ الجنة فرأيت امرأة أبي طلحة**»[٤].

* وكان ﷺ يخصها بشعره الشريف عندما يحلق شعر رأسه، فعن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: لما حلق رسول الله ﷺ رأسه بِمِنَى، أخذ شق

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٨/ ٤٣٠).
(٢) الخشفة: الصوت ليس بالشديد.
(٣) كتاب فضائل الصحابة ـ فتح الباري (٧/ ٥٠).
(٤) كتاب فضائل الصحابة (٤/ ١٩٠٨).

رأسه الأيمن بيده، فلما فرغ ناولني فقال: «**يا أنس انطلق بهذا إلى أم سليم**»[١].

* وكثيراً ما كان يدعو رسول الله ﷺ لأم سليم بالخير؛ فقد قالت رضي الله عنها: «لقد دعا لي رسول الله ﷺ حتى ما أريد زيادة».

وعندما منحته ابنها أنسًا ليخدمه مضى يدعو لها كما قالت: «فما ترك خير آخرة ولا دنيا إلا دعا لي به»[٢].

* و مما خصها به النبي ﷺ أيضًا أنه كان يضمها إلى بعض نسائه في الأسفار الطويلة، فعن أنس رضي الله عنه قال: أتى النبي ﷺ على بعض نسائه ومعهن أم سليم فقال: «**ويحك يا أنجشة، رويدك سَوْقًا بالقوارير**»[٣].

مما تقدم يتبين لنا تلك المكانة الرفيعة التي تبوأتها أم سليم رضي الله عنها، وهذا الفضل الذي نالته ووصلت إليه، فليهنك السعد يا أم سليم!

ثانيًا: الاستعلاء بالإسلام عما عداه:

في قصة زواج أم سليم رضي الله عنها من أبي طلحة رضي الله عنه أعلى مثال، وأصدق خبر، في استعلاء المرأة المسلمة بدينها، واعتزازها به، عن كل حطام الدنيا، وعن كل مخلوق، وعن كل متعة زائلة في الدنيا بلغت ما بلغت.

فعندما تقدم إليها أبو طلحة يريد الزواج منها قالت له: «لم أكن أتزوجك

---

(١) مسند الإمام أحمد (٣/ ١٤٦).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٠٩).

(٣) رواه البخاري (الفتح ١٠/ ٥٥٤).

وأنت مشرك، أما تعلم يا أبا طلحة أن آلهتكم التي تعبدون ينحتها عبد آل فلان النجار، وأنكم لو أشعلتم فيها نارًا لاحترقت»، وقالت: «فهل لك أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وأزوِّجك نفسي، لا أريد منك صداقًا غيره»، قال: لا والله ما هذا دهرك[١]، قالت: «فما دهري؟» قال: دهرك في الصفراء والبيضاء[٢]، قالت: «فإني أشهدك وأشهد نبي الله ﷺ أنك إذا أسلمت فقد رضيت بالإسلام منك».

قال أنس: فانصرف عنها وقد وقع في قلبه من ذلك، فأتاها يومًا فقال: الذي عرضت عليَّ قد قبلت، فمن لي بهذا؟ قالت: يا أنس قم فانطلق مع عمك، فقام فوضع يده على عاتقي، فانطلقنا حتى إذا كنا قريبًا من نبي الله ﷺ فسمع كلامنا فقال ﷺ: **«هذا أبو طلحة بين عينيه غُرة الإسلام»**، فسلم على نبي الله ﷺ فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، فزوّجه رسول الله ﷺ على الإسلام. قيل: ما سمعنا بمهر قط كان أكرم من مهر أم سليم في الإسلام[٣].

إن أول ما يلفت الانتباه في موقف أم سليم رضي الله عنها عندما تقدم أبو طلحة للزواج منها، هو أنها لم تعرض عليه الإسلام إلا بعد أن بينت له بالدليل العقلي فساد عقيدته: «أما تعلم أن آلهتكم التي تعبدون ينحتها عبد آل فلان»، ثم أثارت تفكيره، ووجَّهته إلى التدبر ومراجعة نفسه، وإعمال

---

(١) دهرك: همتك وإرادتك.

(٢) الصفراء والبيضاء: الذهب والفضة.

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٠٦)، حياة الصحابة (٢/ ٥٨٩، ٥٩٠)، صفة الصفوة (٢/ ٣٦).

فكْره بقولها: «أما تستحي أن تسجد لخشبة»، فهذا يدل على ما تملكه هذه المرأة الصالحة من قوة الحجة، وفصاحة اللسان والجدل.

لم يلهها طلب الزواج منها، وأنها ستكون صاحبة بيت مرة أخرى وستنعم بما ترغب فيه كل أنثى أن تنعم من بيت وزوج وحياة مستقرة عن دعوته إلى عبادة الله تعالى وحده ودخوله في الإسلام.

كذلك يبدو لنا بجلاء عكس ما تفكر فيه أكثر الفتيات اليوم، فرغبتها رضي الله عنها في إسلام أبي طلحة كان مقدمًا على الدرهم والدينار، على الذهب والفضة، فهي حريصة على زيادة عدد المسلمين، ولم يلهها ذلك كله عن استمرارها في دعوته، وقالت: إني لا أريد منك صداقًا غيره[1].

هكذا استعلت أم سليم رضي الله عنها بدينها عن الدنيا بمالها وذهبها وشهواتها، ويوم تستعلي المرأة بدينها عما عداه، وتعتز بدينها قولاً وعملاً، سنرى أجيالاً صالحة من النساء، تهتم بعبادتها لله تعالى، وبدعوة غيرها إلى الاستقامة على الدين، تهتم بتربية نفسها وأولادها على منهج لا إله إلا الله، ولن تلتفت إلى أقوال الناس يوافقون أو يعترضون، يثنون عليها أو ينكرون؛ لأن الدين عندها أعز من كل شيء.

ويوم تفتقد المرأة إلى هذه المعاني العظيمة سنرى حثالات من النساء في كل مكان دينهن الدنيا، وقبلتهن الشهوات، وحياتهن الهوى والمتاع، وهذا هو حال أكثر نساء اليوم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) ولذلك يبدو لنا خطأ تفكير بعض الأخوات المسلمات من قبولهن بأزواج ليسوا في الحقيقة ملتزمين ومستقيمين على الدين، خوفًا من أن يفوتهن قطار الزواج، أو لرغبتهن في التمتع بالدنيا ولو على حساب الدين!

وعن أنس رضي الله عنه قال: جاءت أم سليم رضي الله عنها إلى أبي أنس، فقالت: جئتُ اليوم بما تكره، فقال: لا تزالين تجيئين بما أكره من عند هذا الأعرابي، قالت: كان أعرابيًا اصطفاه الله واختاره وجعله نبيًا، قال: ما الذي جئت به؟ قالت: حُرمت الخمر، قال: هذا فراق بيني وبينك.

وفي هذا الموقف يبرز لنا عدم يأس أم سليم رضي الله عنها من الأمل في هداية زوجها إلى الإسلام، وفي إدخال نور الحق إلى قلبه، لكن الرجل يزداد صلابة وعنادًا، ويصر على كفره وضلاله، وصدق الله تعالى حيث قال: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

ثالثًا: دور الزوجة في تسلية زوجها عند المصائب:

لقد ضربت أم سليم رضي الله عنها مثلاً في دور الزوجة في تسلية زوجها عند المصائب، يفوق كل التصورات وكل التوقعات.

والحمد لله أن الذي ضربت هذا المثال الرائع إحدى الصحابيات وليست واحدة من أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، حتى لا يقول أحد: إنها أم المؤمنين، وأنَّى لنا أن نصل إليهن إيمانًا أو عملاً!!

ولكن كانت امرأة عادية من نساء الصحابيات، ولكنها بإيمانها وثباتها واعتزازها بإسلامها وفهمها له، فاقت أترابها من النساء، وأصبحت قدوة تنشغل بها نساء المسلمين الصالحات.

والشاهد من الحديث على ذلك: أن أبا طلحة رضي الله عنه عندما عاد من سفره وسأل عن ابنه وقد تركه مريضًا قالت له ـ وقد مات الصبي ـ: «قد هدأت نفسه وأرجو أن يكون قد استراح».

وظن أبو طلحة أن ابنه قد هدأت نفسه ونام، ومضت أم سليم تبدي حسن تبعلها، فتزينت له، وقربت إليه العشاء فتعشى، حتى كان منه ما يكون من الرجل مع زوجته، فلما أصبح أبو طلحة اغتسل وحين همَّ بالخروج قالت له أم سليم وهي شامخة تكمل دورها في تسلية زوجها، وتضرب لنا المثال العجيب في كيفية إيصال خبر وفاة ابنها لأبي طلحة: «يا أبا طلحة أرأيت لو أن قومًا أعاروا أهل بيت عارية، فطلبوا عاريتهم، ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا، ليس لهم ذلك، إن العارية مؤداة إلى أهلها، قالت: فاحتسب ابنك، إن الله أعارنا فلانًا ثم أخذه منا»، فاسترجع.

فلنا أن نتعجب كيف تمالكت هذه المرأة نفسها - وهي الضعيفة - وآلت على نفسها، وقد عاد زوجها من سفره، يريد أن يستريح ويأكل وينعم بأهل بيته بعد غياب، وفي نفس الوقت قد مات ولدها وقد غطته في ناحية من البيت.

كانت رضي الله عنها بين صراعين، لكنها قدمت حق زوجها فأطعمته وهدأت من نفسه بعد غيابه عن البيت، وطمأنته على ولده، ثم نال منها ما ينال الرجل من أهله حتى تهدأ نفسه، وتسكن جوارحه، ثم أبلغته بالخبر.

ولم يكن إبلاغه بالخبر بلاغًا عاديًا، وإنما بصورة تفوق التصور أيضًا، وتجعل المرء يقف أمام هذه المرأة بإجلال وتقدير واحترام لا يوصف.

لقد ضربت له مثالاً رائعًا في قوم قد أُعيروا عارية فلما طُلبت منهم منعوها، وهل يقبل أحدٌ ذلك، بالطبع لا، لذلك فقد عاب على هؤلاء ما فعلوه.

كان استدراجًا إيمانيًا، تؤصل عنده القاعدة، ثم بعد ذلك تذكر له فرعًا

منها، فما كان من الرجل إلا أن استرجع فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

فما كان من الرجل أيضًا إلا أن يقف هذا الموقف الإيماني المفروض في هذا الحدث، وإلا أين هو من موقف زوجته؟!!

رابعًا: دور الأم في تربية الأولاد:

لا نستطيع أبدًا أن نغفل الدور الكبير والمهم للأم في تربية أولادها، ومع أنها شريكة الرجل في هذه المسئولية الكبيرة، إلاأن نصيبها أوفر وأهم من الرجل، وذلك لأن الأم هي التي حملت ثم وضعت ثم أرضعت، فضلاً عن وجودها مع أولادها وقتًا أكبر من الرجل.

ويظهر لنا هذا الدور في موقف أم سليم رضي الله عنها مع ولدها أنس، فلما جاء والد أنس وكان غائبًا، فقال: أَصَبَوت؟ قالت: ما صبوت ولكني آمنت بهذا الرجل، وجعلت تلقن أنسًا وتشير إليه قل: لا إله إلا الله، قل: أشهد أن محمدًا رسول الله، وكان الولد يردد ما تقوله له أمه، وكان والد أنس يقول لها: لا تفسدي عليّ ابني، فتقول: إني لا أفسده.

هكذا عكفت أم سليم رضي الله عنها على ابنها أنس، تلقنه الشهادة، وتحوطه بالرعاية والعناية حتى لا يقع فريسة تحت يدي أبيه الكافر.

وقد أصرت أم سليم رضي الله عنها بعدما مات والد أنس ألا تتزوج وأن تربي ولدها حتى يكبر، مخافة أن يصيبه ضرر بسبب زواجها الجديد أو على الأقل تنشغل عن تربيته التربية التي تريدها له، وكانت تقول رضي الله عنها: «ولا أتزوج حتى يأمرني أنس فيقول: قد قضت الذي عليها».

وقد اعترف أنس فعلاً بعد ذلك لها بأنها لم تنشغل عنه في حضانته

وطفولته فقال: «جزى الله أمي عني خيرًا، لقد أحسنت ولايتي»، فكانت أم سليم أكثر حرصًا على تربية ولدها ونشأته من الإسراع إلى الزواج بعد وفاة زوجها، وإن كان هذا اجتهادًا منها رضي الله عنها في أمر مباح، وإلا فلا ضير في زواج المرأة بعد موت زوجها حتى وإن كان عندها أولاد، وربما كان ذلك واجبًا عليها في بعض الحالات، لاسيما إن لم يكن هناك عائل يعولها هي وأولادها، أوتخشى على نفسها الفتنة، لاسيما في زمن استعرت فيه نار الفتن.

يقول عدنان حسن صالح با حارث:

(«للأم وظيفة هامة في التربية النفسية للطفل الصغير خاصة، إذ إن بناءها الجسمي والنفسي مهيأ لتحمل أعباء التربية والحضانة والاعتناء بالطفل، فلا يستطيع الرجل أن يسد مكان الأم ودورها في التربية، وأقرب مثل لهذا الموضوع، مايشاهد في عالم الحيوان، إذ ينتهي دور الذكر بالتلقيح في معظم الحيوانات، أما الأم فلا ينتهي عملها ووظيفتها التربوية حتى يكتمل البناء الجسمي للصغير، ويصبح معتمدًا على نفسه في جميع شئونه.

أما في الإنسان فالقضية أعمق؛ إذ ليس دور الأم فقط تأمين الغذاء للولد، ورعاية بدنه وملابسه فحسب؛ بل إن دورها الأكبر والأعظم هو ذلك الحب المتدفق من قلبها على الولد، وذلك الحنان الذي يشعر الولد فيه بالأمن والسعادة فينمو بدنه وعقله ونفسه نموًا متكاملاً، أما «الطفل الذي يُحرم من أن يُحَبَّ ويُحبَّ في باكورة حياته نتيجة لعزله بعيدًا عن أمه يتأخر نموه البدني والعقلي واللغوي والاجتماعي، وتُصاب شخصيته بضرر بالغ»[1]، بحيث لو

(١) السيد فؤاد البهي، الأسس النفسية للنمو من الطفولة إلى الشيخوخة، (ص٢٢٧).

زاد انعزاله عن أمه أكثر من ثلاثة أشهر إلى أن يصل خمسة أشهر، فإن نموه العاطفي يختل عن أقرانه من الأطفال[١]، وتُعد فترة الطفولة المبكرة خاصة في الفترة من تسعة أشهر إلى ثمانية عشر شهراً أقصى مراحل الخطر الذي يمكن أن يحدث للطفل من جراء عزله عن أمه[٢]. لهذا يحذر الأب من أن يتخذ قرار الانفصال في فترة كهذه، بل عليه أن يصبر ويحتسب، ويوقع طلاقه على زوجته في الوقت المناسب المشروع بعد الأخذ بأسباب الإصلاح.

ونظرًا لأهمية دور الأم بالنسبة للطفل الصغير، فإن من محاسن الشريعة الإسلامية أن قدَّمت النساء على الرجال في رعاية الأطفال؛ لأنهن أخبر بأمور الحضانة والتربية منهم[٣]، وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام: «**المرأة أحق بولدها ما لم تزوج**»[٤]، ويصف الماوردي رحمه الله الأم مع أولادها فيقول: «والأمهات أكثر إشفاقًا، وأوفر حبًا، لما باشرن من الولادة وعانين من التربية، فإنهن أرق قلوبًا، وألين نفوسًا»[٥]، لهذا فإن وجودها في الأسرة، وقيامها بواجباتها في التربية والرعاية يُعد من أهم دعائم الأسرة المسلمة، ومن أعظم أسباب استقرارها النفسي والاجتماعي)[٦].

خامسًا: أهمية تزين المرأة لزوجها:

تضرب أم سليم رضي الله عنها لنساء المسلمين من بعدها مثالاً غاية في

---

(١) المرجع السابق.
(٢) مجلة التربية، «أهمية التخطيط لرعاية الطفولة»، العدد (٧٣)، (ص١٣٠).
(٣) ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، (٥/ ٤٣٨).
(٤) الدارقطني، سنن الدارقطني، كتاب النكاح، باب المهر، حديث رقم (٢١٩)، (٣/ ٣٠٥).
(٥) الماوردي، أدب الدنيا والدين، (ص١٥٢).
(٦) مسئولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة (ص٥٤٣، ٥٤٤).

الروعة والقمة في فهمها لحقوق الزوج، وعلو قدره عندها.

فلما جاء أبو طلحة إلى البيت وأرادت أن تخبره الخبر، كانت قد استقبلته وهي متزينة ومتطيبة، ثم تصنَّعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك، وتعرضت له، فكان منه ما يكون من الرجل مع زوجته.

وفي مسند الإمام أحمد: «فأكل وطابت نفسه، قال: فقام إلى فراشه فوضع رأسه، قالت: وقمت أنا فمسست شيئًا من طيب، ثم جئت حتى دخلت معه الفراش، فما هو إلا أن وجد ريح الطيب، فكان منه ما يكون من الرجل مع أهله»[١] .

هذا الحديث الذي يبرز لنا الموقف العجيب لأم سليم تجاه زوجها، يكشف عن جانب عظيم ارتقت إليه هذه المرأة الثكلى، حيث فقدت وليدها الصغير، ومع ذلك كان استعدادها لزوجها العائد إلى بيته أكبر عندها بكثير من أن تشغله ابتداءً بوفاة ابنها، في الوقت الذي تتكاسل فيه كثير من النساء اليوم، بل ولا يهتممن بأمر الزينة والطيب.

(إن الزوجة التي تجدد في مظهرها، ليراها زوجها متعطرة، متزينة من أجله، بما يجذب إليها الزوج ويغض به بصره عن التطلع إلى الحرام أقدر على إيجاد جو المحبة والسعادة في بيتها، ولأن سرور الرجل راجع إلى مظهر الزوجة واعتنائها بنفسها.

ولذلك؛ فإنه على المرأة أن تواظب على النظافة والتزيُّن لزوجها[٢] ،

---

(١) المسند (٣/ ١٨١).

(٢) وليس من الزينة إطالة المرأة أظفارها وطليها كما تفعل الغربيات، ولا أن تنقض الحاجب والوجه، ولا أن تصل الشعر بما يسمى الباروكة.

فذلك أدعى لشهوة الرجل وأملأ لعينه وأظهر لمحاسن المرأة وأدوم للألفة والمودة.

لأن الزينة متعة للعين ومتعة للشم، والإنسان يسعد برؤية الشيء المتزين، وشم الروائح الطيبة.

وعليها أن تحرص ألا تظهر أمامه بما يسبب اشمئزازه ونفوره منها بملابس رثة أو روائح كريهة.

وقد حث نبي الإسلام ﷺ النساء على الزينة، فقد رأى امرأة أهملت زينة يديها فقال لها: «**ما أدري أيد رجل أم يد امرأة؟!** قالت: بل امرأة، قال: **لو كنت امرأة لغيرت أظفارك** - يعني بالحناء -»[1]، أي زينيها بالحنة أو بما يزين به النساء أيديهن.

ولو علمت النساء مدى الفزع والجزع وانغلاق النفس والقلب من الروائح الكريهة والعفنة، لعذرن الأزواج في هذه الحال إذا تجنبوا الاقتراب منهن للحديث العادي فضلاً عن محاولة القبلة أو المداعبة أو اللقاء.

ولذلك قال أحدهم: «لا شيء يهدد العلاقة الجنسية بالفشل الكامل قدر بخر الفم، وعفن اللثة والأسنان عند الزوج والزوجة معًا».

ولذلك لم ير الإسلام مانعًا من تزين المرأة لزوجها، بل هو يحب أن يدخل على زوجته فيجدها حسناء فاتنة، تسره إذا نظر إليها، وتحفظه إن غاب

---

(١) حسن، رواه أبو داود (٤١٦٦)، وغيره عن عائشة رضي الله عنها، وانظر: صحيح سنن أبي داود (٣٥١٠).

عنها، وتفتنه بجمالها ودلالها.

فعلى المرأة أن تبذل في ذلك أقصى ما تملك من جهد للفوز بقلب زوجها وللمحافظة على دفء العلاقة بينهما بما تبديه من رقة ودلال وجمال لقصر رغبات زوجها عليها . . فعليها أن تحسن اختيار اللباس المناسب لسنها ولونها وأن تراعي الألوان التي يحبها الزوج لا التي تحبها صديقاتها من النساء، وترتدي الملابس الجميلة لزوجها، القصير منها والطويل، الشفاف منها والسميك.

ومن الزينة أيضًا تصفيف شعرها وتجميله، وإزالة الشعر الزائد والاعتناء بنظافة جسدها، ورشاقته متجنبة السمنة والبدانة؛ لأن رشاقة البدن جمال)[1] .

سادسًا: الصبر في حياة المسلمة:

قال علي بن أبي طالب: ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس بار الجسد، ثم رفع صوته فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له.

إن الصبر في حياة المرأة بالغ الخطورة، وذلك لأنها ضعيفة جزعة، تنهار بسرعة وتخور قواها، وهي أقرب للتسخط منها إلى الرضا والاحتساب، لذا فإنه يجب على المرأة أن تعد العدة وتشمر عن ساعديها، فتترقب كل فجيعة أو مصيبة بحسن الاستقبال والاسترجاع والرضا.

ولتعلم المسلمة أنه لولا مصائب الدنيا ومحنها، لأصابها من أدواء الكبر والعجب وقسوة القلب ما كان سببًا عاجلاً لهلاكها، فمن رحمة الله تعالى أن يتفقدها بين الحين والآخر بأنواع المصائب، فيقوي قلبها، وتتهذب نفسها،

(١) متعة الحياة الزوجية، إسماعيل عبد القادر (ص٦٣-٦٦).

وتصح عبوديتها لله تعالى، فسبحان من يرحم ببلائه، ويبتلي بنعمائه، كما قيل:

قد يُنعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

ولتعلم المسلمة أيضًا أن الله تعالى بمنه وكرمه، يعفو عن كثير، وإلا لقابلنا الله تعالى يوم القيامة بما لا نطيق من الذنوب.

ولتعلم أيضًا أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ووعد بالشفاء، فالصبر وإن كان شاقًا في بعض الأحيان، إلا أنه تحصيله ممكن، وهذه هي لذة العبادة ومعرفة قدرها.

قال يحيى بن معاذ: ابن آدم، مالك تأسف على مفقود لا يرده عليك الفوت، ومالك تفرح بموجود لا يتركه في يديك الموت.

اصبر لكل مصيبة وتجلد ... واعلم أن المرء غير مخلد

أو ما ترى أن المصائب جمة ... وترى المنية للعباد بمرصد

من لم يصب ممن ترى بمصيبة ... هذا سبيل لست عنه بأوحد

وإذا ذكرت مصيبة تسلو بها ... فاذكر مصابك بالنبي محمد

صبر امرأة تفضل ملايين الرجال:

هذه زوجة فتح المَوْصلي انقطعت أصبعها فضحكت فقال لها بعض من معها: أتضحكين وقد انقطع أصبعك؟ فقالت: أخاطبك على قدر عقلك، حلاوة أجرها أنستني مرارة قطعها.

قال ابن القيم رحمه الله: إشارة إلى أن عقله لا يحتمل ما فوق هذا المقام

من ملاحظة المبتلى، ومشاهدة حسن اختياره لها في ذلك البلاء، وتلذذها بالشكر له، والرضى عنه، ومقابلة ما جاء من قِبَله بالحمد والشكر، كما قيل:

لئن ساءني أن نلتَني بمساءة فقد سرَّني أني خطرت ببالكا [1]

* * *

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٦٧، ١٦٨).



(٣)
وصية أمامة بنت الحارث لابنتها عند زواجها

وصية أمامة بنت الحارث لابنتها عند زواجها

خطب الحارث بن عمرو ملك كندة ابنتها أم إياس بنت عوف بن محلم الشيباني، فزوجها أبوها منه، فقالت أمامة لابنتها:

«إن الوصية لو تركت لفضل أدب لتركت لذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها، وشدة حاجتهما إليها كنت أغنى الناس عنه، ولكن النساء للرجال خلقن، ولهن خلق الرجال.

أي بنية إنك فارقت الجو الذي منه خرجت، وخلَّفت العشَّ الذي فيه درجت، إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك رقيبًا ومليكًا، فكوني له أَمَةً يكن لك عبدًا وشيكًا.

يا بنية احملي عني عشر خصال تكن لك ذخرًا وذكرًا: الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة، والتعهد لموقع عينيه، والتفقد لموضع أنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح، والكحل أحسن الحسن، والماء أطيب الطيب المفقود.

والتعهد لوقت طعامه، والهدوء عنه عند منامه، فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة، والاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير، والإرعاء على العيال والحشم حسن التدبير، ولا تفشي له سرًا، ولا تعصي له أمرًا، فإنك إن أفشيت سره

لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أوغرت صدره، ثم اتقي مع ذلك الفرح إن كان تَرحًا، والاكتئاب إن كان فرحًا، فإن الخصلة الأولى من التقصير والثانية من التكدير، وكُوني أشد ما تكونين له إعظامًا يكن أشد ما يكون لك إكرامًا، وأشد ما تكونين له موافقة أطول ما يكون لك مرافقة، واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت، والله يُخيِّر لك»[1].

* * *

(١) أحكام النساء لابن الجوزي رحمه الله.

الدروس والعبر

أولاً: وصايا الأبوين لبناتهم:

إن الوالدين لما لهما من خبرة في الحياة، ولما أناطهما الله تعالى من المسئولية تجاه أولادهم، فهم ولاشك أقدر الناس على إسداء النصح لأولادهم، لاسيما إذا كان الوالدان مستقيمين على دين الله تعالى، حريصين على تقواه عزّ وجل.

وقد كان السلف رضوان الله عليهم لهم السبق في ذلك، لاسيما يوم زفاف بناتهم، حيث إنها سترحل إلى بيت جديد، ورجل لم تألفه من قبل، مع قلة خبرة في الدنيا، وفي مسائل الزواج بصفة خاصة.

* قال أنس: كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا زفوا امرأة على زوجها، يأمرونها بخدمة الزوج ورعاية حقه.

* وأوصى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ابنته فقال:

«إياك والغيرة، فإنها مفتاح الطلاق.

وإياك وكثرة العتب، فإنه يورث البغضاء.

وعليك بالكحل، فإنه أزين الزينة، وأطيب الطيب الماء».

* وأوصى ابن الأحوص ابنته زوج أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه فقال لها: «أي بُنيتي! إنك تقدمين على نساء من نساء قريش، هُنَّ

أقدر على الطيب منك، فاحفظي عني خصلتين، تكحلي وتطيبي بالماء حتى يكون ريحك ريح شن[١] أصابه مطر».

* وقال أبو الأسود لابنته: «إياك والغيرة، فإنها مفتاح الطلاق، وعليك بالزينة، وأزين الزينة الكحل، وعليك بالطيب، وأطيب الطيب إسباغ الوضوء».

* ونصحت أم معاصرة ابنتها قبل الزفاف بنصيحة مزجتها بابتسامتها ودموعها: «يا بُنيتي! أنت مقبلة على حياة جديدة . . . حياة لا مكان فيها لأمك أو أبيك أو لأحد من إخوتك فيها . . . ستصبحين صاحبة لرجل لا يريد أن يشاركه فيك أحد حتى لو كان من لحمك ودمك . . .

كوني له زوجة يا ابنتي وكوني له أمًا، اجعليه يشعر أنك كل شيء في حياته وكل شيء في دنياه . . . اذكري دائمًا أن الرجل - أي رجل - طفل كبير، أقل كلمة حلوة تسعده، لا تجعليه يشعر أنه بزواجه منك قد حرمك من أهلك وأسرتك، إن هذا الشعور نفسه قد ينتابه هو، فهو أيضًا قد ترك بيت والديه وترك أسرته من أجلك، ولكن الفرق بينك وبينه، هو الفرق بين المرأة والرجل . . . المرأة تحن دائمًا إلى أسرتها، إلى بيتها الذي ولدت فيه ونشأت وكبرت وتعلمت . . . ولكن لابد لها أن تُعوِّد نفسها على هذه الحياة الجديدة، لابد لها أن تكيف حياتها مع الرجل الذي أصبح لها زوجًا وراعيًا وأبًا لأطفالها . . . هذه هي دنياك الجديدة.

يا ابنتي! هذا هو حاضرك، ومستقبلك، هذه هي أسرتك التي شاركتما -

---

(١) الشن: القِربَة.

أنت وزوجك ـ في صنعها، أما أبواك منهما فماض . . . إنني لا أطلب منك أن تنسي أباك وأمك وإخوتك، لأنهم لن ينسوك أبدًا يا حبيبتي، وكيف تنسى الأم فلذة كبدها، ولكني أطلب منك أن تحبي زوجك وتعيشي له وتسعدي بحياتك معه».

ثانيًا: نظرة عامة إلى حقوق الزوج في الإسلام:

لقد مر بنا الحديث عن عظم مكانة الزوج في الإسلام، وكيف أن الإسلام رفع قدر الزوج، فهو القيم والراعي والمسئول الأول عن الأسرة، لذا فإن المرأة المسلمة في معاملتها لزوجها، وفي قيامها بحقوقه، لابد أن تنطلق من عدة دعائم أساسية، حتى تسير سفينة الحياة الزوجية هادئة مطمئنة في بحر من السعادة والهناء، ولعل أهم هذه الدعائم هي:

١ ـ تعظيم قدر الزوج، وذلك انطلاقًا من تعظيم الشرع لقدره، وليس انطلاقًا من عادات أو تقاليد أو آراء من هنا أو هناك فحسب، حيث إنه عندما يكون الدافع عند المسلمة هو التزام الشرع والتماس رضى الله عز وجل، فإن العمل دائمًا يتم في أحسن صورة، فتقوم الزوجة بحقوق الزوجية على أكمل وجه، بل ربما تُضَحِّي وتنسى نفسها لتقدم رضى زوجها على رضاها، وحينئذ ينتبه الزوج إلى زوجة كريمة عاقلة ديِّنة فعلاً ترجو اللهَ والدار الآخرة، فيحسن هو الآخر من جانبه إليها، بل وربما يتنافس الزوجان في إرضاء كل واحد منهما الآخر في إطار من طاعة الله تعالى.

٢ ـ العقل يفرض على الإنسان أنه إذا أحسن إلى الناس أحسنوا إليه، وإذا أساء إليهم أساءوا إليه ـ في غالب أحوال الناس ـ فما بالنا لو كان ذلك بين

الزوجين، وانطلاقًا من دوافع شرعية كطلب مرضاة الله عز وجل، وابتغاء الأجر والثواب.

إن الزوجة المسلمة عندما تحسن إلى زوجها، بل وتتحمل إساءته ابتغاء مرضاة الله عز وجل، فهي بذلك تسير على الطريق الموصل إلى جنة ربها عز وجل، وهل بعد ذلك النعيم من نعيم؟!

٣ ـ قصر الأمل في الدنيا يحمل كلاً من الزوجين أن يحسن إلى الآخر، وأن يتقرب إلى الله عز وجل بأداء الحقوق والواجبات خشية فراق الدنيا والزوج غاضب على زوجته أو غير راضٍ عنها.

بل إن قصر الأمل في الدنيا يحمل الإنسان على الزهد فيها، وطلب ما عند الله عز وجل من النعيم والحياة الأبدية في الجنة، وكل ذلك إذا عايشته الزوجة وملأ كيانها وجوارحها، لهنأ بها زوجها، وسعد بهما أولادهما.

٤ ـ الزوج هو الطريق الموصل إلى الجنة أو إلى النار، فإن أطاعته في طاعة الله عز وجل كان سببًا لدخولها الجنة، وإن عصته في طاعة الله عز وجل، كان ذلك سببًا لدخولها النار، فأي حقوق أعظم من حقوق الزوج التي تؤدي بالمرأة إما إلى الجنة وإما إلى النار.

٥ ـ العبادة لا تصرف إلا لله عز وجل، والسجود من العبادات التي لا تكون إلا لله عز وجل، ومع ذلك لو كان النبي ﷺ أمر أحدًا بالسجود لأحد، لأمر الزوجة أن تسجد لزوجها!

ألم تسأل المرأة نفسها لم كل ذلك؟!

ألم تسأل المرأة نفسها على أي شيء يدل ذلك؟!

إنها المكانة العظمى التي أناط الإسلام بها الزوج.

٦ ـ كيف أن حقوق الله تعالى على المرأة لا تؤدى حتى تؤدي المرأة حق زوجها، ما معنى ذلك؟ وعلى أي شيء يدل؟

إن المرأة إذا أقبلت على ربها بالطاعة، وعلى كتابه بالتلاوة، وعلى اللهج بذكره إلى غير ذلك من الطاعات، وهي في الوقت نفسه عاصية لزوجها قد غضب عليها؛ لأنها تعصيه في الله تعالى، فإنها لم تفعل شيئًا بعد، وإن عباداتها السابقة كلها موقوفة حتى تؤدي حق زوجها.

هل فَهِمْت أيها الزوجة المسلمة الآن ما معنى حقوق الزوج؟ وكيف تؤدى؟ وقفةَ مع النفس صادقة تجعل السعادة ترفرف في أرجاء البيت المسلم.

ثالثًا: كيف تسعدين زوجك؟

هي غاية يجب أن تبحث عنها كل امرأة مسلمة تخاف الله تعالى، وتطلب مرضاته، وترجو رحمته.

وهي غاية كل مسلمة تقية، تريد لنفسها ولبيتها السعادة والاستقرار والطمأنينة.

وهي غاية كل مسلمة مستقيمة على دين الله تعالى، تعرف للزوج حقه وقدره الذي عظَّمه الإسلام، لذا فهي دائمة البحث عن كل ما يرضيه في غير معصية.

وإسعاد المرأة زوجها يتم بوسائل كثيرة نذكر هنا أهمها:

١ ـ الطاعة في المعروف:

فالزوج يبغض المرأة التي لا تطيعه ـ في غير معصية ـ أو لا تأبه بأوامره

وتعرض عنه، فالطاعة بالمعروف واجب شرعي على الزوجة، جعل الله ثوابه الجنة كما قال ﷺ: «**إذا صلت المرأة خمسها، وحصنت فرجها، وأطاعت بعلها، دخلت من أي أبواب الجنة شاءت**»(١).

(إن طاعتك لزوجك تحقق لك ثواب الله وجزاءه، وتوجد بينكما المحبة، وترسخ الودَّ، وتهيئ لك الجو لتتحقق مطالبك التي تتوقف على رضى الزوج، وتساعدك على أن يطيعك أولادك، ذلك لأن المرأة الشريرة التي تعصي زوجها في كل ما يأمرها به، ويرى ذلك أولادها منها، ينشؤون على معصية الأوامر، فلا يستجيبون لأمر في البيت، أمًّا كان أو أبًا.

إن المرأة المسلمة عندما تطيع زوجها تكون في طاعة لله، وهي بذلك مأجورة، ولاسيما عندما تكون الطاعة فيما لا توافق عليه، بل إن الطاعة لتتجلى في طاعته فيما تكره أكثر مما تتجلى في طاعته فيما تحب، إن طاعته في قبول الجواهر النفيسة ليست كطاعته في تنفيذ أمر لا تريده، وكمال الطاعة يتحقق في أن تؤدي الأمر بكل سرور ورضى، أما إذا أدته متبرمة متأففة، يعلو وجهها العبوس وأمارات الكراهية والضيق، فإن هذه الطاعة كعدمها.

إن إظهارها الرضى والسرور، وإشعار نفسها وزوجها بالقناعة، مما يخفف عليها تنفيذ ما تكره، فاحذري أيتها العروس الفاضلة من أن تكوني من أولئك النساء المولعات بمخالفات أزواجهن، فلا تؤمر الواحدة منهن بشيء إلا سارعت إلى مخالفته حتى ولو كان في مصلحتها، فهؤلاء يقعن في سخط الله، ويعرضن حياتهن للدمار، وتدعو عليهن الحور العين، عن معاذ رضي الله عنه

---

(١) رواه ابن حبان وهو صحيح (صحيح الجامع ٦٧٣).

عن النبي ﷺ قال :

«لا تؤذي امرأة زوجها إلا قالت زوجته من الحور العين : لا تؤذيه قاتلك الله فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا»[١] .

إن الإصرار على مخالفته يوغر صدره، ويجرح كرامته، ويسيء إلى قوامته، فيبادلك ذلك ممانعة لما تحبين ومخالفة لما ترغبين .

وعن ابن أبي أوفى قال : لما قدم معاذ بن جبل من الشام قال : يا رسول الله قدمت الشام فوجدتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم فأردت أن أفعل ذلك بك . قال : **«فلا تفعل، فإني إن أمرت شيئًا أن يسجد لشيء لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، والذي نفسي بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها»**[٢] .

وقد فصلت القول بعض التفصيل في الطاعة ؛ لأن أفكارًا وافدة دخيلة علينا تسود في أوساط معينة من نحو قولهن : «إن في الطاعة غضاضة على المرأة وانتقاصًا لها»، ومن نحو قولهن للعرائس : «لا تعوِّديه على إصدار الأوامر، وذلك بألا تطيعي أمره»، إن ذلك كله هراء، وباطل، فاربئي بنفسك يا أيتها الأخت الكريمة عن هذا المستوى المنحدر، واعلمي أن حق الله أحق أن يؤدى، وأن طاعة الزوجة لزوجها فيما لا معصية فيه سبب في استقرار الحياة الزوجية وسيادة التفاهم البناء .

---

(١) رواه ابن ماجه، والترمذي، وانظر : «الترغيب والترهيب» (٣/ ١٣)، و«صحيح الجامع الصغير» (٧٠٦٩) .

(٢) رواه ابن ماجه، وابن حبان في صحيحه، واللفظ له، والحاكم، والترمذي «الترغيب والترهيب» (٣/ ١٢) .

وهذه كلمة إلى الفتيات المتديِّنات:

أيتها الأخت الكريمة ارفقي بزوجك المتدين، فلا تجمعي عليه النكد والشقاء في البيت مع ما يلقى من أعداء في خارج البيت، واعلمي أن طاعتك لزوجك تعدل الجهاد في سبيل الله، فهناك حديث غير قوي ولكن معناه صحيح فيه أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله أنا وافدة النساء إليك. هذا الجهاد كتبه الله على الرجال، فإن يصيبوا أجروا، وإن قتلوا كانوا أحياءً عند ربهم يرزقون، ونحن معاشر النساء نقوم عليهم، فما لنا من ذلك؟ فقال رسول الله ﷺ:

«أبلغي من لقيت من النساء أن طاعة الزوج واعترافًا بحقه يعدل ذلك، وقليل منكن من يفعله»[1].

إن هذه الصفات المهمة لها دورها الفعال في تحقيق المودة بين الزوجين وإقامة دعائم السعادة والسكن)[2].

٢ ـ تقوى الله تعالى:

فالتزامك بشرع الله وطلب مرضاة الله تعالى، يخلف عليك خيرًا كثيرًا من الله تعالى في نفسك وفي بيتك وفي أولادك ومع زوجك، قال تعالى: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ**﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

فأعينيه على طاعة الله تعالى، وذكريه بالحسنى إن غفل أو نسي، وكوني معه حيث يرضى الله تعالى.

---

(١) الترغيب والترهيب (٣/ ١٠).

(٢) نظرات في الأسرة المسلمة، دكتور/ محمد لطفي الصباغ، ص(٩٦، ٩٧).

٣ ـ الاهتمام بالبيت :

فالزوج يحب أن يرى بيته نظيفًا مرتبًا ، رائحته طيبة ، وهو عند عودته من عناء العمل ومشقته ، يريد أن يعود إلى روضة غناء يستريح فيها قلبه وعقله ، وتطمئن فيها نفسه ، فاحذري أيتها الزوجة كل ما يثيره أو يضايقه .

أما الزوجة المهملة التي لا تراعي ذلك ـ لاسيما إن كان هذا الأمر له بالغ الخطورة عند الزوج ـ فهي بذلك تخسر ثقة زوجها فيها ، في القدرة على إدارة البيت وإعداده ، بما يسعد النفس ويريحها ، وذلك من أولى خطوات الشقاق داخل البيت .

٤ ـ الاهتمام بالزوج :

فالزوج يحب الزوجة التي تهتم به كثيرًا ، وتشغل نفسها كثيرًا بما يحب من الطعام والشراب والملبس ، فاحرصي أيتها الزوجة على ما يرضيه في مطعمه ومشربه ، وعلى ما يبرز نظافته وأناقته في ملبسه ، وعليك أن تتفقديها فتصلحي ما يحتاج إلى إصلاح .

وأعدي له طعامه في الوقت الذي يرغبه ، فلا يعود من عمله خارج البيت متعبًا جائعًا ، والطعام لم يُعد بعد ، أو لا يزال يُطهى ، فإن ذلك يغضبه غضبًا شديدًا .

إن هذه الأمور سهلة ويسيرة ، ولكن التهاون بها قد يجعل منها مشكلة ، فانتبهي .

كذلك قابليه دائمًا ـ لاسيما عند عودته من العمل ـ بالابتسامة الحلوة ، والكلمة الطيبة ، والزينة الجميلة ، والرائحة الزكية ، فكل ذلك سبيل للسعادة

الزوجية بينكما، ولا تبخلي عليه دائمًا بالكلمة الطيبة، فإن لها سحرا وأي سحر، فشجعيه بإبراز محاسنه وتكرارها على لسانك، فليس أحلى على قلب الرجل من أن يسمع مثل هذا الكلام الدافئ من زوجته المُحبة الودودة.

٥ ـ طلب مرضاته:

فآثري رضاه على رضاك، فهذا هو عربون المحبة والوفاء، والنجاة من الهم والنكد والشقاق.

إن الزوج عندما يرى من زوجته الحرص على طلب مرضاته، فإن ذلك يسعده، ويجعله يأخذ في البحث عما يدخل على قلبها السرور والفرح جزاءً وفاقًا.

أطيعيه فيما لا معصية فيه لله، فإن ذلك أعلى مراتب طلب مرضاة الزوج؛ كيف وقد جعل الله ثواب ذلك الجنة لقوله ﷺ: «**إذا صلت المرأة خمسها، وحصنت فرجها، وأطاعت بعلها، دخلت من أي أبواب الجنة شاءت**»[1].

٦ ـ الاهتمام بالتزين أمامه:

فإن ذلك يعني عظيم الاهتمام به، وهو من أهم عوامل ترسيخ المحبة والاستحواذ على قلب الرجل، وهو بمثابة إعادة بناء صرح الزوجية يوميًا.

إن الزوجة المسلمة مدعوة إلى الاهتمام بأناقتها ورقتها حتى وإن مرَّ على زواجها عشرات السنين، فإن الرجل ـ وإن كبر سنه ـ لا يزال يأنس بالكلمة الحلوة، ويستمتع برؤية الجمال الذي يقيه على الأقل النظر إلى غيرها من النساء.

---

(١) رواه ابن حبان وهو صحيح (صحيح الجامع برقم ٦٧٣).

٧ ـ الوقوف بجانبه في السراء والضراء:

قرري منذ الخطوة الأولى في طريق الزواج الموفق السعيد أن تكوني عونًا له على الأحداث والأزمات، وأن تمديه بالرأي والصبر وحسن التدبير، شاركيه مآسي الحياة وما أكثرها، فذلك كله مما يزيدك مكانةً في قلبه، إن الرجل يبقى محتاجًا إلى امرأة تشاركه آلامه، فذلك يدخل عليه من السكينة والأمن ورباطة الجأش والرضى والسرور ما يخفف عنه هذه الآلام، ويعينه على التغلب على الصعوبات.

إنك عندما تظهرين أمامه مادية، قاسية القلب، لا تهمُّك إلا مصالحك، يتضاعف عليه المصاب ويعظم عليه الألم، إنك تحفرين لسعادتك القبر الذي تدفن فيه.

والمرأة التي تفقد السعادة مع زوجها يصعب أن تجد سعادة مع أحد من الخلق.

إن الحياة في حقيقتها عواطف ومواقف، ومعانٍ أكثر مما هي أمور مادية)[1].

٨ ـ القناعة والتعفف:

(ينبغي أن تُشعري زوجك أنه لا فرق بينك وبينه من الناحية المادية، وإياك أن تظهري الطمع في ماله، واحرصي على أن تتعففي إن أعطاك، فإذا قبلت هديته فاشكريه، إن ذلك مما يرفع قدرك في نفسه، ولا تكثري عليه بالمطالب التي تفوق إمكاناته، فذلك يزعجه ويؤلمه؛ لأنه لا يستطيع أن يحقق هذه المطالب ويعز عليه أن يظهر أمام زوجته بمظهر العاجز الذي لا يملك تنفيذ ما

---

(١) نظرات في الأسرة المسلمة (٩٧، ٩٨).

تطلب، واعلمي أن ذلك إن تكرر منك يؤذك أعظم الإيذاء.

ليست الحياة الزوجية ميدان صراع ولا مجال نهب واكتساب . . . بل هي تعاون على إنشاء بيت سعيد آمن مطمئن.

حاولي - إذا خصَّك بشيء - أن تذكريه بأن يخصَّ نفسه أيضًا بما تعلمين حاجته إليه، ولا تكن الأنانية مستولية عليك إذا أحسست أنه يحرم نفسه من أجلك)[١] .

* * *

(١) نظرات في الأسرة المسلمة، ص (٩٧، ٩٨).



(٤)

موقف صفية بنت عبد المطلب عند وفاة أخيها

موقف صفية بنت عبد المطلب عند وفاة أخيها

في معركة أُحُد لما وضعت الحرب أوزارها، وقفت صفية على أخيها حمزة، فوجدته قد بُقر[١] بطنه، وأخرجت كبده، وجُدع أنفه[٢]، وصُلِمَت أذناه[٣]، وشُوِّه وجهه، فاستغفرت له، وجعلت تقول:

«إن ذلك في الله . . .

لقد رضيت بقضاء الله . .

والله لأصبرن، ولأحتسبن إن شاء الله».

* * *

(١) بُقر بطنه: شُقَّ بطنه.
(٢) جُدع: قُطع.
(٣) صُلمت: قُطعت.

الدروس والعبر

أولاً: من هي صفية بنت عبد المطلب[(١)] ؟

هي صفية بنت عبد المطلب بن هاشم القرشية الهاشمية، عمة رسول الله ﷺ، ووالدة الزبير بن العوام، أحد العشرة، وهي شقيقة حمزة.

أمها هالة بنت وهب خالة رسول الله ﷺ.

وكان أول من تزوجها الحارث بن حرب بن أمية ثم هلك، فخلف عليها العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى، فولدت له الزبير والسائب، وأسلمت وروت وعاشت إلى خلافة عمر.

ثانيًا: دورها في الجهاد:

لقد أبلت صفية رضي الله عنها بلاءً حسنًا في الإسلام، ومن ذلك خوضها غمار الجهاد في سبيل الله تعالى، لتضرب المثل والقدوة لكل امرأة صالحة، تريد أن تسلك طريق الآخرة، بإقبالها على الله عز وجل، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر.

أ ـ دورها في يوم أحد:

خرجت رضي الله عنها مع جند المسلمين في ثُلة من النساء جهادًا في

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (٤/ ٣٤٨، ٣٤٩)، صور من حياة الصحابيات، د/ عبد الرحمن رأفت الباشا (ص٢١ ـ ٢٣).

سبيل الله، فجعلت تنقل الماء، وتروي العِطاش، وتبري السهام، وتُصلح القِسِيّ[١] .

وكانت تود أيضًا أن ترقب المعركة حيث كان فيها ابن أخيها محمد رسول الله ﷺ وأخوها حمزة بن عبد المطلب أسد الله، وابنها الزبير بن العوام حواري نبي الله ﷺ .

وفوق ذلك كله كانت تريد أن تطمئن على مصير الإسلام الذي اعتنقته، وهاجرت من أجله، وجاهدت لإعلاء شأنه .

فلما رأت المسلمين يتفرقون عن رسول الله ﷺ وينكشفون عنه إلا قليلاً منهم، ووجدت المشركين يوشكون أن يصلوا إلى رسول الله ﷺ ويقتلوه، هبّت بكل قوة وعزيمة وانتزعت من يد أحد المنهزمين رمحه، ومضت تشق به الصفوف، وتزأر في المسلمين قائلة : «ويحكم، انهزمتم عن رسول الله؟!!» .

فلما رآها النبي ﷺ وهي مقبلة، خشي عليها أن ترى أخاها حمزة وقد مَثَّل به المشركون أبشع تمثيل، فأشار إلى ابنها الزبير قائلاً : «**المرأة يا زبير، المرأة يا زبير**»[٢] .

فأقبل عليها الزبير وقال : «يا أمَّه إليك، إليك يا أمَّه»[٣] .

فقالت وهي لا تبالي بكلامه : تنحَّ لا أمَّ لك .

فقال لها الزبير : إن رسول الله يأمرك أن ترجعي .

---

(١) القسيّ : جمع قوس وهو آلة الحرب يُرمى بها السهام .
(٢) أيَ أَبعدها .
(٣) أي ابتعدي يا أمّاه .

فقالت: ولم؟ إنه قد بلغني أنه قد مُثِّل بأخي، وذلك في الله، فلما اطمأن الرسول ﷺ عليها، وعرف أنها قد علمت بموت أخيها قال للزبير: «**خلِّ سبيلها يا زبير**»، فخلى سبيلها.

فسبحان الله! كيف لم تجزع هذه المرأة - وهي امرأة أولاً وأخيراً - وقد رأت أصحاب رسول الله ﷺ ينكشفون عنه، وأن أيدي المشركين تكاد تصل إليه ﷺ بالسوء؟!

لماذا لم تخف، وقد تفرق الرجال عن رسول الله ﷺ وهي امرأة، وماذا تفعل امرأة؟!

ولماذا أخذت رمحًا من أحد المنهزمين وسارعت إلى ميدان المعركة محاربة لا تخشى موتًا ولا تبكي على دنيا، ولا تجزع لفراق ولد أو غيره، عندما علمت بموت أخيها؟!

إنه الإيمان الحقيقي، الذي لا يهدأ إلا وأن يعلن عن نفسه خالصًا لله تعالى، إنه إيمان المرأة الصالحة عندما تعزف نفسها عن الدنيا، يهفو قلبها لجنة ربها.

إنه الفهم الحقيقي لحقيقة هذا الدين، وهو أنه لا صوت يعلو على صوت الدين، منهجًا وشرعةً وحياة تنتظم بأحكام هذا الدين.

فأين نساء المسلمين من مثل هذه القافلة الواعية المؤمنة؟!

ب - صفية في الخندق:

وكانت صفية تعيش دائمًا مع ابنها الزبير حواري رسول الله ﷺ في داره، وانتهى إلى المسلمين خبر الاتفاق بين قريش وغطفان ويهود بني قريظة على

حرب رسول الله ﷺ وخروج الأحزاب من مكة بقيادة أبي سفيان، فضرب رسول الله ﷺ الخندق[1] على المدينة، وأمر بنسائه ونساء المسلمين والأطفال، فجُعلوا في الحصون والقلاع، وكان هذا رأي رسول الله ﷺ، ألا يُشغل أحد بنسائه مادمن في مكان آمن بعيد عن الأعداء، ونزلت صفية في حصن حسان ابن ثابت شاعر الرسول ﷺ، وكان من أحسن آطام المدينة وأبنيتها. ونترك السيدة صفية تحكي ما حدث منها مع أحد اليهود أثناء إقامتهم في الحصن.

قال ابن إسحاق: كانت صفية في فارع حصن حسان بن ثابت قالت: وكان حسان بن ثابت معنا فيه مع النساء والصبيان، فمر بنا رجل من يهود فجعل يطيف بالحصن، وقد حاربت بنو قريظة وقطعت[2] ما بينها وبين رسول الله ﷺ، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا، ورسول الله ﷺ والمسلمون في نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إن أتانا آت، فقلت: يا حسان إن هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن، وإني والله ما آمنه أن يدل على عورتنا مَن وراءنا مِن يهود، وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه، فانزل إليه فاقتله، قال: يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب، والله قد عرفت ما أنا بصاحب هذا[3]، قالت: فلما قال لي ذلك ولم أر عنده شيئًا، احتجزت[4] ثم

(١) الذي أشار على النبي ﷺ بالخندق هو سلمان الفارسي.
(٢) وكان سعد بن أسد القرظي قد وادع رسول الله ﷺ على قومه وعاقده على عدم حربه حتى جاء نفر من يهود بني النضير وحزبوا الأحزاب ضد رسول الله ﷺ، فنقض القرظي عهده وبرئ مما كان بينه وبين الرسول ﷺ.
(٣) قد يكون الذي منع حسان من مشاركة الرسول ﷺ في الحرب هو المرض أو ما شابهه، ونحن نستبعد أن يكون حسان جبانًا.
(٤) احتجز: شد وسطه.

أخذت عموداً[١] ، ثم نزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتى قتلته[٢] ، فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن ، فقلت : يا حسان ، انزل إليه فاسلبه ، فإنه لا يمنعني من سلبه إلا أنه رجل ، قال : ما لي بسلبه من حاجة يا ابنة عبد المطلب[٣] ، وقد ذكر ابن سعد أن هذه الحادثة وقعت في أحد ، والصحيح أنها في الخندق ؛ لأن غزوة أحد كانت في سفح الجبل بعيداً عن الحصون والآطام .

وقد زاد الحاكم في روايتها ، قالت : أنا أول امرأة قتلت رجلاً ، كنت في فارع حسان بن ثابت ، وكان حسان معنا في النساء والصبيان حين خندق النبي ﷺ ، وذكرت بقية القصة[٤] .

ثالثًا: دورها في تربية ولدها الزبير:

لم تتخل صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها عن تربية ابنها الزبير بن العوام بعد وفاة زوجها ، كما تفعل بعض النساء اليوم بحجة أن العبء أصبح عليها ثقيلاً ، ولكن قامت بتربيته التربية الجادة حتى يصبح مجاهداً وداعيًا للإسلام ، وعزفت عن الزواج من أجله .

نشَّأته على الخشونة والبأس والفروسية والحرب ، فكان لعبه في بري السهام وإصلاح القسِي ، ودأبت على أن تقحمه وتشاركه في كل أمر يمكن أن يخاف منه ، حتى ينشأ شجاعًا قويًا غير جبان .

وكانت إذا رأته تردد مرة أو جَبُنَ ضربته ضربًا شديدًا ، حتى إنها عُوتبت

---

(١) المقرعة من الحديد .

(٢) في رواية ابن حجر : حتى فتحت الباب قليلاً ثم حملت عليه فضربته بالعمود فقتلته .

(٣) ابن هشام (٣/ ٢٤٧) .

(٤) المستدرك (٤/ ٥١) .

في ذلك من قِبَل أحد أعمامها حيث قال لها: ما هكذا يُضرب الولد، إنك تضربينه ضربَ مُبغضة له لا ضرب أم، فأنشدت قائلة:

من قال قد أبغضته فقد كَذِبْ وإنما أضربه لكي يَلِبْ
ويهزم الجيش ويأتي بالسَّلَبْ

فقال عمها: يا بني هاشم كفوا عني شاعرتكم هذه.

من هذا الموقف الشامخ لصفية، ودورها البارز في تربيتها لابنها، لابد لنساء المسلمين أن يأخذن القدوة والمثل، وأن يسلكن الطريق الصحيح في تربية الأولاد.

وهل كل مسلمة مات زوجها وعندها أولاد، يجب عليها ألا تتزوج من بعده لتتفرغ لتربية أولادها؟ إن ذلك ليس بشرط، فكل امرأة يختلف حالها عن حال غيرها، وظروفها عن ظروف غيرها، فما ينفع لواحدة ربما لا ينفع الأخرى.

فمن النساء ربما لو لم تتزوج بعد موت زِوجها لسارت في طريق الرذيلة، ومنهن من يغنيها أولادها والانشغال بتربيتهم ومسئولياتهم عن مجرد التفكير في الزواج، بل إن الإسلام شكر لها ذلك، وأجزل لها المثوبة، والأجر حينئذ ترغيبًا وثناءً.

عن سهل بن سعد مرفوعًا: «**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا**» وأشار بالسبابة والوسطى، وفرَّج بينهما شيئًا[1].

(١) رواه مسلم (٢٩٨٣).

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت عليَّ امرأة ومعها ابنتان لها، تسأل، فلم تجد عندي شيئًا، غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها، فقسمتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها، ثم قامت، فخرجت، فدخل النبي ﷺ فأخبرته، فقال النبي ﷺ: «**من ابتلي من هذه البنات بشيء، فأحسن إليهن، كن له سِتْرًا من النار**»(١) .

وهذه أم هانئ فاختة بنت أبي طالب رضي الله عنها أخت أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وبنت عم رسول الله ﷺ وراوية حديث الإسراء، فرَّق الإسلام بينها وبين زوجها هبيرة، وكانت قد انكشفت منه عن أربعة بنين، فخطبها رسول الله ﷺ، فقالت أم هانئ: يا رسول الله؛ لأنت أحب إليَّ من سمعي ومن بصري، وحق الزوج عظيم، فأخشى إن أقبلت على زوجي - تعني رسول الله ﷺ - أن أُضَيِّع بعض شأني وولدي، وإن أقبلت على ولدي أن أضيع حق زوجي، وهنا امتدحها النبي ﷺ، وشكر لها ذلك، فقال: «**إن خير نساء ركبن الإبل نساءُ قريش، أحناه على ولد في صغره وأرعاه على بَعْل** - أي زوج - **في ذات يده**»(٢) .

رابعًا: الرضا بقضاء الله ركن من أركان الإيمان:

وهذا ما حققته صفية بنت عبد المطلب بقولها: «لقد رضيت بقضاء الله».

فالرضا: (باب اليقين الأكبر، وبستان العبودية الأخضر، وهو مستنزل الرحمة، ومستدر الزيادة، ومستوجب الرضا منه ﴿**رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**﴾ [المائدة: ١١٩].

---

(١) رواه البخاري (٢٦١٤)، ومسلم (٢٦٢٩)، والترمذي (١٩١٦).

(٢) رواه البخاري (٩/ ١٠٧)، ومسلم (٢٥٢٧)، وغيرهما.

والرضا مطردة للهموم والغموم، مذهبة للأحزان، وهو علاج التردد والحيرة والاضطراب؛ لأنه التسليم بالحكمة، والتصديق بالشرع، والركون إلى اللطف والاطمئنان لحسن الاختيار، من دخل بيت الرضا فهو آمن، ومن استقبل كعبته فهو مخبت، ومن صلى في محراب الرضا فهو حليم أوّاه منيب)[1].

إن الرضا بقضاء الله وقدره، خيره وشره، حُلوه ومره، من لوازم الإيمان بالله تعالى والرضا به ربًا، أما الرضا عند موافقة القضاء لرغباتك، والتسخط إذا خالف مرادك وهواك، فليس بصحيح، ولا بطريق المخبتين لله تعالى الراضين عنه.

(لقد كان الأعراب يُسْلمون، فإذا وجدوا في الإسلام رَغَدًا بنزول غيث، ودَرِّ لبن، ونبْت عشب، قالوا: هذا دين خير، فانقادوا وحافظوا على دينهم.

فإذا وجدوا الأخرى؛ جفاف وقحط وجدب واضمحلال في الأموال وفناء للمرعى. نكصوا على أعقابهم وتركوا رسالتهم ودينهم.

هذا إذن إسلام الهوى، وإسلام الرغبة للنفس.

إن هناك أناسًا يرضون عن الله عز وجل، لأنهم يريدون ما عند الله عز وجل؛ يريدون وجهه، يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا، يسعون للآخرة.

رضينا بك اللهم ربًا وخالقًا وبالمصطفى المختار نورًا وهاديًا
فإما حياةٌ نظَّم الوحي سيرها وإلا فموتٌ لا يسُرُّ الأعاديا

---

(١) حدائق ذات بهجة، للشيخ عائض القرني (ص٧٩).

إن من يرشحه اللَّه للعبودية ويصطفيه للخدمة ويجتبيه لسدانة الملَّة، ثم لا يرضى بهذا الترشيح والاصطفاء والاجتباء، لهو حقيق بالسقوط الأبدي والهلاك السرمدي ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥]، ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

إن الرضا بوابة الديانة الكبرى، منها يلج المقربون إلى ربهم، الفرحون بهداه، المنقادون لأمره، المستسلمون لحكمه)[١].

خامسًا: الصبر والاحتساب ثمرة الإيمان الحقيقي بالقضاء والقدر:

إن عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر إذا رسخت في نفس المسلمة، وقرت في ضميرها، صارت البلية عندها عطية، والمحنة منحة، والألم سعادة ورضى بتكفير اللَّه تعالى لها من ذنوبها.

فهنيئًا (لأهل المصائب صبرهم ورضاهم عن الآخذ، المعطي، القابض، الباسط ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

ولن تهدأ أعصابك، وتسكن بلابل نفسك، وتذهب وساوس صدرك حتى تؤمن بالقضاء والقدر.

جفّ القلم بما أنت لاق، فلا تذهب نفسك حسرات، لا تظن أنه كان بوسعك إيقاف الجدار أن ينهار، وحبس الماء أن ينسكب، ومنع الريح أن تهب، وحفظ الزجاج أن ينكسر، هذا ليس بصحيح، على رغمي ورغمك

---

(١) لا تحزن، للشيخ عائض القرني (ص٣٥٣، ٣٥٤).

سوف يقع المقدور، وينفذ القضاء، ويحل المكتوب ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

استسلم للقدر قبل أن تطوَّق بجيش السخط والتذمر والعويل، اعترف بالقضاء قبل أن يدهمك سبيل الندم.

إذًا فليهدأ بالك إذا فعلت الأسباب، وبذلت الحيل، ثم وقع ما كنت تحذر، فهذا هو الذي كان ينبغي أن يقع، ولا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل)[1].

وإن للإيمان بالقدر - إن استقرت حقيقته في قلب المسلمة - ثمرات عظيمة منها:

١ - الاعتماد على الله تعالى، وتمام التوكل عليه، عند فعل الأسباب، بحيث لا يتعلق قلب المسلمة بالسبب نفسه، وإنما بالمسبب جل وعلا وحده؛ لأنها تعلم تمامًا أن كل شيء بقضاء الله وقدره، وهو مكتوب لا مفر منه.

٢ - الطمأنينة وراحة النفس وعدم القلق؛ لأنها تعلم يقينًا أن حكم الله تعالى ماض فيها، وأن قضاءه سبحانه وتعالى عدلٌ فيها، وهو كائن لا محالة، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

[الحديد: ٢٢، ٢٣]

---

(١) حدائق ذات بهجة (ص٦١، ٦٢).

٣ـ عدم اليأس على ما فات، فقد تظن المسلمة أنها لو فعلت كذا كان كذا، وتتحسر أنها لم تفعله، وفي الحقيقة أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها، وما أصابها لم يكن ليخطئها، فما كُتب لها هو الذي ستحصل عليه، والذي لم يُكتب فلن تتحصل عليه، ولن تناله بحال من الأحوال، فحينئذ لا تيأس على ما فات ولا تندم.

٤ـ الصبر والاحتساب:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١]، فالمسلمة إذا أصيبت بمصيبة وعلمت أنها بقضاء الله وقدره، صبرت واحتسبت، وجزاها الله بهداية قلبها الذي هو أصل كل سعادة.

قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويُسلم.

وقال سعيد بن جبير: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ يعني يسترجع، يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

وعن أم سلمة أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾** [البقرة: ١٥٦] **اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها، إلا أخلف الله له خيرًا منها**»(١).

* * *

(١) رواه مسلم وابن ماجه.



(٥)

موقف أسماء بنت أبي بكر مع ابنها قبل مصرعه

موقف أسماء بنت أبي بكر
مع ابنها قبل مصرعه

لم ينس التاريخ أن يسجل لنا حواراً رائعًا دار بين أسماء وابنها عبد الله، بين ابن بار تجاوز السبعين، وأم اقتربت من المائة، فقدت بصرها ولا عون لها في هذه الحياة إلا هذا الابن الذي تخلى عنه الجميع حتى أولاده، ولم يبق معه إلا النزر القليل من الصحاب. يقول أصحاب السير: ودخل عبد الله على أمه أسماء فقال: يا أمَّه، خذلني الناس، حتى ولدي وأهلي، ولم يبق إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع إلا صبر ساعة، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا، فما رأيك؟ فقالت:

والله يا بني أنت أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق فامض له فقد قتل عليه أصحابك، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك ومن قتل معك!! وإن قلت: إني على حق فلما وهن أصحابي ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين.

فدنا ابن الزبير فقبّل رأسها، وقال: هذا رأيي، ولكن أحببت أن أعلم رأيك، فزدتني بصيرةً، فانظري يا أماه إني مقتول من يومي هذا، فلا يشتد حزنك لأمر الله، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر، ولا عمل بفاحشة ولم يُجرْ في حكم، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد، اللهم إني لا أقول هذا تزكية لنفسي، ولكن تعزية لأمي، لتسلو عني.

فقالت أمُّه: إني لأرجو أن يكون عزائي فيك حسنًا، اخرج حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمرك، ودعت له قائلة: اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك التحنث والظمأ في الهواجر بالمدينة ومكة وبره بأبيه[١] وبي، اللهم قد أسلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت، فأثبني في عبد الله ثواب الشاكرين الصابرين، ثم شكا إليها خوفه من أن يُمَثَّل به بعد موته فقالت كلمتها المشهورة: إن الكبش إذا ذبح لم يأمن السلخ، أو لم يألم من السلخ.

ثم دنا عبد الله من أمه، فتناول يدها وقبَّلها وعانقها ـ وكان عليه درع ـ فلما عانقها وجدت[٢] مس الدرع فقالت: ما هذا صنيع من يريد ما تريد، قال: ما لبستها إلا لأشد منك، قالت: فإنها لا تشد مني، فنزعها ثم أدرج كمه وأدخل أسفل قميصه جُبَّة خزٍّ كانت عليه من أسفل المنطقة وخرج وأمه تقول: اصبر إن شاء الله تعالى، أبواك أبو بكر والزبير، وأمك صفية بنت عبد المطلب[٣].

* * *

(١) كان الزبير قد قتل مع عائشة في معركة الجمل سنة (٣٦ هـ) وله من العمر (٦٨) سنة.

(٢) هذا يعني أنها فقدت بصرها قبل ذلك، بخلاف من قال إنها عميت بعد مقتل عبد الله وهي رضي الله عنها تستغرب منه وقد استعد للموت أن يلبس الدرع ليتقي به الطعن.

(٣) انظر: «صور من حياة الصحابيات» ص(٥٤ ـ ٥٩)، و«صحابيات حول الرسول» ص(٢٢، ٢٣).

الدروس والعبر

أولاً: من هي أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها؟

والدة عبد الله بن الزبير بن العوام التيمية، وهي بنت أبي بكر الصديق.

وأمها قتلة أو قتيلة بنت عبد العزى، قرشية من بني عامر بن لؤي.

أسلمت قديمًا بمكة. قال ابن إسحاق: بعد سبعة عشر نفسًا، وتزوجها الزبير بن العوام وهاجرت وهي حامل منه بولده عبد الله، فوضعته بقباء.

وعاشت إلى أن ولي ابنها الخلافة، ثم إلى أن قتل وماتت بعده بقليل، وكانت تلقب ذات النطاقين، قال أبو عمر: سماها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنها هيأت له ـ لما أراد الهجرة ـ سفرة، فاحتاجت إلى ما تشدها به، فشقت خمارها نصفين، فشدت بنصفه السفرة، واتخذت النصف الآخر منطقًا، قال: كذا ذكر ابن إسحاق وغيره[1].

ثانيًا: المجاهدة الصابرة:

* كان لبيت أبي بكر الصديق رضي الله عنه دورًا بارزًا وفعالاً في هجرة النبي ﷺ، وكانت أسماء أحد هذه العناصر التي لم تألُ جهدًا في ذلك.

فقد لُقبت بذات النطاقين، وذلك؛ لأنها صنعت لرسول الله ﷺ ولأبيها

(١) الإصابة (٤/ ٢٢٩، ٢٣٠).

يوم الهجرة من مكة إلى المدينة زاداً وسقاءً[١] ، فلما لم تجد ما تربطهما به شقت نطاقها[٢] شقين، فربطت بأحدهما المِزْوَد[٣] ، وبالثاني السقاء.

فدعا لها النبي ﷺ أن يُبدلها الله منهما نطاقين في الجنة.

* وتظهر لنا صورة أخرى مشرقة من مواقف أسماء بنت أبي بكر بعد قتل ولدها.

يقول ابن عبد ربه الأندلسي: «وقتل ابن الزبير، وحزَّ الحجاج رأسه، وبعث به إلى عبد الملك بن مروان في الشام، ثم أقبل على أم عبد الله أسماء بنت أبي بكر ليعزيها، فأذنت له.

فقالت: يا حجاج قتلت عبد الله؟

قال: يا ابنة أبي بكر إني قاتل الملحدين.

قالت: بل قاتل المؤمنين الموحدين.

قال لها: كيف رأيت ما صنعتُ بابنك؟

قالت: رأيتك أفسدت عليه دنياه، وأفسد عليك آخرتك، ولا ضير أن أكرمه الله على يديك، فقد أُهدي رأس يحيى بن زكريا إلى بغي من بغايا بني إسرائيل»[٤] .

ولم يكتف الحجاج بالقتل بل صلبه بغير رأسه قرابة الشهر، حتى تقطعت

---

(١) السِّقاء: القربة وغيرها مما يوضع فيه الماء.

(٢) النطاق: ما تشُدُّ المرأة به وسطها.

(٣) المزود: كيس يوضع فيه الزاد للمسافر.

(٤) العقد الفريد (٤/ ٤١٨).

أوصاله، فدخلت أسماء على الحجاج وقالت:

أما آن لهذا الراكب أن ينزل؟

قال: المنافق؟

قالت: لا، والله ما كان منافقًا، وقد كان صوامًا قوامًا.

قال: اذهبي فإنك عجوز قد خرفت.

فقالت: لا والله ما خرفت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يخرج من ثقيف كذاب ومبير**»[1]، فأما الكذاب فقد رأيناه[2]، وأما المبير فأنت هو والآخر منهما شر من الأول، وغسلت أسماء ابنها وكفنته وصلت عليه.

هكذا خاطبت أسماء بنت أبي بكر قاتل فلذة كبدها بكل قوة وصرامة، لا خور ولا ضعف يظهر من خلال حديثها، فقد كانت على الحق، ولم تبغ غيره، لم تخف منه وتخشاه، فإن خوفها وخشيتها لله تعالى ملأ كل قلبها وكيانها، حتى ما ترك مكانًا للخوف والخشية من غير الله عز وجل.

وهكذا يعمل الإيمان في نفوس الناس، إذا استقر في القلوب استقرار الواثق بنصر الله تعالى وتأييده، استقرار من توكل على الله تعالى حق توكله، فهانت عليه الدنيا وزينتها.

ثالثًا: خدمتها لزوجها الفقير:

لقد ضربت أسماء رضي الله عنها مثلاً حيًا ونموذجًا رائعًا لتقتدي به النساء

(١) المبير: الذي يسرف في إهلاك الناس.

(٢) تقصد المختار بن عبيد بن مسعود الثقفي أحد الثائرين الخارجين على بني أمية، قيل: إنه ادعى النبوة، قتل سنة (٦٧ هـ). (صحابيات حول الرسول، ص٢٤).

من بعدها، ولتستحيي منه نساء اليوم.

وذلك بصبرها على شظف العيش مع زوجها، والحرص على مرضاته، وطاعته، والقيام بخدمته دون تأوه أو ضجر خير قيام.

لقد تزوجها الزبير بن العوام، وكان شابًا فقيرًا، فكانت له نعم الزوجة الصالحة، تخدمه وتسوس فرسه، وترعاه، وتطحن النوى لعلفه، حتى فتح الله عليه فغدا من أغنى أغنياء الصحابة.

تقول رضي الله عنها عن نفسها: تزوجني الزبير وما له شيء غير فرسه، فكنت أسوسه، وأعلفه، وأدق لناضحه النوى، وأستسقي، وأعجن، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير - التي أقطعه رسول الله ﷺ - على رأسي وهي على ثلثي فرسخ[1].

فجئت يومًا والنوى على رأسي، فلقيت رسول الله ﷺ ومعه نفر فدعاني، فقال: «إخْ إخْ»[2] ليحملني خلفه، فاستحييت وذكرت الزبير وغيرته.

قالت: فمضى، فلما أتيت أخبرت الزبير، فقال: والله لَحَمْلُك النوى كان أشد عليَّ من ركوبك معه.

لقد كان بيتهما بيتًا من بيوت الإيمان، ترعرعت فيه شجرة التقوى، وأصبحت وارفة الظلال.

وكان من ثمار ذلك: خضوع أسماء لزوجها بالرضى والطاعة والقناعة،

(١) الفرسخ: ١,٦٠٠ كم.
(٢) إخ إخ: صوت يُناخ به الجمل.

ما ضجرت يومًا وتركت البيت لتشكي لأهلها زوجها الفقير، فاقد الإمكانيات والترف، ولكنه الإيمان عندما يستقر في القلب استقرارًا صادقًا.

كم من النساء - للأسف - تمردن على الحياة المتواضعة مع أزواجهن حتى سلكن طريق الشيطان لتحقيق رغباتهن الدنيوية الزائفة، فهجرن الأزواج والأولاد حتى دمرت الأسرة، وصفحات الجرائد والمجلات يوميًا ملآنة بمآسٍ كثيرة تصور لنا هذا الواقع الأليم.

فمهلاً يا نساء المسلمين!

مهلاً أن تقعن في حبائل الدنيا وزينتها فتُهلككن[١] !

إن القناعة سبب السعادة، والغنى غنى النفس، والمرء إذا ترك نفسه على سجيتها لا يشبعها شيء بل تتمرد وتقول هل من مزيد؟!

إن المرأة التي لا تعرف طريق القناعة، إنما هي في الحقيقة لا تعرف طريق السعادة، بل هي بذلك تُقَوِّضُ أركان بيتها بإدخال الحزن والهم على زوجها وأولادها، ولن تأخذ من الدنيا إلا ما قُدر لها.

كم من الناس الذين يملكون من أسباب الدنيا أكثر مما نملك، ولكنهم لا يملكون ما ننعم به من نعمة القناعة والراحة والطمأنينة والسعادة داخل البيت، فلنرض بما قسم الله لنا نكن أسعد الناس.

قال بعض العارفين: يا ابن آدم إذا سلكت سبيل القناعة فأقل شيء يكفيك، وإلا فإن الدنيا وما فيها لا تكفيك.

---

(١) للمؤلف رسالة بعنوان: «مهلاً يا نساء المسلمين» ضمن سلسلة: «المرأة الصالحة» فلتراجع.

(إن القناعة تضفي على النفس الرضا والسعادة والطمأنينة، وتورث صاحبها عزة، فلا يقبل الهوان، ولا ركوب الحرام للاستكثار من المنافع المادية.

إن المال الكثير، والمتاع الفاخر، ليس نعمة دائمًا، بل قد يكون فتنة، فاقنعي بما آتاك الله، وارغبي في الآخرة)[1].

رابعًا: الجوادة السَّخِيَّة:

صبرت رضي الله عنها على حالتها المتواضعة مع زوجها الزبير من شظف العيش والحرمان الشديد، وبعد هذا الصبر كله، كانت العاقبة أن انصبت عليها وعلى زوجها النعم، ولكن لم تبطر بها، بل كانت سخية كريمة، وكانت من الجود بحيث يضرب بجودها المثل.

حدَّث ابنها عبد الله قال:

«ما رأيت امرأتين قطُّ أجودَ من خالتي عائشة وأمي أسماء، لكن جودهما مختلف: أما خالتي فكانت تجمع الشيء إلى الشيء، حتى إذا اجتمع عندها ما يكفي، قَسَمَتْهُ بين ذوي الحاجات، وأما أمي فكانت لا تُمسك شيئًا إلى الغد».

(وكانت أسماء كريمة سخية معطاءة، حتى في أوائل أيام زواجها، عندما كان الزبير فقيراً، وطالما تمنت أن تعطي، وتتصدق، لكن أين السبيل؟

ولم تجد بدًا من سؤال رسول الله ﷺ قائلة: يا نبي الله ليس في بيتي شيء

---

(١) نظرات في الأسرة المسلمة بتصرف، ص(١١٣)، للدكتور محمد لطفي الصباغ.

إلا ما أدخل علي الزبير، فهل عليّ جناح أن أرضخ[١] مما أدخل عليّ؟

فقال ﷺ: «**ارضخي ما استطعت ولا توكي[٢] فيوكى عليك**»[٣].

فبذرة الإنفاق والسخاء في طبعها، رعاها رسول الله ﷺ حتى نمت وترعرعت، وصارت درسًا تلقن أسماء بناتها وأهلها قائلة:

أنفقن وتصدقن ولا تنتظرن الفضل، فإنكن إن انتظرتن الفضل لم تفضلن شيئًا)[٤].

والمرأة في كثير من الأحيان، نظرًا لانشغالها بمهام البيت، ومسئوليات الزوج والأبناء، ربما تغفل عن البذل والإنفاق في سبيل الله تعالى، لذا وجب تذكيرها وحثها على ذلك، ولذلك قال ﷺ: «**تصدقن يا معشر النساء ولو من حُليكن**»[٥].

وروت أمُّ سنان الأسلمية رضي الله عنها في غزوة العسرة حين قالت: «لقد رأيت ثوبًا مبسوطًا بين يدي النبي ﷺ في بيت عائشة رضي الله عنها، فيه مُسك ومعاضد وخلاخيل وأقرطة، وخواتيم، وقد مُلِئَ مما بعث من النساء يُعن به المسلمين في جهازهم».

فهذا يا نساء المسلمين كان حال نساء الصحابة في ذلك الزمن، فأين الهمم العالية، والقلوب الحية، والمشاعر الحساسة للمسلمين والمسلمين الذين لا

---

(١) الرضخ: العطاء القليل.

(٢) توكي: تمسكي.

(٣) متفق عليه.

(٤) صحابيات حول الرسول، د/ عبد الصبور شاهين، والأستاذة/ إصلاح الرفاعي، ص(٢٧).

(٥) رواه البخاري في الزكاة (١٤٦٦).

يجدون إلا كسرة خبز يدفعونها بجرعة ماء، وقطعة قماش تواري شيئًا من جسدهم، يتقلبون بين برد قارص أو حر شديد، فضلاً عن المسلمين والمسلمات المضطهدين في أنحاء كثيرة من العالم يريدون من كل مسلم ومسلمة أن يساعدوهم بالمال والطعام والكساء.

يا نساء المسلمين!

إنكن تنفقن كثيراً على الزينة والملابس والحلي ومتاع البيت بلا حاجة، ولو أنكن أنفقتن نصف ذلك على أخواتكن المحتاجات، لما بقي هذا العدد الكبير من الفقراء والأرامل والأيتام المعدودين في بلدتكم، أو في غيرها في بلاد المسلمين.

يا نساء المسلمين!

إنكن في مجالسكن تكثرن الغيبة والنميمة واللغو والكلام فيما لا يعني، والسباب، والدعاء على الأبناء وغير ذلك من آفات اللسان، وكل ذلك يُعدُّ من الخطايا، والخطايا تطفئها الصدقة، فَهُبوا إليها ابتغاء وجه الله والدار الآخرة، كما قال ﷺ: «**الصبر جُنَّة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يُطفئ الماء النار**»[١].

خامسًا: الذكية العاقلة:

كانت أسماء رضي الله عنها من النساء العاقلات، اللاتي يحسن التصرف في المواقف الحرجة، هذا وإن دل فإنما يدل على رجاحة عقلها.

---

(١) حديث صحيح (صحيح الترغيب والترهيب للألباني برقم ٨٦٢).

من ذلك أنه لما خرج الصديق مهاجراً بصحبة رسول الله ﷺ حمل معه ماله كله، ومقداره ستة آلاف درهم، ولم يترك لعياله شيئًا.

فلما علم والده أبو قحافة برحيلة ـ وكان ما يزال مشركًا ـ جاء إلى بيته وقال لأسماء:

والله إني لأراه قد فجعكم بماله بعد أن فجعكم بنفسه.

فقالت له: كلا يا أبت... إنه قد ترك لنا مالاً كثيراً. ثم أخذت حصى ووضعته في الكوة[1] التي كانوا يضعون فيها المال، وألقت عليه ثوبًا، ثم أخذت بيد جدها ـ وكان مكفوف البصر ـ وقالت:

يا أبت، انظر كم ترك لنا من المال.

فوضع يده عليه وقال:

لا بأس.. إذا كان ترك لكم هذا كله فقد أحسن.

وقد أرادت بذلك أن تُسكِّن نفس الشيخ وألا تجعله يبذل لها شيئًا من ماله، ذلك لأنها كانت تكره أن تجعل لمشرك عليها معروفًا حتى لو كان جدها[2].

سادسًا: الحوار الخالد ـ عبر وعظات:

هذا الحوار الخالد الذي دار بين أسماء بنت أبي بكر ـ وكانت وقتها قد كُف بصرها وهي امرأة عجوز فانية ـ وبين ابنها عبد الله بن الزبير رضي الله عنهم،

(١) الكوة: تجويف في الحائط، أو نافذة صغيرة.

(٢) انظر: كنز العمال لعلاء الدين البرهان فوري (١٦/ ٦٨١)، والسيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٣٤٠).

لجدير بأن نقف أمامه نستلهم منه العبر والعظات، ونسترشد به في تربيتنا لأنفسنا ولأولادنا.

وهاهنا نأخذ بعض مقاطع هذا الحوار.

فقُبيل مصرعه بساعات دخل على أمه أسماء بعد أن ألقى عليها السلام، قالت له: «ما الذي أقدمك في هذه الساعة، والصخور التي تقذفها منجنيقات الحجاج على جنودك في الحرم تهزُّ دور مكة هزًا؟!».

امرأة عجوز فانية قد كف بصرها، لماذا لا تحافظ على ابنها من أن تناوله رماح القوم فيموت أو يُصاب على الأقل بأذى في جسده؟ في الوقت الذي نرى فيه أمهات اليوم يخفن على أولادهن إذا أرادوا أن يحافظوا على صلاة الفجر في المسجد . . . مخافة عليه من الظلام أو شدة البرد!

وأخريات يخفن على أولادهن وبناتهن أن يسيروا في طريق الالتزام بالدين، بل وربما وقف بعض أولياء الأمور حجر عثرة في سبيل ارتداء الفتاة للحجاب الشرعي.

ولكن أسماء رضي الله عنها تضرب لنا جميعًا المثل القدوة في قوة الإيمان والفهم الصحيح لطبيعة هذا الدين.

فتتعجب من مجيئه والآلات الحربية التي تقذف الصخور من جيش الحجاج على جنود الزبير في الحرم، من لها، ومن يدافع عن بيضة هذا الدين؟!

لم تحتضنه وتأخذه بجوارها خوفًا من الأعداء، ولكنها تلومه على مجيئه، ولكن يبين لها سبب مجيئه، فقد خذله الناس ورجعوا عنه خوفًا من الحجاج أو رغبة بما عنده، حتى أقرب الناس إليه انفضوا من حوله.

ولكنها رضي الله عنها لم تأبه بهذه الإجابة ولم تقنع بها، بل علا صوتها وقالت: «الشأن شأنك يا عبد الله، وأنت أعلم بنفسك.

فإن كنت تعتقد أنك على حق، وتدعو إلى حق، فاصبر وجالد كما صبر أصحابك الذين قتلوا تحت رايتك.

وإن كنت إنما أردت الدنيا، فلبئس العبد أنت، أهلكت نفسك، وأهلكت رجالك».

قالت رضي الله عنها ذلك بكل قوة، وهي تضرب المثل الحي لنساء المسلمين، لتعلمهن كيف يربين أولادهن على الاعتزاز بالدين، والتمسك بالحق، والتجافي عن دار الغرور.

لقد أوصته بالصبر إن كان يعلم أنه على الحق، وتُذكره بأصحابه الذين قتلوا من أجل الحق، وهو ليس بأقل منهم.

وتحذره من الدنيا إن كانت هجرته لها، وهويته إليها، وفي ذلك الهلاك لنفسه ولمن معه.

«قال: ولكني مقتول اليوم لا محالة.

قالت: ذلك خيرٌ لك من أن تسلم نفسك للحجاج مختاراً، فيلعب برأسك غِلْمان بني أمية».

لا زالت رضي الله عنها تثبته على الحق، وترد عنه وساوس الشيطان، حتى بعدما أكَّد لها أنه مقتول لا محالة، ولكنها التربية الإيمانية تتوالى قولاً بعد آخر، ولذلك أشرقت أسارير وجهه في النهاية، ودعا لأمه وبين لها أنه ما وهن ولا ضعُف، وإنما خشى أن تُستباح محارم الله.

ثم قال لها بعد أن ظهر أن طريقهما واحد، وهدفهما واحد:

«وها أنا ذا ماضٍ إلى ما تحبين، فإذا أنا قتلت فلا تحزني عليَّ، وسلِّمي أمرك لله.

قالت: إنما أحزن عليك لو قُتلت في باطل».

هكذا يجب أن يكون موقف الأم الصالحة، التي لا تبالي بأي سوء يلحق بابنها مادام على الحق، فهي لا تبالي بكلام الناس، وهمزهم ولمزهم، لأن أولادها مثلاً يحرصون على صلاة الجماعة في المسجد، أو أن بناتها قد ارتدين الحجاب، وخلعن عن أنفسهن لباس العري والتهتك والانحلال.

فإذا كان هذا هو موقف الأم الواعية، فلابد أن ينشأ من ورائها جيل صالح يسوقها إلى الجنة، وتسوقهم إليها، ينتفع بهم المجتمع، وتسعد بهم البشرية.

وهذا ما ظهر من كلام ابن الزبير: «فإذا أنا قتلت فلا تحزني وسلِّمي أمرك لله».

وعند الوداع طلب منها أن تدعو له، فبماذا تضرعت الأم إلى ربها لولدها؟ توسلت وتضرعت بطاعته لله تعالى الواجب منها والمستحبَّ فقالت:

«اللهم ارحم طول قيامه .. وشدة نحيبه في سواد الليل والناس نيام.

اللهم ارحم جوعه وظمأه في هواجر المدينة ومكة وهو صائم.

اللهم ارحم برَّه بأبيه وأمه.

اللهم إني قد سلمتُه لأمرك، ورضيتُ بما قضيت له، فأثبني عليه ثواب الصابرين».

* * *



(٦)
موقف نسيبة المازنية
عندما بلغها موت ابنها

موقف نسيبة المازنية عندما بلغها موت ابنها

نعى الناعي حبيب بن زيد إلى أمه نَسيبة المازنية فما زادت على أن قالت :

«من أجل مثل هذا الموقف أعددته . .

وعند الله احتسبته . .

لقد بايع الرسول ﷺ ليلة العقبة صغيراً . .

ووفَّى له كبيراً . .

ولئن أمكنني الله من مسيلمة لأجعلن بناته يلطمن الخدود عليه . . » .

* * *

الدروس والعبر

أولاً: من هي نَسيبةُ المازنية؟

نَسيبة ـ بفتح النون ـ بنت كعب بن عمرو بن عوف بن عمرو بن مندول بن عمرو بن غنم بن مازن بن النجار الأنصارية، أم عمارة مشهورة بكنيتها واسمها معًا[١].

قال ابن عبد البر: وهي أم حبيب وعبد الله ابني زيد بن عاصم، كانت قد شهدت بيعة العقبة، وشهدت أحدًا مع زوجها زيد بن عاصم ومع ابنيها حبيب وعبد الله فيما ذكر ابن إسحاق، ثم شهدت بيعة الرضوان، ثم شهدت مع ابنها عبد الله وسائر المسلمين اليمامة.

وروى عكرمة مولى ابن عباس عن أم عمارة الأنﷺارية أنها أتت رسول الله ﷺ فقالت: ما أرى كل شيء إلا للرجال، وما أرى النساء يذكرن، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ...﴾ الآية[٢].

ثانيًا: بيعة العقبة الثانية[٣]:

روى ابن إسحاق وعنه أحمد وغيره من حديث كعب بن مالك في قصة العقبة الثانية قال: «فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث

---

(١) الإصابة (٤/ ٤١٨).

(٢) الاستيعاب في أسماء الأصحاب (المصدر السابق ٤/ ٤٧٥).

(٣) انظر: «وقفات تربوية مع السيرة النبوية» للشيخ أحمد فريد حفظه الله (١٢٩ ـ ١٣٤).

الليل خرجنا من رحالنا لمعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ومنا امرأتان من نسائنا نَسيبة بنت كعب، أم عمارة إحدى نساء بني مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي إحدى نساء بني سلمة، وهي أم منيع، قال: فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب.

فقال: يا معشر الخزرج - قال وكانت العرب يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسها - إن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده، قال: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

قال: فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام قال: «**أبايعكم على أن تمنعوني ما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم**»، قال: فأخذه البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق لنمنعك ما نمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابرًا عن كابر، قال: فاعترض القول - والبراء يكلم رسول الله ﷺ - أبو الهيثم ابن التيهان فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى

قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «**بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم**»(١).

قال كعب: وقد قال رسول الله ﷺ: «**أخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيبًا ليكونوا على قومهم بما فيهم**»، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبًا، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. قال كعب: كان أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ البراء بن معرور ثم بايع بعده القوم.

فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط: يا أهل الجباجب(٢) هل لكم في مذمم والصباة(٣) معه، قد اجتمعوا على حربكم. قال: فقال رسول الله ﷺ: «**هذا أزب(٤) العقبة، هذا أزب العقبة**»، ويقال ابن أزيب، أتسمع أي عدو الله، أما والله لأفرغن لك، قال: ثم قال رسول الله ﷺ: «**ارفضوا إلى رحالكم**»، قال: فقال له العباس بن عبادة بن نضلة: والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غدًا بأسيافنا، قال: فقال رسول الله ﷺ: «**لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم**»، قال: فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها حتى أصبحنا.

فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاءونا في منازلنا فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا

---

(١) قال ابن هشام: ويقال الهدم الهدم: أي ذمتي ذمتكم وحرمتي حرمتكم. سيرة ابن هشام مع الروض الأنف (٣/ ١٨٩).

(٢) الجباجب: المنازل.

(٣) الصباة: أي الذين خرجوا عن دين آبائهم.

(٤) **أزب** العقبة: شيطانها، والأزب: القصير الماكر، والبخيل الخبيث.

أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم، قال: فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفــون بالله ما كان من هذا شيء، وما علمناه، قال: وقد صدقوا، لم يعلموه، قال: وبعضنا ينظر إلى بعض قال: ثم قام القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي، وعليه نعلان له جديدان قال: فقلت له كلمة - كأني أريد أن أشرك القوم بها فيما قالوا: يا أبا جابر أما تستطيع أن تتخذ وأنت سيد من ساداتنا مثل نعلي هذا الفتى من قريش؟ قال: فسمعها الحارث فخلعهما من رجليه ثم رمى بهما إليّ وقال: والله لتنعلنهما، قال: يقول أبو جابر: مه، أحفظت والله الفتى، فاردد إليه نعليه، قال: قلت: لا والله لا أردهما، فألٌ والله صالح لئن صدق الفألُ لأسلبنه»[1] .

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ - **قال الغزالي**: تلكم بيعة العقبة وما أبرم فيها من مواثيق وما دار فيها من محاورات، إن روح اليقين والفداء والاستبسال سادت هذا الجمع وتمشت في كل كلمة قيلت، وبدا أن العواطف الفائرة ليست وحدها التي توجه الحديث أو تملي العهود، كلا فإن حساب المستقبل روجع مع حساب اليوم، والمغانم المتوقعة نظر إليها قبل المغانم الموهومة.

فقد جاءوا من يثرب مؤمنين أشد الإيمان، وملبين داعي التضحية مع أن

---

(١) رواه ابن هشام عن ابن إسحاق (٢/ ١٨٧ - ١٩٢) بأطول من هذا، وعنه أحمد في المسند (٣/ ٤٦٠ - ٤٦٣)، والطبراني (١٩/ ٨٧ - ٩١)، والحديث بطوله في مجمع الزوائد (٦/ ٤٢ - ٤٦)، وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني بنحوه، ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع، وقال الألباني في تحقيق فقه السيرة: وهذا سند صحيح، وصححه ابن حبان كما في الفتح (٧/ ٤٧٥).

معرفتهم بالنبي ﷺ كانت لمحة عابرة غبرت عليها الأيام، وكان الظن بها أن تزول، لكننا لا يجوز أن ننسى مصدر هذه الطاقة المتأججة من الشجاعة والثقة، إنه القرآن، لئن كان الأنصار قبل بيعته الكبرى لم يصحبوا الرسول إلا لمامًا، إن الوحي المشع من السماء أضاء لهم الطريق وأوضح الغاية.

لقد نزل بمكة قريب من نصف القرآن، سال على ألسنة الحفاظ وتداولته صحائف السفرة الكرام البررة، والقرآن النازل بمكة صور جزاء الآخرة رأي العين، فتوشك أن تمد يدك تقطف من أثمار الجنة، ويستطيع الأعرابي المتعشق للحق أن ينتقل في لحظة فداء من رمضاء الجزيرة إلى أنهار النعيم، والرحيق المختوم.

وحكى القرآن أخبار الأولين كيف أخلص المؤمنون فنجوا مع رسلهم، وكيف طغى الكفار وأسكرهم الإمهال فتَعَنَّتُوا وتجبروا، ثم حل العدل الإلهي، فذهب الظالمون بددًا، وتركوا وراءهم دنيا مُدَبّرة ودورًا خربة.

فأدْبَرُوا ووُجوهُ الأرْضِ تلْعَنُهُمْ　　كبَاطِلٍ مِن جَلال الحَقِّ مُنْهَزِمُ

الإيمان بالله والحب فيه والأخوة على دينه والتناصر باسمه، ذلك كله كان يتدافع في النفوس المجتمعة في ظلام الليل بجوار مكة السادرة في غيها، يتدافع ليعلن أن أنصار الله سوف يحمون رسوله كما يحمون أعراضهم ويمنعونه بأرواحهم، فلا يخلص إليه أذى وهم أحياء، إن مشركي مكة حسبوا أنهم حصروا الإسلام في نطاق لا يعدوه، وأرهقوا المسلمين حتى شغلوهم بأنفسهم فناموا نومة المجرم الذي اقترف الإثم وأمن القصاص.

حَسَّنْتَ ظَنَّكَ بالأيّام إذ حَسُنَتْ　　ولَمْ تَخَفْ سُوءَ ما يأتي بِهِ القَدَرُ

وسَالَمْتكَ الليالي فاغْتَررْتَ بها وعِنْدَ صَفْوِ الليالي يَحْدُثُ الكَدَرُ

أجل ففي الليلة تحالف جند الحق أن يقسموا ظهر الوثنية، وأن ينتهوا بالجاهلية ورجالها إلى الفناء[1].

٢ ـ لعل أصحاب الفكر المتسرع الذين يظنون أن الإسلام يمكن أن يمكّن بضربة خاطفة يعتبرون بما حدث في هذه البيعة، وكيف أن الأنصار وهم أهل حرب ودراية، وقد عرضوا على رسول الله ﷺ أن يميلوا على أهل الوادي فيقتلونهم، فنهاهم ﷺ عن ذلك وقال: «**إني لم أومر بذلك**» فتعجل الثمار قد يضيع الجهد المبذول، ولا تؤتي الحركة الإسلامية ثمارها، وتكون النتيجة خسارة الأفراد الموجودين وضياع دعوتهم في مقابل مصلحة متوهمة وهذا شاهد لقول النبي ﷺ لخباب: «**ولكنكم تستعجلون**»[2].

٣ ـ قال الأستاذ محمد سعيد رمضان:

يتجلى لدي التأمل فيما سردناه من كيفية بدء إسلام الأنصار، أن الله عز وجل قد مهد حياة المدينة وبيئتها لقبول الدعوة الإسلامية، وأنه كان في صدور أهل المدينة تهيؤ نفسي لقبول هذا الدين.

لقد كان سكان المدينة المنورة خليطًا من سكانها الأصليين وهم العرب المشركون واليهود المهاجرون إليها من أطراف الجزيرة، وكان المشركون ينقسمون إلى قبيلتين كبيرتين: إحداهما: الأوس، والثانية: الخزرج، وكان اليهود ثلاث قبائل: بني قريظة، وبني النضير، وبني قينقاع، ولقد احتال

---

(١) فقه السيرة (١٦١ ـ ١٦٣) باختصار.

(٢) رواه البخاري.

اليهود طويلاً كعادتهم حتى زرعوا الضغائن بين قبيلتي الأوس والخزرج، فراح العرب يأكل بعضهم بعضًا في حروب طاحنة متلاحقة.

وفي غمار هذه الخصومة الطويلة حالف الأوس بني قريظة، وحالف الخزرج بني النضير وبني قينقاع، وكان آخر ما بينهم من المواقف موقعة بعاث، وذلك قبل الهجرة بسنوات قليلة، وكان يومًا عظيمًا مات فيه أكثر رؤسائهم، وفي أثناء ذلك كان كلما وقع شيء بين العرب واليهود، هدد اليهود في أثناء ذلك بأن نبيًا قد آن أوان بعثته، وأنهم سيكونون من أتباعه ويقتلونهم معه قتل عادٍ وإرم.

فهذه الظروف جعلت لدى أهل المدينة تطلعًا إلى هذا الدين، وعلقت منهم آمالاً قوية به، عسى أن تتوحد بفضله صفوفهم ويعود فيلتئم شملهم، وتذوب وتمحى أسباب الشقاق مما بينهم، ولقد كان هذا مما صنعه الله لرسوله كما يقول ابن القيم في زاد المعاد حتى يمهد بذلك لهجرته إلى المدينة، حيث اقتضت رحمة الله أن تكون هي المنطلق للمد الإسلامي في أرجاء الأرض كلها[١] .

٤ ـ **قال ابن إسحاق**: وكان رسول الله ﷺ قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في الحرب ولم تحلل له الدماء، إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ونفوهم من بلادهم، فهم بين مفتون في دينه ومن بين معذب في أيديهم وبين هارب في البلاد فراراً منهم، منهم مَن بأرض الحبشة،

---

(١) فقه السيرة (١٢٦، ١٢٧) باختصار.

ومنهم مَن بالمدينة وفي كل وجه، فلما عتت قريش على الله عز وجل، وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة، وكذَّبوا نبيه ﷺ، وعذبوا ونفوا مَنْ عَبَده وحْدَه وصَدَّقَ نبيَّه واعتصم بدينه، أذن الله عز وجل لرسوله ﷺ في القتل والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم، فكانت أول آية أنزلت في إذنه له في الحرب وإحلاله له الدماء والقتال لمن بغى عليهم فيما بلغني عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء قول الله تبارك وتعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٩ـ٤١]، أي إنما أحللت لهم القتال لأنهم ظُلموا، ولم يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس إلا أن يعبدوا الله، وأنهم إذا ظهروا أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، يعني النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين[١].

ثالثًا: صور من جهادها في الإسلام:

أ ـ يوم أحد:

كان لأم عُمارة في يوم أحد شأن وأي شأن!

حتى تستيقظ أولئك الغافلات عن السير في ميدان الدعوة والالتزام الحقيقي بالإسلام!

---

(١) سيرة ابن هشام مع الروض الأنف (٢/ ٢١١).

وحتى تترسم أولئك المجاهدات الفضليات من نساء المسلمين في كل بقاع الأرض ـ وهن يجاهدن الشرك والإلحاد ـ الخطى الثابتة نحو مرضاة الله عـــز وجل وإعلاء كلمة لا إله إلا الله.

وحتى تنظر فتيات ونساء المسلمين اللائي يسرن وراء الشيطان، فليس لهن حظ من الدنيا إلا الدنيا، ومن الدين إلا اسمه!! عسى أن يفقن من غفلتهن ويتبن إلى الله تعالى، ويسرن في طريق الهداية والصلاح.

خرجت أم عمارة إلى (أُحد) ومعها سقاؤها تروي منه ظمأ المجاهدين في سبيل الله، ومعها لفائفها لتضمد جراحهم.

«عن سعيد بن زيد الأنصاري أن أم سعد بنت سعد بن الربيع كانت تقول:

دخلت على أم عمارة فقلت لها: يا خالة أخبريني خبرك، فقالت: خرجت أول النهار، وأنا أنظر ما يصنع الناس، ومعي سقاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه، والدولة والريح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ فقمت أباشر القتال، وأذب عنه بالسيف، وأرمي عن القوس حتى خلصت الجراح إليَّ.

قالت أم سعد: فرأيت على عاتقها جرحًا له غور، فقلتُ: مَنْ أصابك بهذا؟

قالت أم عمارة: ابن قمئة، أقمأه الله، لما ولَّى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل ابن قمئة يقول: دلوني على محمد، فلا نجوت إن نجا، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير، وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ فضربني هذه الضربة، وضربته ضربات ولكن عدو الله كان عليه درعان.

وهكذا نرى أن نسيبة رضي الله عنها لم تتردد ولم تجبن، ولم تهرب، ولم تبرر، بل كان القرار الحاسم قراراً شجاعًا واعيًا، وكان التنفيذ قويًا على مستوى الإيمان ومستوى الخطر المحدق بالإسلام.

إن اهتمام نسيبة بالإسلام وأمر الدعوة، وإحساسها بمسئوليتها في حماية الدعوة والدفاع عن رسول الله ﷺ لم يكن بأقل من اهتمام الرجال من الصحابة الأجلاء، ولقد كان موقفها عظيمًا عندما ثبتت مع القلة القليلة من المؤمنين، وكان ثباتها كثبات الجبال.

وماذا تصنع امرأة في ذلك الموقف أكثر مما صنعت أم عمارة آنذاك؟

بل ماذا يصنع رجل في ذلك الموقف أكثر مما صنعت أم عمارة؟!

ألم يقتل ابن قمئة - المحاط بالسلاح والدروع - مصعب بن عمير الصحابي المجاهد، حامل الراية، الصابر المحتسب، والشهيد البطل؟

ألم ينفُذ هذا المجرم إلى مكان القيادة وهو يطاعن البقية الباقية من المسلمين، ويتلقى ضرباتهم بالترس والدرعين اللذين على جسده؟ فها هي نسيبة المجاهدة تتصدى له بقوة وثبات يضربها وتضربه، لا يستطيع أن يتقي ضرباتها، ولكن دروعه تمنعها من قتله، ويضربها على عاتقها ضربة شديدة فيجرحها جرحًا عميقًا.

يالله! كيف واصلت القتال والجرح ينزف، وله غور حتى إن الكف لتغيب فيه من عمقه وشدته؟

وهكذا نجد أن أمر العقيدة حين يبلغ هذا التوجُّه الواعي، وهذه المواقف العظيمة حينما يغزو الإسلام - وهو شعلة هادئة - أفكار الناس وقلوبهم،

ويدخل بقاع الدنيا كلها، ويصبح المسلمون حماة صادقين، وتتحول المواقف اليومية البسيطة أمثولة يحتذيها الناس في كل مكان[(١)] .

وانتهت معركة أحد وكانت أم عمارة من بين الجرحى من المسلمين بعد أن سقت العطشى، وداوت الجرحى، وشجعت المقاتلين، وأمدت بالمؤونة، وباشرت القتال حتى استحقت ثناء الرسول ﷺ عليها حين قال لابنها عبد الله ابن زيد بن عاصم: «**بارك الله عليكم من أهل بيت، مقام أمك خير من مقام فلان وفلان**»، فقالت أم عمارة: «ادع الله أن نرافقك في الجنة»، فقال: «**اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة**»، قالت: «ما أبالي ما أصابني من الدنيا»[(٢)] .

وبعد أحد نرى أم عمارة رضي الله عنها لم تترك موطنًا إلا حضرته مع رسول الله ﷺ، وكأنما أصبحت جزءًا من الدعوة، ترى أن الإسلام قضيتها الأولى، فتتحرك معها، وتتابع أحداثها، وتعي ما يدور حولها فترى ما يكيده أعداء الدعوة من مكائد، وما يعملون من مؤامرات»[(٣)] .

هكذا كان موقف أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية رضي الله عنها.

فنراها عندما اعترضت ابن قمئة مع أناس ممن ثبتوا مع رسول الله ﷺ في المعركة فضربها الضربة، وضربته هي عدة ضربات، لم تهرب، ولم تخف، بل كانت شجاعة واعية لما تصنع، وكان الإصرار على ضرب ابن قمئة ومواصلة الجهاد في المعركة على مستوى إيمانها الراسخ بالله تعالى وعلى

---

(١) «نسيبة بنت كعب المازنية» تأليف محمد حسن بريغش.

(٢) رواه ابن سعد في طبقاته (٨/ ٤١٤، ٤١٥).

(٣) صور من سير الصحابيات لعبد الحميد السحيباني (٧٣-٧٦)، صور من حياة الصحابيات (٦٦-٦٩).

مستوى الخطر المحدق بالإسلام.

فأين نساء اليوم من أم عمارة رضي الله عنها؟

بل أين أخواتنا المسلمات اليوم من أم عمارة رضي الله عنها؟

تحسب الواحدة منهن أنها ببعض ركعات تُصلى، وشهر يُصام، وحجاب يُرتدى، وبعض آيات تُتلى، أنها قد فهمت الإسلام، وأنها قد استقامت على الدين حقًا، في الوقت الذي لا تزال بعض أفكارها، وبعض سلوكياتها، لم تُعجن بعد بالإسلام، ولم تصطبغ حقيقةً بالدين، حتى بات المظهر الخارجي جميلاً، والباطن لا يتناسق مع الظاهر، بل يظهر سوءه ويُفتضح وقت الابتلاء والمحن.

لابد أن تعي المرأة المسلمة أن الدور المطلوب منها اليوم أكبر بكثير مما تظن.

فهناك نقص في فهم الإسلام ككل!

وهناك قصور في الالتزام به كاملاً!

وهناك ضعف في العمل له والدعوة إليه!

فنجد مثلاً قصورًا حادًا في فهم «تربية الأولاد على الإسلام».

وقصورًا آخر في فهم «معنى وآداب الزيارة في الله».

وقصورًا آخر في فهم «معنى وكيفية الدعوة إلى الله»[١].

---

(١) إلى غير ذلك من جوانب القصور والتي سنفرد لها رسالة إن شاء الله بعنوان: «وقفة مع الأخوات المسلمات» يسر الله كتابتها ونشرها ضمن سلسلة: «المرأة الصالحة».

فأنى لهذا الجيل أن يكون من بينهن مثلاً واحدة مثل : «أم عمارة» .

إن بعض النماذج الطيبة الموجودة الآن لا تكفي ، فالفساد والبعد عن الدين له اليد الطولى بين الناس وعليهم ، فهلا اغتنمت كل امرأة صالحة وقتها لإعادة ترتيب أوراقها ، ثم تهب بعد ذلك هبَّة خالصة لله تعالى ، لا تهدأ بعدها إلا بالموت .

وهكذا تمرست أم عمارة يوم أحد على القتال ، وذاقت حلاوة الجهاد في سبيل الله تعالى ، ولم يجعلها جرحها الغائر تجبن وتتردد ، وتترك الرجال يخرجون إلى الجهاد دونها ، بل حضرت مع رسول الله ﷺ أكثر المشاهد ، فحضرت معه الحديبية ، وخيبر ، وعمرة القضيِّة ، وحنينًا ، وبيعة الرضوان ، واليمامة .

ب ـ اليمامة وما أدراك ما يوم اليمامة ؟ !

(ولقد وقفت أم عمارة رضي الله عنها أمام المصائب وقوف الصابرين المحتسبين ، فعندما أرسل الرسول ﷺ ابنها حبيبًا برسالة إلى مسيلمة الكذاب يدعوه فيها إلى الإسلام ما كان من مسيلمة إلا أن قتله وقطَّعه ، وعند ذلك علمت نسيبة ـ أم عمارة ـ بجريمة مسيلمة وطغيانه ، فاستقبلت الخبر بصبر وثبات ، وعاهدت ربها أن تموت دون مسيلمة أو تقتله وتثأر لابنها الشهيد ، وانتظرت مسيرة الجيش إلى اليمامة ، فخرجت مع ابنها عبد الله في جيش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه .

وهناك اشتد القتال ، واستأسد مسيلمة وأعوانه بعدما انهزم أول جيش اصطدم به ، ولكن الجيش الذي قاده خالد كان أكثر إصرارًا على النصر واقتلاع شوكة الباطل .

واحتدم القتال وسقط الكثير من المسلمين شهداء، وارتفعت هتافات الإيمان: الله أكبر، واقتحم الصحابة من أهل بدر وأحد صفوف المرتدين، وشتتوا جموعهم، وهرب مسيلمة يلتمس النجاة مع الآلاف الباقية من جنده، والتجأ إلى بستان مسور، وأحكم إغلاق الباب.

وهناك كانت بطولات يقف أمامها التاريخ مشدوهًا، واقتحم المسلمون البستان بعد أن ألقوا بواحد منهم وراء الباب حتى فتحه، وكانت نسيبة تندفع مع الجموع الإسلامية إلى حديقة الموت، واستمر القتال.

كانت تبحث عن عدو الله، وكان دون ذلك جموع وأبطال أشداء، لكنها تدربت على اقتحام كتائب الأبطال، وعرفت موطن مسيلمة فاقتحمت الجموع حوله مع ابنها، ووصلوا إليه حتى أصابه ابنها عبد الله بضربة قاتلة، وقذفه وحشي بحربته الصائبة، فخر عدوُّ الله صريعًا، وشفى الله صدرها، وانتقمت من عدو الله وعدوها.

وعادت نسيبة بعد أن شاركت في هذه المعركة العظيمة، وانتقمت لموت ابنها بعد أن أصيبت باثني عشر جرحًا، وقطعت يدها، وعادت إلى المدينة لتضميد جراحها)[1] .

ولما علم أبو بكر الصديق رضي الله عنه بما أصاب نسيبة من قطع يدها وإصابتها من الجراح، كان يأتيها ليعودها ويسأل عنها ويشد من أزرها ويُصبرها.

وهكذا يرفع الإسلام أهله، عندما يذهب خليفة المسلمين ليسأل عنها،

---

(١) صور من حياة الصحابيات (٧٣ـ٧٧).

فيضرب بذلك القدوة والمثل، ويضع مثل هذه القيم ويرسخها في مجتمعه، ولم لا، وأم عمارة جديرة بكل ذلك، فهي صورة صادقة للتضحية والبذل والعطاء، ومثالاً رفيعًا للاحتذاء.

رابعًا: المرأة التي تعد الأبطال وتربي الرجال:

يظهر ذلك في موقعة أحد عندما كان ابن أم عمارة يناضل عن رسول الله ﷺ فضربه أحد المشركين ضربة شديدة، جعل الدم يتفجر منه.

ماذا فعلت أم عمارة حينها؟!

لقد ضمدت جرحه الغائر وقالت له: «انهض يا بُني وجالد القوم».

لم تُخف ابنها عن أعين المشركين، ولم تسحبه خارج ميدان المعركة، وإنما ضمدت جرحه، وأمرته بمواصلة الجهاد ومضاربة المشركين بالسيف.

هكذا كانت تربي ابنها وتعده بطلاً مغوارًا، ورجلاً تعتمد عليه الدعوة في أحلك أوقاتها.

ويظهر لنا موقف آخر لها رضي الله عنها، عندما رأى الرسول ﷺ جرح عاتقها يتصبب منه الدم فقال لابنها:

«أمسك أمك، اعصب جرحها، بارك الله عليكم أهل بيت، لمقام أمك خير من مقام فلان وفلان، رحمكم الله أهل بيت».

وهل كانت تطمع أم عمارة في أفضل من ذلك؟ نعم!

التقت رضي الله عنها برسول الله ﷺ وقالت له: ادع الله لنا أن نرافقك في الجنة يا رسول الله، فقال ﷺ: **«اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة»**.

فقالت بلسان المجاهدة الصابرة، الفرحة بهذه الدعوة الغالية، «ما أبالي بعد ذلك ما أصابني في الدنيا».

هكذا يعمل الإيمان في القلوب عندما يتمكن منها ويستقر.

هكذا تهون الدنيا كلها بزخارفها وزينتها وشهواتها وصراعاتها، عندما تكون عين المرأة على الجنة.

هكذا يكون البذل والعطاء من أجل هذه الدعوة المباركة، عندما تبيع المرأة الصالحة هذه الدنيا الفانية بدار باقية في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

يا نساء المسلمين ..

إن أم عمارة (لم تقتصر في حياتها على تربية أبنائها على الحق والعدل، والجرأة والشجاعة، والثبات على المبدأ بعد الإيمان العميق بالله.

ولم تكن تقتصر على رعاية بيتها، والحفاظ على أسرتها، بل كانت في بطولتها وشجاعتها وبلائها في الحروب، نبراسًا لكل امرأة تقتدي بها وتهتدي بسيرتها.

إذ ليست النساء وعاءً لإنجاب الأطفال، ورعاية الأسرة وحمايتها فقط، بل إن لهن دوراً آخر في المواقف الصعبة، يجعل منهن للرجال أندادًا، بل إنهن أحيانًا يأخذن دور الرجال، ويقمن بأعمالهم، وإن بدت للرائي أدواراً ما خلقت لها المرأة، لاسيما أنها تتمتع برقة لا توجد في الرجال، وضعف في القوة الجسدية، لا تصل لقوة الجسد في الرجال.

ولكن في الأيام العسيرة لم تعد المرأة وراء الرجال تعمل بصمت في بيتها، وتبذر وتزرع مكارم الأخلاق فقط، بل إنها غدت إلى جانبهم، يدًا بيد

وكتفًا إلى كتف، وربما سبقت الرجل ونصبت نفسها تدافع عنه، وتقيل عثرته وتجعله يسير على قدميه يواصل مسيرته في الحياة.

بعد ذلك تفسح له المجال ليتابع ويتابع. إنها في الخطوط الأمامية من المعركة لا في الخطوط الخلفية»[١].

هل وعيت كل واحدة من نساء المسلمين طبيعة عملها في هذه الدنيا، وطبيعة مستلزمات ارتباطها بالدين عقيدة وسلوكًا ودعوة؟!!

وما هي هذه الجنة التي من أجلها يهون كل شيء؟!

* عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يأكل أهل الجنة فيها، ويشربون، ولا يتغوطون، ولا يمتخطون أو يبولون، ولكن طعامهم ذاك جشاءٌ كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتكبير، كما تلهمون النفس**»[٢].

* وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تعالى: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، واقرأوا إن شئتم: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾** [السجدة: ١٧]»[٣].

* وعن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها في السماء ستون ميلاً، للمؤمن فيها**

---

(١) نساء رائدات، عفت وصال حمزة (١/ ٧٨).
(٢) أخرجه مسلم وغيره.
(٣) متفق عليه.

أهلون يطوف عليهم المؤمن ولا يرى بعضهم بعضًا»[١] .

* وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «**إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المُضمَّر السريع مائة سنة لا يقطعها»**[٢] .

* وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال : «**إن أدنى مقعد أحدكم من الجنة أن يقول له : تمنَّ، فيتمنى ويتمنى، فيقول له : هل تمنيت ؟ فيقول : نعم، فيقول له : فإن لك ما تمنيت ومثله معه»**[٣] .

* وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال : «**إنكم سترون ربكم عيانًا كما ترون هذا القمر، لا تُضامون في رؤيته»**[٤] .

خامسًا: فضل الصبر على فقد الأولاد:

* روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «**لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم**»، ولفظ مسلم : «**من مات له ثلاثة لم يبلغوا الحنث لم تمسه النار إلا تحلة القسم»**[٥] .

قال النووي : تحلة القسم هو المرور على الصراط .

* وعند مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لامرأة مات

---

(١) متفق عليه .
(٢) متفق عليه .
(٣) رواه مسلم .
(٤) متفق عليه .
(٥) البخاري (١٢٥١)، ومسلم (٢٦٣٢).

لها ثلاثة من الولد قال لها: «**لقد احتظرت بحظار شديد من النار**»[١] .

ومعنى احتظرت بحظار شديد من النار: أي احتميت بحمى عظيم منها.

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله عز وجل: ما لعبدي المؤمن جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة**»[٢] .

ومعنى صفيه: حبيبه.

* وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «إن النساء طلبن يومًا لهن يجلسن فيه إلى رسول الله ﷺ ليعظهن ويذكرهن؟ فاجتمعن في يوم ودار حددا لهن، فوعظهن رسول الله ﷺ وقال: «**ما منكن امرأة يموت لها ثلاثة من الولد إلا كانوا لها حجابًا من النار**»، فقالت امرأة: واثنين؟ فإنه قد مات لي اثنان، فقال رسول الله ﷺ: «**واثنان**»[٣] .

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**صغارهم دعاميص أهل الجنة، يتلقى أحدهم أباه فيأخذ بصنفة ثوبه** - أي: بطرفه - **فلا يفارقه حتى يدخله الجنة**»، وفي لفظ: «**صغارهم دعاميص الجنة، يتلقى أحدهم أباه** - أو قال: أبويه - **فيأخذه بثوبه** - أو قال: بيده - **كما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا، فلا يتناهى** - أو قال: فلا ينتهي - **حتى يدخله الله وإياه الجنة**»[٤] .

---

(١) مسلم (٢٦٣٦).
(٢) البخاري (٦٤٢٤).
(٣) رواه البخاري (١٠١)، ومسلم (٢٦٣٣).
(٤) رواه مسلم (٢٦٣٥)، وأحمد (٥/ ٥١٠)، وانظر: السلسلة الصحيحة برقم (٤٣١).

(ودعاميص): مفردها دعموص، وهو الذي لا يمنع من دخوله في أي مكان، فإنهم يسيحون في الجنة ولا يمنعون من مكان منها.

* وعن عتبة بن عبد السلمي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يتوفى له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا تلقوه من أبواب الجنة الثمانية من أيها شاء دخل»[1].

* وعن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: **«ما من مسلمين يُتوفى لهما ثلاثة من الولد، لم يبلغوا الحِنْثَ، إلا أدخلهم الله الجنة بفضل رحمة الله إياهم»**[2].

* وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا مات ولد العبد قال الله عز وجل لملائكته: قبضتم ولد عبدي، فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة، سموه بيت الحمد»**[3].

ونحن إذ نحث المرأة المسلمة على الصبر على فَقْد أحد أولادها أو أكثر، نذكر بالأسى والحزن ما يتساقط الآن على أرض فلسطين من فلذات أكبادنا مُدْرجين في دمائهم بأيدي اليهود الغاصبين المجرمين.

---

(١) حديث حسن رواه أحمد (٤/ ١٨٣، ١٨٤)، وابن ماجه (١٦٠٤)، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١/ ٢٦٨) برقم (١٣٠٣).

(٢) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه برقم (١٣٠٤).

(٣) أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٨١٤).

ومما يجدر بأمهات هؤلاء الأبناء أن يحتسبن أولادهن عند الله عز وجل، وأن يقبلهم الله تعالى عنده في عداد الشهداء الذين يستقبلون آباءهم وأمهاتهم في الآخرة إن شاء الله ويُدخلونهم الجنة، وذلك مما يعينهم على حسن الصبر وتجفيف دموعهم بما أعد الله تعالى لهم جميعًا في الجنة إن شاء الله.

* * *



(٧)
موقف أم حبيبة من زوجها عندما ارتد

موقف أم حبيبة من زوجها عندما ارتد

قال المؤرخون : «أم حبيبة آثرت الله ورسوله على ما سواهما ، وكرهت أن تعود للكفر كما يكره المرء أن يقذف في النار» .

* * *

الدروس والعبر

أولاً: من هي أم حبيبة؟

هي رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس الأموية زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم، تكنى أم حبيبة وهي بها أشهر من اسمها، وقيل: اسمها هند، ورملة أصح، أمها صفية بنت أبي العاص بن أمية.

ولدت قبل العقبة بسبعة عشر عامًا، تزوجها حليفهم عُبيد الله - بالتصغير - ابن جحش بن دياب بن يعمر الأسدي من بني أسد بن خزيمة، فأسلما ثم هاجر إلى الحبشة، فولدت له حبيبة، فبها كانت تكنى، وقيل: إنما ولدتها بمكة وهاجرت وهي حامل بها إلى الحبشة، وقيل: ولدتها بالحبشة.

وتزوج حبيبة داود بن عروة بن مسعود، ولما تنصر زوجها عبد الله بن جحش وارتد عن الإسلام فارقها.

وماتت بالمدينة سنة أربع وأربعين، جزم بذلك ابن سعد وأبو عبيد، وقال ابن حبان وابن قانع: سنة اثنتين، وقال ابن أبي خيثمة: سنة تسع وخمسين، وهو بعيد والله أعلم[1].

ثانيًا: إسلامها وخروجها على أهلها ومجتمعها:

كان أبو سفيان بن حرب سيد مكة المطاع وزعيمها القوي الذي يدين له

---

(١) الإصابة (٤/ ٣٠٥).

الناس بالولاء، ومع ذلك خرجت ابنته رملة وزوجها عبيد الله بن جحش عليه وعلى المجتمع حين كفروا بالآلهة الباطلة وآمنوا برسالة محمد ﷺ[١].

ما كان يدور بخلده أن يخرج أحدٌ عليه، فإن كان الخارج هو ابنته وزوجها، فبأي وجه سيقابل قريشًا وهو الزعيم المهاب بينهم؟!

لقد حاول بكل ما أوتي من قوة وبأس أن يرد ابنته وزوجها عن هذا الدين الجديد، ليعودوا مرة أخرى في كنف دينه ودين آبائه الباطل.

ولكن هيهات هيهات! ماذا تفعل الدنيا كلها إذا رسخ الإيمان في قلب صاحبه؟!

ولم يقف أبو سفيان وحده في ميدان المعركة بين الحق والباطل، بل دخلت قريش معه حلبة الاجتراء على أم حبيبة وزوجها، وأخذت قريش تضيق عليهما الخناق وتؤذيهما حتى باتا لا يطيقان الحياة في مكة.

لذا كانا في طليعة المهاجرين بدينهم إلى الحبشة لما أذن رسول الله ﷺ للمسلمين بالهجرة إليها.

(لكن أبا سفيان بن حرب ومن معه من زعماء قريش أعزَّ عليهم من أن يفلت من أيديهم أولئك النفر من المسلمين! وأن يذوقوا طعم الراحة في بلاد الحبشة، فأرسلوا رسلهم إلى النجاشي يحرضونه عليهم ويطلبون منه أن يسلمهم إليهم، ويذكرون له أنهم يقولون في المسيح وأمه مريم قولاً يسوؤه.

---

(١) أين المرأة المسلمة اليوم من ذلك؟ حين تؤذى في دينها والتزامها بالسخرية والاستهزاء من أقرب الناس إليها، فما تلبث إلا وتضعف، ثم تترك طريق الهدى وتعود مرة أخرى إلى ما كانت عليه من التفريط في الدين والبعد عنه.

فبعث النجاشي إلى زعماء المهاجرين، وسألهم عن حقيقة دينهم، وعمَّا يقولونه في عيسى بن مريم وأمه، وطلب إليهم أن يسمعوه شيئًا من القرآن الذي ينزل على قلب نبيهم.

فلما أخبروه بحقيقة الإسلام، وتَلَوْا عليه بعضًا من آيات القرآن، بكى حتى اخضلت لحيته، وقال لهم:

إن هذا الذي أنزل على نبيكم محمد، والذي جاء به عيسى بن مريم يخرجان من مشكاة واحدة.

ثم أعلن إيمانه بالله وحده لا شريك له، وتصديقه لنبوة محمد صلوات الله وسلامه عليه.

كما أعلن حمايته لمن هاجر إلى أرضه من المسلمين على الرغم من أن بطارقته أبوْا أن يُسْلموا، وظلوا على نصرانيتهم)[١].

وصدق الله تعالى حين يقول: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ **الْمَاكِرِينَ** ﴾ [الأنفال: ٣٠].

فقد اجتمع أهل الشرك متمثلين في أبي سفيان وزعماء قريش على مواصلة التضييق على الفئة المؤمنة التي رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولاً، ولكنهم لا يدرون بتدبير الله عز وجل الذي لا يتخلى عن نصرة عباده المؤمنين.

كذلك يجب أن تكون كل مسلمة مؤمنة بالله الإيمان الصادق الذي يحملها

---

(١) صور من حياة الصحابيات، ص(٨١، ٨٢)، البطارقة: جمع بطريق، وهو القائد.

على تمام التوكل على الله عز وجل، حتى يرزقها الله عز وجل النصر والتمكين والثبات على الدين.

ثالثًا: ابتلاء الزوجة المؤمنة بزوجها:

رأت أم حبيبة في منامها أن زوجها عُبيد الله بن جحش يتخبط في بحر لُجِّيٍّ، غشيته ظلمات بعضها فوق بعض، وهو بأسوأ حال.

وما لبثت رؤياها أن تحققت، حتى وجدت زوجها قد ارتد عن دينه وتنصر!.

ابتلاء شديد وخطب جليل جاءها بعدما ظنت أنها في الجنة مع زوجها قد صفا لها الحال بعد طول شدة، وأنه قد آن لها أن تستريح من عذاب أبيها لها، وكذلك قريش بسبب إسلامها.

ولكنه الطريق إلى الله تعالى، ابتلاء تلو ابتلاء، وامتحان بعد امتحان، حتى يمحص الله الصادقين من الكاذبين.

ومع ذلك فهي لم تهن، ولم تجزع وظهر ذلك في أعلى صورة لمَّا خيرها بين أمرين: فإما أن تطلق، وإما أن تتنصر!!

ماذا تفعل أم حبيبة إذن وهي وحدها في مجتمع جديد، وشوكة المسلمين لا تزال ضعيفة، وزوجها قد انتكس انتكاسة خطيرة؟!

وجدت نفسها فجأة بين ثلاثة أمور:

الأول: أن تتنصر مع زوجها وتقبل دعوته لها بالدخول في النصرانية، وبذلك ترتد عن دينها.

والثاني: أن تعود إلى أبيها وعشيرتها وهم لا يزالون يعيشون في شركهم، لتقاسي العذاب والهوان من أجل ثباتها على دينها.

والثالث: وإما أن تبقى في بلاد الحبشة وحيدة بلا أهل ولا ناصر.

اختيارات صعبة، وابتلاء شديد، يحث نساء المسلمين اليوم أن يستحين من الله تعالى عندما تسقط الواحدة منهن في طريق الانتكاسة والضلال بعد الهدى بسبب دنيا زائلة، أو متاع زائف، أو ابتلاء لا يوازي أي ابتلاء ارتوت من كأسه أم حبيبة وغيرها من نساء سلف هذه الأمة.

لقد آثرت أم حبيبة رضا الله عز وجل على ما سواه.

لقد عزمت على البقاء في الحبشة وتحمل هذه الغربة الشديدة - وهي امرأة - على ما عداه من الأمرين الآخرين حتى يأتي الله بنصر من عنده.

آثرت أن تعمل من أجل دينها وجنة ربها.

فأين أخواتنا المسلمات اليوم من مثل هذه السيدة الجليلة؟!!

لا تتحمل الواحدة منهن أدنى ابتلاء بسبب إصرار أهلها مثلاً على خلعها للحجاب، أو عدم التزامها بالدين، فتنتكس وتضل بعد الهدى، أو تبقى على الحد الأدنى وهو ظاهر التدين دون حقيقته، وتقنع بذلك وتظن أنها قد أحسنت صُنعًا.

رابعًا: الفرج بعد الشدة:

لا تظن المسلمة الديِّنة أنها تقف وحدها في ميدان الاستقامة على الدين!

لا تظن أن عين الله تعالى عنها غائبة!

لا تظن أبدًا أن مرارة الابتلاء والشدة ستبقى طويلاً دون فرج ونصر من الله، ولكنكم قوم تستعجلون!

لابد من بزوغ الفجر بعد طول الظلام، وما النصر إلا من عند الله تعالى.

لم يطل ابتلاء أم حبيبة طويلاً حتى جاءها الفرج، وحتى داعبتها أجنحة السعادة بما لا تتوقع أبدًا.

ففي ذات يوم فوجئت أن النجاشي يرسل إليها مع وصيفته «أبرهة»، بأن النبي ﷺ قد خطبها لنفسه، وأنه قد بعث للنجاشي كتابًا وَكَّلَه فيه بأن يعقد له عليها، فلتوكل عنها من تشاء!!

هل كانت أم حبيبة تتوقع فرجًا بهذه الصورة؟!

أقصى ما كانت تتمناه، أن يرزقها الله عز وجل بزوج مسلم صالح يكفيها مؤنة الغربة، وفقدان الأهل والوطن، ويثبتها على دينها، ويعينها على طاعة الله تعالى.

لكن أن يكون هذا الزوج هو رسول الله ﷺ، فهذا ما لم تكن تتوقعه، وما لم يتوقعه أحد ممن يقرأ سيرتها.

بالطبع استطارت أم حبيبة فرحًا غير عادي، لدرجة أنها خلعت ما عليها من حُلي وأعطته لأبرهة في تلك اللحظة، فهي لا تكاد تصدق نفسها، ولا تتخيل ماذا يحدث الآن؟!

وبالفعل وَكَّلَت عنها خالد بن سعيد بن العاص، وعقد عليها في قاعة فسيحة مزدانة بقصر النجاشي حضره الصحابة المقيمون في الحبشة وقتها.

(فلما اكتمل الجمع، تصدَّر النجاشي المجلس وخطبهم فقال:

أحمد الله القدوس المؤمن العزيز الجبار، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وهو الذي بشّر به عيسى بن مريم، أما بعد:

فإن رسول الله ﷺ طلب مني أن أزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، فأجبته إلى ما طلب، وأمهرتها نيابة عنه أربعمائة دينار ذهبًا على سنة الله ورسوله.

ثم سكب الدنانير بين يدي خالد بن سعيد بن العاص.

وهنا قام خالد فقال: الحمد لله أحمده وأستعينه، وأستغفره وأتوب إليه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بدين الهدى والحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، أما بعد:

فقد أجبت طلب رسول الله ﷺ، وزوّجته موكلتي أم حبيبة بنت أبي سفيان، فبارك الله لرسوله بزوجته، وهنيئًا لأم حبيبة بما كتب الله لها من الخير.

ثم حمل المال وهمّ أن يمضي به إليها، فقام أصحابه لقيامه وهمّوا بالانصراف أيضًا.

فقال لهم النجاشي: اجلسوا فإن سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يطعموا طعامًا، ودعا لهم بطعام فأكل القوم ثم انفضوا)[1].

وهكذا كان الفرج بعد الشدة والبؤس والامتحان من الله تعالى، ولقد أخبر الله تعالى في أكثر من موضع في كتابه المبارك ما يدل على ذلك فمنها:

(١) المصدر السابق، ص(٨٩، ٩٠).

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦].

وقوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

وكذلك في سنة النبي ﷺ من الأحاديث التي تدل على ذلك أيضًا ومنها:

حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي ﷺ يومًا فقال لي: «**يا غلام إني أعلمك كلمات** . . . وفيه: **واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا**»[1].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس، لم تسد فاقته، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل**»[2].

وقال الشافعي رحمه الله:

وَلَرُبَّ نازلة يضيق لها الفتى ذرعًا وعند الله منها المخرج

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فُرِجت وكنت أظنها لا تُفْرَجُ

* ولنا في قصص الأنبياء وما تعرضوا له من محن وبلاء أعقبها الله بالفرج والرفعة العبرة والعظة:

قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ۝ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۝ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾.

[الصافات: ٧٥-٧٧]

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، ووافقه الألباني. (صحيح الجامع ٧٩٥٧).

(٢) رواه الترمذي، وقال الألباني: صحيح (صحيح الجامع ٦٤٤٢).

وقال تعالى عن أيوب عليه السلام: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣، ٨٤].

(فصل)

الأسباب التي يُرجى بها تعجل الفرج بعد الشدة

وهي ما ينبغي أن نشغل به أنفسنا ونجتهد في القيام به، فإنه بيت القصيد، وأهمها:

١ - تقوى الله تعالى: وهو الالتزام بأوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه بجد وإخلاص ظاهرًا وباطنًا، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

٢ - التعرف إلى الله في الرخاء: وهو ميل القلب إلى الله عز وجل، والانقطاع إليه، والاستجابة والطمأنينة بذكره، والحياء منه، والهيبة له، وفي الحديث: «**تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة**»(١).

قال رجل لأبي الدرداء: أوصني، فقال: اذكر الله في السراء، يذكرك في الضراء.

٣ - الدعاء مع الاضطرار: وذلك لقوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢].

فلمن يلجأ المضطر إلا لله، ومن يكشف السوء عن المضرورين سواه؛ فمن أحوجه ضرٌ من مرض، أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر، فليس له من

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، ووافقه الألباني.

ملجأ إلا إليه، يتضرع إليه ويدعوه حتى يكشف عنه السوء بحكمته ورحمته.

٤ ـ كثرة الاستغفار وكثرة الاستغاثة بالله عز وجل:

ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿ **اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا** ﴾ [نوح: ١٠ـ١٢].

وكان رسول الله ﷺ إذا نزل به غم أو هم قال: «**يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث**»[(١)].

وعن أسماء بنت عميس قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من أصابه هم أو غم فقال: الله ربي لا شريك له كشف ذلك عنه**»[(٢)].

٥ ـ التوسل إلى الله عز وجل بالعمل الصالح:

ومن ذلك ما تضمنته قصة أصحاب الغار الذين انفرجت عنهم الصخرة شيئًا فشيئًا، كما توسل كل واحد منهم إلى الله عز وجل بصالح عمله.

فتوسل الأول ببره لوالديه، وتوسل الثاني بعفته من الزنا، وتوسل الثالث بحفاظه على حق أجيره.

قال الألباني: «دعا هؤلاء الثلاثة ربهم سبحانه بهذه الأعمال الصالحة أيّ صلاح والمواقف الكريمة أيّ كرم، معلنين أنهم إنما فعلوها ابتغاء رضوان الله تعالى وحده، لم يريدوا بها دنيا قريبة، أو مصلحة عاجلة، أو جاهًا أو مالاً، ورجـــوا الله جل شأنه أن يفرج عنهم ضائقتهم، ويخلصهم من محنتهم،

---

(١) رواه الترمذي، وحسنه الألباني (صحيح الجامع ٤٦٥٣).

(٢) رواه الطبراني، وحسنه الألباني (صحيح الجامع ٥٩١٦).

فاستجاب سبحانه دعاءهم، وكشف كربهم، وكان عند حسن ظنهم به، فخرق لهم العادات وأكرمهم بتلك الكرامة الظاهرة، فأزاح الصخرة بالتدريج على مراحل ثلاثة»[١] .

٦ ـ التوكل على الله:

وهو صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المصالح، ودفع المضار في أمور الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقال تعالى أيضًا: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [الأحزاب: ٣].

ومن تمام التوكل على الله عز وجل اليأس من المخلوقين واعتقاد أنهم لا يملكون له ضرًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، بل هم أقل وأذل من ذلك، ولله عز وجل وحده الخلق والأمر.

٧ ـ حسن الظن بالله عز وجل:

قال بعض الصالحين: استعمل في كل بلية تطرقك حسن الظن بالله عز وجل، فإن ذلك أقرب إلى الفرج.

والشاهد عليه قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «**أنا عند ظن عبدي بي**»[٢] ، فمن ظن بالله عز وجل أنه يفرج عنه كربه، وييسر له أمره، فالله عز وجل عند ظن عبده به، لذا كان اليأس من رحمة الله كفرًا، لأنه ظن أن الله لن يرحمه، فكان هذا الظن خروجًا من رحمة الله[٣] .

---

(١) التوسل أنواعه وأحكامه.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) انظر: الفرج بعد الشدة للتنوخي.

خامساً: الضرة صاحبة القلب النقي:

لما حضرت أم حبيبة الوفاة دعت عائشة زوج النبي ﷺ فقالت: قد يكون بيننا ما بين الضرائر فغفر الله لي ولك ما كان من ذلك، فقالت عائشة: غفر الله لك ذلك كله وتجاوز، وحلَّك من ذلك.

فقالت أم حبيبة: سررتني سرَّك الله.

وأرسلت إلى أم سلمة فقالت لها مثل ذلك.

سبحان الله! إن سلامة الصدر مطلب عظيم، والحرص عليه واجب.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قيل يا رسول الله، أي الناس أفضل؟ قال: «**كل مخموم القلب صدوق اللسان**»، قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: «**هو التقي النقي، لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد**»[1].

فما أحوجنا في مثل هذه الأزمنة إلى هذا النقاء، وما أحوج المرأة المسلمة التي تزوج عليها زوجها إلى نقاء صدرها وسلامته، وما أحوج الزوجة الثانية هي الأخرى إلى الصدر السليم النقي.

ما أحوجنا جميعًا إلى نقاء الصدور وسلامتها في وقت زادت فيه الفرقة والخلاف والنزاع، فامتلأت الصدور غلاً، وأوغرت الصدور، حتى كدنا لا نسمع إلا كلمات التنقص والازدراء، وسوء الظن، والدخول في النيات والمقاصد.

---

(١) رواه ابن ماجه، وقال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح، ورجاله ثقات، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٤٨)، صحيح سنن ابن ماجه (٢/ ٤١١) برقم (٣٣٩٧).

ولو أننا أردنا تتبع سير الأوائل لنقف على صفات وسلوك هؤلاء الأنقياء، لوجدنا العجب العجاب.

* فمن صفاتهم أنهم كانوا حريصين كل الحرص على تصفية قلوبهم من الغل والحسد والحقد.

* وهم لا يعرفون الانتقام والتشفي، ويتجاوزون عن الهفوات، والأخطاء.

* وهم أصحاب القلوب السليمة، والصدور النقية.

* يحبون العفو والصفح وإن كان الحق معهم.

* ألسنتهم نظيفة فلا يسبُّون ولا يشتمون.

* صفاء في السريرة ونقاء في السيرة.

* دعاؤهم: اللهم قنا شح أنفسنا، واسلل سخيمة صدورنا.

(فصل)

السبيل إلى نقاء الصدور وسلامتها

١ ـ الدعاء بصدق وإلحاح أن يرزقك الله قلبًا سليمًا:

فقد كان من دعائه ﷺ: «... **واسلل سخيمة صدري**»[1].

ولنردد جميعًا دائمًا: ﴿**رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [الحشر: ١٠].

وقد كان من دعائه ﷺ أيضًا: «**اللهم إني أسألك قلبًا سليمًا**».

---

(١) أي: أخرج الحقد من صدري.

٢ ـ مجاهدة القلب ومراقبته:

فإن تنقية القلب من الغل والحقد يحتاج إلى ترويض نفس وطول مجاهدة ومراقبة، فإذا ما وجدت المسلمة في قلبها شيئًا من ذلك على أختها المسلمة، فلتبحث عن الأسباب ولتصارح نفسها ولا تستجيب لداعي الهوى فيها، ولتسأل الله تعالى العون في ذلك.

٣ ـ حسن الظن:

وهو من أسباب بقاء الألفة وسلامة الصدر، ومن ثَمَّ نهانا الله عز وجل عن سوء الظن فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

فمن حق المسلمة على المسلمة أن تحسن بها الظن دائمًا، ويكون ذلك هو الأصل عندها، حتى لا تدع لأحد من شياطين الإنس أو الجن فرصة كي يفسد العلاقة بينهما.

قال ابن المبارك: المؤمن يطلب المعاذير، والمنافق يطلب الزلات.

واعلمي أيتها المسلمة أن سوء الظن يدعو إلى التجسس المنهي عنه، ويدعو إلى الوقوع في قالة السوء في أختك المسلمة، وما أبعدها عن المودة والرحمة من إذا غضبت غضبة من أختها أو رأت منها أمرًا محتملاً لوجوه كثيرة ظنت بها السوء أو قالت فيها السوء.

٤ ـ الصبر والتحمل:

فإن الاحتمال مقبرة المتاعب، ولا يوجد أحدٌ بلا عيوب، ولذا قال الشاعر:

لا يُـزهـدنـك فـي أخ لـك ... أن تـراه زلّ زلّـة

مـا مـن أخٍ لا يُعـاب ... ولـو حرصـت الحـرص كلـه

فاجعلي شعارك دائمًا: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

[يوسف: ١٨]

٥ ـ العفو والصفح:

قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

وعن علي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]: الرضى بغير عتاب.

قال الماوردي: من حق الإخوان أن تغفر هفوتهم، وتستر زلتهم؛ لأن من رام بريئًا من الهفوات، سليمًا من الزلات، رام أمرًا مُعوزًا واقترح وصفًا معجزًا.

وحكى الأصمعي عن بعض الأعراب أنه قال: تناس مساوئ الإخوان يدم لك ودهم.

وقال الشاعر:

وصِلِ الكرام إذا رَمَوْك بجفوةٍ ... فالصفح عنهم والتجاوز أصوب[1]

---

(١) أنصح بالاستماع إلى محاضرة مسجلة للشيخ محمد المنجد حفظه الله بعنوان: «تطهير النفوس من الأحقاد»، وأخرى للشيخ إبراهيم الدويش حفظه الله بعنوان: «الأنقياء»، فإن نفعهما عظيم إن شاء الله، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

(فصل)

مواقف مشرفة بين ضرتين

ولعل في النماذج الواقعية العملية سبيل كل مسلمة إلى التأسي والاقتداء بغيرها.

وإن كانت هناك صور قاتمة أو نماذج سيئة في قضية التعدد بين النساء، إلا أن الإسلام يعلو فوق كل شيء وسيعلو حتى قيام الساعة باعتزاز أهله به.

وهذه بعض النماذج المضيئة والتي تعطينا الأمل دائمًا في غدٍ مشرق وأفضل.

١ ـ ذكرت جريدة الأخبار القاهرية في عددها الصادر بتاريخ ٢٢/ ١٢/ ١٤١٧ هـ الموافق ٢٩/ ٤/ ١٩٩٧م خبراً بعنوان: «قرعة بين ضرتين» هذا نصه:

اضطر مسئولون سعوديون لإجراء قرعة بين زوجتين لأحد المرضى بالفشل الكلوي بعد أن أصرت كل منهما على التبرع له بإحدى كليتيهما، وذكرت صحيفة «عرب نيوز» السعودية التي تصدر بالإنكليزية أن السباق بين الزوجتين كان محمومًا، وأنه على الرغم من فوز الزوجة الثانية بالقرعة إلا أن الزوجة الأولى أصرت على أنها هي صاحبة الحق في التبرع لزوجها بالكلية.

٢ ـ أرسلت الزوجة الأولى للزوجة الثانية بطاقة تهنئة ليلة بناء زوجها بها قالت لها فيها:

أختي الحبيبة/ . . .

سلام الله عليك ورحمته وبركاته.

لا يسعني في هذه المناسبة السعيدة إلا أن أقول لك دعاء النبي ﷺ: «**بارك الله**

لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في خير».

وأدعو الله عز وجل أن يكتب لك السعادة والهناء والتوفيق في حياتك الزوجية الجديدة، كما أدعوه سبحانه أن نظل أختين متحابتين في الله، متعاونتين على طاعته، حتى نضرب المثل الأعلى، والقدوة الصالحة لأخواتنا المسلمات المرعوبات من تعدد الزوجات.

واعلمي يا (. . .) أني قد رشحتك زوجة لشيخنا الفاضل ـ حفظه الله ـ لما لمسته فيك من صفات حميدة، وأخلاق عالية، والتزام طيب ـ ولا أُزكي على الله أحدًا ـ وأنك سوف تكونين له نعم الزوجة التي تتفانى في خدمة زوجها وإسعاده، وسوف تجدينه ـ إن شاء الله ـ نعم الزوج لك.

فلنحافظ سويًا على هذه النعمة التي منَّ الله علينا بها، ونشكره دائمًا عليها.

وأسأل الله أن يجمعنا دائمًا على خير، وأن يوفقنا لما يحبه ويرضاه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أختك أم (. . .)

٣ ـ عندما علمت الزوجة الثانية ـ المعقود عليها ـ بمشاكل زوجها مع زوجته الأولى قالت له بكل العزة والإيثار: الأَوْلى أن تطلقني وتُبقي على زوجتك الأولى ذات الأولاد الستة، مادامت قد خيرتك بيني وبينها.

٤ ـ الزوجة الأولى تدعو الله عز وجل وتتضرع إليه فتقول:

ـ اللهم اكتب لزوجي السعادة مع زوجتيه الأولى والثانية، واكتب له

السعادة في الدارين الأولى والآخرة .

ـ اللهم انزع من قلبي الغَيْرَة، واملأ قلبي بالحب وحب الخير لزوجي ولزوجته الثانية .

٥ ـ تقول غالية الجحدري : أقول وبالله التوفيق : إنني الزوجة الثانية لزوجي، ولقد والله خطبت لزوجي المرأة الثالثة برضى من نفسي ولا أدعي أن الأمر عادي، بل إن الغيرة ما زالت موجودة، إلا أنه استشعار لهذا الخطر الداهم وإيمان مني بأن المصلحة كل المصلحة فيما اختاره الله لنا وأنا مستعدة لإثبات ذلك ولقد رفضت هذه المرأة الثالثة للأسف الموافقة .

وهأنذا أقول من أرادت أن تتأكد من كلامي وهي امرأة صالحة فبإمكاني أن أخطبها له شريطة أن يوافق هو على شخصيتها[١] .

٦ ـ التقت جريدة «الصباحية» بالعروسين روضة وهنية وتحدثتا معًا عن حياتهما الجديدة قالتا :

إن الصداقة تربط بينهما وإنهما يخرجان معًا للتسوق، وينامان معًا في غرفة واحدة بعد أن التحق عريسُهما المشترك (أمين) بالقوات المسلحة .

وبعد مضي أكثر من أسبوعين على هذا الزواج التقت «الصباحية» بوالد العريس حيث يقيم (العرسان الجدد) وأبلغ والدُ العريس «الصباحية» أن العريس ذهب بعد مضي أربعة عشر يومًا على زفافه والتحق بالخدمة الإلزامية بالجيش حيث مازال أمامه أربعة عشر شهرًا لإتمامها، وقد بدت روضة وهنية (العروسان) والموجودتان في بيت والد الزوج كأختين أكثر منهما (ضرتين)،

---

(١) نعم تعدد الزوجات نعمة، ص(٤١) .

ويظهر أن هناك علاقة حب وتفاهم بينهما ولا يوجد حتى أي نوع من الجفاء بل كانتا متفاهمتين بحماسة وكل منهما تستشير الأخرى قبل أي إجابة على أسئلة «الصباحية».

تقول هنية: إن زواجها من أمين أُجل ليلة واحدة وأنها أمضت تلك الليلة في بيت والدها.

سألناها كيف تقرر أن تكون هي الثانية؟

وأجابت ببساطة أنه حسب ترتيب كتب الكتاب فقد تقرر حينئذ أنها الزوجة الثانية، بينما تكون (روضة) الزوجة الأولى بالرغم من أن عقد القران للاثنتين تم في نفس اللحظة.

وتقول روضة: نحن حقًا صديقتان، ونستغرب لدهشة الناس من ذلك ففي الأمس عندما غادرنا أمين إلى خدمته في الجيش بتنا ـ أنا وهنية ـ في غرفة واحدة، وذهبنا بعد الظهر للتسوق معًا.

كما أننا خلال الأسبوع الماضي خرجنا مع أمين للتنزه معًا، والآن هو غير موجود بيننا ومع ذلك فنحن لا نفترق فنحن صديقتان وبنتا عمومة قبل أن نكون زوجتي أمين.

وتقول روضة: إن أهم شيء هو العدل، وأمين يعدل بيننا تمامًا، فلكل منا غرفة مستقلة في البيت، ومهرنا وتكاليف زواجنا أنا وهنية كانت متساوية تمامًا ومادام الزوج عادلاً، فلا يوجد أي داع لأية خلافات أو مشكلات[1].

٧ ـ لا تشعر الأخت (أم حسان) بأية غيرة من ضرتها، وتعتبرها أختها،

(١) فضل تعدد الزوجات، خالد بن عبد الرحمن، ص(٧٢).

وتنظر إليها نظرة احترام وتقدير . . كيف وهي التي اختارتها زوجة لزوجها بعد عدة سنوات من الزواج وعدم الإنجاب، ولكن إرادة الله فوق كل شيء، فقد حصل الحمل للزوجتين في أوقات متقاربة، وكأنه **بركة التعدد وتعظيم شريعة الله تعالى هي التي جاءت بالخير، ولم لا والله تعالى يعطي عباده المتقين ما يحبون.**

وتمضي أم حسان قائلة: أبنائي وأبناؤها لا يشعرون بأي تفرقة بينهما، فالأمور تسير على خير ما يرام، وزوجي الذي استطاع أن يسير بسفينة الحياة الزوجية إلى بر الأمان يستحق كل تقدير واحترام، فأسباب نشوء الغيرة تعود للزوج وأساليبه في التعامل.

وتقول الزوجة الثانية:

بعد الزواج كانت لي رغبة في التعرف على الزوجة الأولى، وافق زوجي وأخبرها بذلك، جاء اللقاء الذي اتسم بالهدوء واللطف، ومع مرور الأيام ازدادت معرفتنا بعضنا ببعض، وأصبح بيننا توافق واضح، ولم نشعر يومًا بحقد أو اختلاف، وبهذه الطريقة تملكتنا الفرحة والبهجة النابعة من النفوس الصافية والقلوب المطمئنة التي لا تغزوها الكراهية ولا تقترب منها؛ فمن كان مع الله كان الله معه.

وتضيف: ما هذا الوفاق - بعد فضل الله تعالى - إلا بفعل العدل الذي أمر الله به وعمل به زوجنا، وهذا التصرف الحسن ضاعف مكانته في قلوبنا.

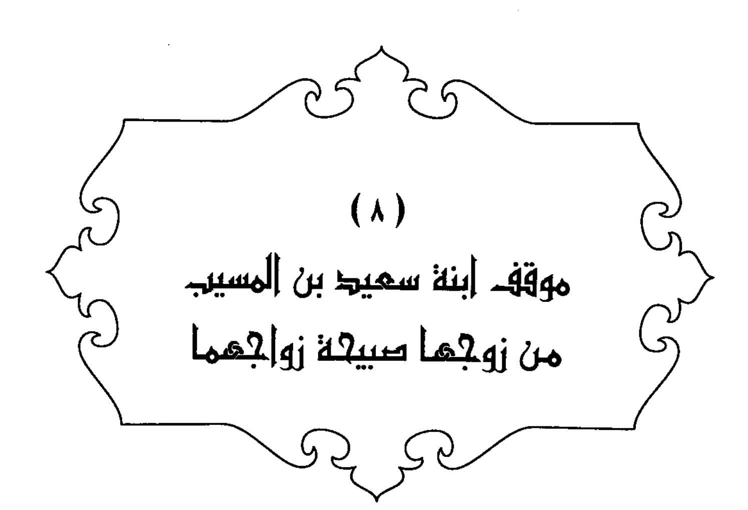
ألا فليتوخ كل زوج له أكثر من زوجة العدل في زوجاته، وليخف الله تعالى فيهن، ينج بسفينة البيت إلى بر الأمان، وينجو بنفسه أن يأتي يوم القيامة وشقه مائل.

ولتتق الله تعالى كل امرأة تزوج عليها زوجها ـ كانت زوجة أولى أو ثانية ـ ولا تستمع إلى أي قول من قريب أو بعيد يضاد شريعة الله تعالى، ولتنتبه إلى كل من تحاول أو يحاول إفساد حياتها الزوجية عليها بقصد أو بدون قصد، ولتحذر كل من يعظم لها كلام الناس، أو العادات والتقاليد، ويهمل تعظيم شريعة رب العباد.

إذا انتبهت المرأة لذلك عاشت ـ إن شاء الله ـ قريرة العين، سليمة الصدر، مرتاحة البال، مطمئنة النفس، رغم أنف الحاقدين، وضلال المغرضين، وفساد الجاهلين[١].

* * *

(١) للمؤلف رسالتان بعنوان: «موقف المرأة الصالحة من التعدد»، «رسالة مهمة إلى الأزواج العازمين على التعدد» ضمن سلسلة بعنوان: «ثغرات في بيوتنا» فلتراجعا، ففيهما نفع عظيم إن شاء الله تعالى.



(٨)

موقف ابنة سعيد بن المسيب من زوجها صبيحة زواجهما

موقف ابنة سعيد بن المسيب من زوجها صبيحة زواجهما

لما أن دخل بها زوجها ـ وكان من أحد طلبة العلم عند والدها ـ فلما أصبح أخذ رداءه يريد أن يخرج، فقالت له زوجته: إلى أين تريد؟

فقال: إلى مجلس سعيد أتعلم العلم.

فقالت له: اجلس أُعلمك علمَ سعيد.

* * *

الدروس والعبر

أولاً: قصة زواج سعيد بن المسيب[١] :

جاء في ترجمته: أن عبد الملك بن مروان خطب ابنته لولده الوليد حين ولاه العهد، فأبى أن يزوجها. قال أبو وداعة: كنت أجالس سعيد بن المسيب ففقدني أيامًا، فلما جئت قال: أين كنت؟

قلت: تُوفيت أهلي، فاشتغلت بها.

قال: فهلا أخبرتنا فشهدناها.

قال: ثم أردت أن أقوم.

فقال: هل أحدثت امرأة غيرها؟

فقلت: يرحمك الله، ومن يزوِّجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟

فقال: إن أنا فعلت تفعل؟

قلت: نعم، فحمد الله تعالى، وصلى على النبي وزوجني على درهمين أو على ثلاثة.

قال: فقمت وما أدري ما أصنع من الفرح، وصرت إلى منزلي، وجعلت أفكر ممن آخذ وأستدين؟ وصليت المغرب، وكنت صائمًا فقدمتُ عشائي

(١) انظر: عودة الحجاب للشيخ محمد إسماعيل (٢/ ٥٨١، ٥٨٢).

لأفطر، وكان خبزًا وزيتًا، وإذا بالباب يُقرع، فقلت: من هذا؟

فقال: سعيد.

ففكرت في كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب، فإنه لم يُرَ منذ أربعين سنة إلا ما بين بيته والمسجد، فقمت وخرجت، وإذا بسعيد بن المسيب، وظننت أنه بدا له.

فقلت: يا أبا محمد هلا أرسلت إليَّ فأتيتك؟

قال: لا، أنت أحق أن تُزار.

قلت: فما تأمرني؟

قال: رأيتك رجلاً عَزَبًا قد تزوجت فكرهت أن تبيت الليلة وحدك، وهذه امرأتك.

فإذا هي قائمة خلفه في طوله، ثم دفعها في الباب، وردَّ الباب، فسقطت المرأة من الحياء، فاستوثقت من الباب، ثم صعدت إلى السطح، وناديت الجيران، فجاءوني فقالوا: ما شأنك؟

قلت: زوجني سعيد بن المسيب ابنته، وقد جاء بها على غفلة، وها هي في الدار.

فنزلوا إليها، وبلغ أمي فجاءت وقالت: وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها ثلاثة أيام.

فأقمت ثلاثًا ثم دخلت بها، فإذا هي من أجمل الناس، وأحفظهم لكتاب الله تعالى، وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ، وأعرفهم بحق الزوج، قال:

فمكثت شهرًا لا يأتيني ولا آتيه، ثم أتيته بعد شهر، وهو في حلقته فسلمت عليه فرد علي، ولم يكلمني، حتى انفض مَنْ في المسجد، فلما لم يبق غيري، قال: ما حال ذلك الإنسان؟

قلت: على ما يحب الصديق، ويكره العدو.

وفي الإحياء بزيادة:

فقال: إن رابك منه أمرٌ، فدونك والعصا.

فانصرفت إلى منزلي، فوجَّه إليَّ بعشرين ألف درهم[1].

ثانيًا: حرص الزوج على تحصيل العلم الشرعي:

إن تصرف أبي وداعة رحمه الله صبيحة زواجه تصرفٌ يسترعي الانتباه والوقوف عنده وتدبره.

فقد أراد أن يترك زوجته صبيحة زواجه ليحضر مجلس العلم عند الإمام سعيد بن المسيب، ولكنها منعته، وقالت له: اجلس أُعلمك علمَ سعيد، فهي من العلم بمكانة أن تعلم زوجها، وهو الآخر لم يدع الزواج عذرًا له للتأخر عن درس العلم.

أقول هذا في وقت هجر أكثر المسلمين دروس العلم في المساجد، وانشغلوا عن آخرتهم بدنياهم، وعن ربهم بشهواتهم، حتى بعض الشباب المتدين نجده يدخل المسجد في بداية التزامه بحماس وجِدٍ ويحرص على دروس العلم، فإذا ما تزوج تغيرت الصورة للأسف، فلعل في موقف

---

(١) حلية الأولياء (٢/ ١٦٧)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٣٣).

أبي وداعة رسالة إلى أصحاب الهمم الضعيفة كي تستيقظ من رقادها.

وقد ضرب سلفنا الصالح أعلى الأمثلة في حرصهم على تعلم العلم الشرعي:

* روى البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد - وهي من عوالي المدينة [١] ، وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ ينزل يومًا وأنزل يومًا، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك[٢] .

فمن منا يفعل ما كان يفعله عمر بن الخطاب وجاره؟!

من يسأل أخاه اليوم عندما يفوته درس العلم، ما هو موضوع الدرس؟ وما هي عناصره؟ وهكذا . . .

* وروي عن معاذ بن جبل لما حضرته الوفاة أنه قال: اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لكري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن كنت أحب البقاء فيها لمكابدة الليل الطويل، ولظمأ الهواجر في الحر الشديد، ولمزاحمة العلماء بالرُّكب عند حِلَق الذكر.

* وروى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: والذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا فيمن أنزلت، ولو أعلم أحدًا أعلم مني بكتاب الله تبلُغُه الإبل لركبت إليه.

---

(١) قُرى بقرب المدينة من ناحية الشرق.

(٢) فتح الباري (١/ ١٦٧).

* وهذا أبو الدرداء رضي الله عنه يقول: لو أنسيت آية لم أجد أحدًا يُذكرنيها إلا رجلاً ببَرْك الغمام[1] ، رحلت إليه.

* و هذا جابر بن عبد الله الأنصاري اشترى بعيراً، وسار شهراً حتى قدم الشام، يطلب حديثًا من عبد الله بن أُنَيْس رضي الله عنه فيقول له: حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ، فخشيت أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه.

* ويقول سعيد بن المسيب: إن كنت لأسير الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد.

* وعن المغيرة بن النعمان قال: سمعت سعيد بن جبير يقول: اختلف أهل الكوفة في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ... ﴾ [النساء: ٩٣].

فرحلت فيها إلى ابن عباس، فسألته عنها، فقال: نزلت هذه الآية ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ ... ﴾ الآية، في آخر ما نزل، ما نسخها شيء.

* وقال هشام بن عبد الله الرازي الفقيه الحنفي: لقيتُ ألفًا وسبعمائة شيخ، وخرج مني في طلب العلم سبعمائة ألف درهم.

* وقال أحمد بن سلمة النيسابوري: وتزوج إسحاق بن راهويه بامرأة رجل كان عنده كُتُبُ الشافعي، مات، لم يتزوج بها إلا للكتب.

---

(١) بَرْك الغمام: موضع بناحية اليمن.

* وقال الإمام أحمد بن حنبل: رحلت في طلب العلم والسُّنة إلى الثغور، والشامات، والسواحل، والمغرب، والجزائر، ومكة، والمدينة، والحجاز، واليمن، والعراقية جميعًا، وفارس، وخراسان، والجبال، والأطراف، ثم عدتُ إلى بغداد، وخرجت إلى الكوفة[1].

ثالثًا: صور من سيرة المسلمة العالمة:

ويظهر ذلك جليًا من قول أبي وداعة عن زوجته: «فإذا هي من أجمل الناس، وأحفظهم لكتاب الله تعالى، وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ، وأعرفهم بحق الزوج».

وهكذا كانت النساء منذ عصر النبوة حريصات على العلم، وذلك نتيجة إحساسها بحاجتها الماسة إليه، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ذهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يومًا نأتيك فيه تعلمنا مما علمك الله، فقال ﷺ: «**اجتمعن في يوم كذا وكذا في مكان كذا**»، فاجتمعن فأتاهن، فعلمهن مما علمه الله[2].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: نعم النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين.

وهذه بعض من نماذج حرصهن على أن ينهلن من معين العلم، ويأخذن منه بسهم وافر:

---

(١) انظر: «صلاح الأمة في علو الهمة»، للدكتور/ سيد العفاني، الجزء الأول.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

* فهذه حفصة بنت سيرين وقد قرأت القرآن، وهي ابنة اثنتي عشرة سنة، وماتت وهي ابنة تسعين.

* وروى أيوب بن سويد عن يونس عن ابن شهاب عن القاسم بن محمد أنه قال لي: يا غلام، أراك تحرص على طلب العلم، أفلا أدلك على وعائه؟ قلت: بلى، قال: عليك بعمرة[١]، فإنها كانت في حجر عائشة رضي الله عنها، قال: فأتيتها، فوجدتها بحرًا لا يُنْزَف».

* وكان الإمام مالك يُقرأ عليه الموطأ، فإن لحن القارئ في حرف أو زاد، أو نقص، تدق الباب، فيقول أبوها للقارئ: ارجع، فالغلط معك، فيرجع القارئ، فيجد الغلط.

* وتصدرت أم الخير الحجازية حلقات وعظ وإرشاد المسلمات بجامع عمرو بن العاص رضي الله عنه في القرن الرابع الهجري.

* وكانت فاطمة بنت السمرقندي قد تفقهت على أبيها، وحفظت تحفته، وكان زوجها يخطئ فترده إلى الصواب، وكانت الفتوى تأتي فتخرج وعليها خطُّها، وخط أبيها.

وكانت فقيهة عالمة بالفقه والحديث، أخذت العلم عن جماعة من الفقهاء، وأخذ عنها كثيرون، وكان لها حلقة للتدريس، وقد أجازها جملة من كبار القوم، وكانت من الزهد والورع على جانب عظيم، وألفت المؤلفات العديدة في الفقه والحديث، وانتشرت مؤلفاتها بين العلماء الأفاضل.

* وكانت أم زينب فاطمة بنت عباس بن أبي الفتح بن محمد البغدادية

---

(١) هي عَمْرة بنت عبد الرحمن بن سعد بن زُرارة.

تصعد المنبر، وتعظ النساء، وانتفع بتربيتها والتخرج عليها خلق كثير، وكانت عالمة موفورة العلم في الفقه والأصول.

* وسمعت عائشة بنت حمد بن عبد الهادي صحيح البخاري، وروى عنها الحافظ ابن حجر، وقرأ عليها كتبًا عديدة، وانفردت في آخر عمرها بعلم الحديث.

* وأم الهذيل لها روايات كثيرة، وقد قرأت القرآن وعمرها اثنتا عشرة سنة، وكانت فقيهة عالمة من خيار النساء.

* وكانت «وقاية» امرأة عالمة فاضلة، كانت بإحدى مدن ليبيا، وكان يلجأ إليها أفاضل العلماء، ويقولون: تعالوا بنا نستشير وقاية، فعصابتها خير من عمائمنا.

* «وأكثر ما عرف به الممتازات من نساء المغرب الأقصى حفظ القرآن الكريم يقرأنه جميعًا ورواية الحديث ودرس الفقه والأصول وما إلى هذه من علوم الدين، ويذكر أهل ذلك الإقليم ثمانين امرأة من نساء المغرب جمعهن إلى النفاذ في ذلك كله حفظ مدونة الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه، وهي أكبر المطوّلات الجامعة للحديث والفقه»[1].

رابعًا: أهمية العلم وفضله:

لو لم يكن للعلم فضل وأهمية، ما حرص على طلبه والرحلة إليه والتعب من أجل تحصيله الرعيل الأول من سلف هذه الأمة، ومن سار على دربهم إلى قيام الساعة.

لذا كان أبو وداعة من المهرولين صبيحة زواجه إلى درس العلم حتى لا

---

(١) المرأة العربية، للأستاذ/ عبد الله عفيفي رحمه الله (٣/ ١٥٥).

يفوته منه شيء، تعظيمًا لقدره وشرفه.

* قال تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].

* ونفى سبحانه التسوية بين أهل العلم وبين غيرهم، فقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩].

* وجعل سبحانه أهل الجهل بمنزلة العميان الذين لايبصرون، فقال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ [الرعد: ١٩].

* وأخبر سبحانه عن رفعة درجات أهل العلم والإيمان خاصة فقال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: ١١].

* وقال ﷺ: «**الدنيا ملعونة، ملعونٌ ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، وعالم ومتعلم**»[١].

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من جاء مسجدي هذا لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله، ومن جاء لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره**»[٢].

* وقال رسول الله ﷺ: «**فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب**»[٣].

* وقال الإمام أحمد: الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه وغيرهما، وصححه الألباني بشواهده (صحيح الترغيب والترهيب).

(٢) صحيح، رواه ابن ماجه والحاكم في المستدرك، وصححه الألباني (صحيح الجامع رقم ٦٠٦٠).

(٣) صحيح، رواه أبو نعيم في الحلية عن معاذ، وصححه الألباني (صحيح الجامع رقم ٤٠٨٨).

الطعام والشراب؛ لأن الطعام والشراب يُحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين، والعلم يُحتاج إليه بعدد الأنفاس.

* وقال أبو الأسود الدؤلي:

العلم كنز وذخر لا نفاد له ... نعم القرينُ إذا ما صاحبٌ صحبا

قد يجمع المرء مالاً ثم يُسْلَبَهُ ... عما قليل فيلقى الذُّلَّ والحَرَبَا

وجامع العلم مغبوطٌ به أبدًا ... فلا يحاذر فوتًا لا ولا هربًا

يا جامع العلم نعم الذُّخرُ تجمعه ... لا تعدلنَّ به دُرًا ولا ذهبًا[1]

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله:

«السعادة الحقيقية هي سعادة نفسانية روحية قلبية، وهي سعادة العلم النافع ثمرته، فإنها هي الباقية على تقلب الأحوال، والمصاحبة للعبد في جميع أسفاره وفي دوره الثلاثة، وبها يترقى معارج الفضل ودرجات الكمال، وكلما طال الأمر ازدادت قوة وعلواً.

وهذه السعادة لا يعرف قدرها ويبعث على طلبها إلا العلم بها، وإنما رغب أكثر الخلق عن اكتساب هذه السعادة وتحصيلها، وعورة طريقها، ومرارة مصادرها، وتعب تحصيلها، وأنها لا تُنال إلا على جسر من التعب، فإنها لا تحصل إلا بالجد المحض»[2].

خامسًا: عرض الرجل وليته على الرجل الصالح:

وهذا ما فعله الإمام سعيد بن المسيب عندما عرض على أبي وداعة ابنته،

---

(١) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (١/ ٥٢).

(٢) مفتاح دار السعادة.

وهذا ما رغَّب فيه الإسلام أن يعرض الولي ابنته أو أخته على أهل الخير والصلاح.

وهذه وإن كانت سنة مستغربة ـ في زماننا هذا ـ فإن القرآن الكريم يقص علينا عرضَ صالحِ مدينَ ابنته على موسى.

قال الله تعالى: ﴿ **قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ [القصص: ٢٧].

فهذا الشيخ الصالح يعرض على موسى عليه السلام الزواج من إحدى ابنتيه مقابل أن يخدمه ويرعى ماشيته ثمانية أعوام، فإن زادها إلى عشرة فهو تفضلٌ من موسى وإحسان.

قال القرطبي رحمه الله: في هذه الآية عرضُ الولي ابنته على الرجل، وهذه سنة قائمة، فمن الحسن عرض الرجل وليته، والمرأة نفسها على الرجل الصالح[١].

وقال الشوكاني رحمه الله: في هذه الآية مشروعية عرض ولي المرأة لها على الرجل، وهذه سنة ثابتة في الإسلام[٢].

وقال الآلوسي ـ رحمه الله ـ قال في الإكليل: فيها استحباب عرض الرجل موليته على أهل الخير والفضل أن ينكحوها[٣].

وهكذا سنَّ القرآن هذه السنة الحميدة في أمر النكاح، والتي تساير الفطرة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٢٧١).

(٢) فتح القدير (٤/ ١٦٩).

(٣) روح المعاني (١١/ ١٠٤).

ولا تناقضها، ولا جرم أن تجد السلف الصالح وقد انتشرت بينهم هذه السنة الطيبة، بحيث أصبحت من مألوفات الأمور ومحاسن العادات.

*** عمر رضي الله عنه يعرض ابنته:**

روى البخاري في صحيحه باب: «عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير».

وكذا النسائي باب: «عرض الرجل ابنته على من يرضى».

«أن عمر بن الخطاب حين تأيمت حفصة بنت عمر من خنيس بن حذافة السهمي، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ، فَتُوُفِّيَ بالمدينة، فقال عمر بن الخطاب:

أتيت عثمان بن عفان فعرضت عليه حفصة، فقال: سأنظر في أمري، فلبثت ليالي ثم لقيني، فقال: قد بدا لي ألا أتزوج يومي هذا.

قال عمر: فلقيتُ أبا بكر الصديق، فقلتُ له: إن شئت زوجتك حفصة بنت عمر، فَصَمَتَ أبو بكر، فلم يرجع إليَّ شيئًا، وكنتُ أوجد عليه مني على عثمان، فلبثت ليالي ثم خطبها رسول الله ﷺ، فأنكحتها إياه.

فلقيني أبو بكر، فقال: لعلك وجدتَ عليَّ حين عرضت عليَّ حفصة، فلم أرجع إليك شيئًا.

قال عمر: نعم. قال أبو بكر: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت عليَّ إلا أني كنت علمت أن رسول الله ﷺ ذكرها، فلم أكن أفشي سرَّ رسول الله ﷺ، ولو تركها رسول الله ﷺ قبلتها»[1].

---

(١) البخاري (١٩/ ٨١) رقم (٥١٢٢)، النسائي (٦/ ٧٨) رقم (٣٢٤٨).

وهكذا كان يعرض عمر رضي الله عنه في غير ما تحرج ولا تلعثم ولا التواء، ابنته على عثمان، ثم أبي بكر، وما هذا التصرف، إلا ثمرة من ثمرات المنهج الإسلامي الميسر الشديد التيسير الذي يأخذ في اعتباره فطرة هذا الكائن البشري، ما يصلحه وما يفسده، حتى بات هذا الأمر من الأمور المألوفة عندهم.

وإذا كان هذا هو منهج الإسلام فَلِمَ الخضوع لتقاليد باطلة سخيفة، بدعوى أن ذلك يخالف العرف أو عاداتنا؟!

والحديث صريح الدلالة كما يقول الحافظ ابن حجر على (جواز عرض الإنسان بنته وغيرها من مولياته على من يعتقد خيره وصلاحه، لما فيه من النفع العائد على المعروضة عليه، وأنه لا استحياء في ذلك، وأنه لا بأس بعرضها عليه ولو كان متزوجًا؛ لأن أبا بكر كان حينئذ متزوجًا)[1].

* **أم حبيبة تعرض أختها:**

روى البخاري ومسلم عن أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي ﷺ: «قالت: يا رسول الله أنكح أختي بنت أبي سفيان.

فقال: «**أو تحبين ذلك؟**».

فقالت: نعم، لست لك بمخلية[2]، وأحب من شاركني في خير أختي.

فقال النبي ﷺ: «**إن ذلك لا يحل لي**».

قلت: فإنا نحدَّث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة.

---

(١) فتح الباري (٩/ ٨٣).

(٢) لست بمنفردة عنك ولا خالية من ضرة.

قال: «**بنت أم سلمة**».

قلت: نعم.

قال: «**لو أنها لم تكن ربيبتي في حجري[١] ما حلت لي، إنها لابنة أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبة، فلا تعرضن عليَّ بناتكن ولا أخواتكن**»[٢].

* **أعرابي يعرض ابنته:**

عن الفضل بن عباس قال: كنت رِدْفَ رسول الله ﷺ وأعرابي معه امرأة حسناء، فجعل الأعرابي يعرضها على رسول الله ﷺ رجاء أن يتزوجها، قال الفضل: فجعلت ألتفت إليها، وجعل رسول الله ﷺ يأخذ برأسي فيلويه[٣].

* **أم تعرض ابنتها:**

عن أنس رضي الله عنه أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ابنة لي كذا وكذا . . . فذكرت من حسنها وجمالها، فآثرتك بها، فقال: «**قد قبلتها**».

فلم تزل تمدحها حتى ذكرت أنها لم تصدع، ولم تشتكِ شيئًا قط، فقال: «**لا حاجة لي في ابنتك**»[٤].

تنبيه مهم:

ينبغي على من عُرض عليه الزواج أن يقدر الولي العارض حق قدره،

---

(١) الربيبة هي بنت الزوجة.
(٢) البخاري (٩/ ٤٣) رقم (٥١٠١)، ومسلم (٢/ ١٠٧٢) رقم (١٤٤٩).
(٣) رواه أبو يعلى، وقال ابن حجر في الفتح (٤/ ٦٨): إسناده قوي.
(٤) إسناده حسن، أخرجه أحمد (٣/ ١٥٥)، وأبو يعلى (٧/ ٢٣٢).

وينزله منزلته، ولا يسيء به الظن، بل يحمده على سلوكه طريق السلف في ذلك، فإذا لم يرغب في المعروضة عليه، فليتلطف في الاعتذار للولي العارض، لئلا يعطل المرأة عن غيره، ولا يفضح أمرها وأمر وليها، فيسير في الناس بسيرة سيئة: أن فلانًا عرض عليَّ ابنته فرفضت، أو أن فلانًا يريد أن يزوجني ابنته أو أخته!! وكأنه ارتكب جريمة، بل يتقي الله تعالى، وليفهم حقيقة هذه الشريعة ومحاسنها.

* * *



(٩)

موقف هاجر عليها السلام

موقف هاجر عليها السلام

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء إبراهيم ﷺ بأم إسماعيل وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحة[١] فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هناك ووضع عندهما جرابًا[٢] فيه تمر وسقاء[٣] فيه ماء، ثم قفى[٤] إبراهيم منطلقًا فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا وجعل لا يلتفت إليها. قالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذًا لا يضيعنا؛ ثم رجعت فانطلق إبراهيم ﷺ، حتى إذا كان عند الثنية[٥] حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات فرفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ حتى بلغ ﴿يَشْكُرُونَ﴾ وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد[٦] ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال: يتلبط[٧] - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا

---

(١) دوحة: شجرة عظيمة.
(٢) جراب: ما يحمل فيه المسافر زاده من الطعام، وهو أيضًا المِزْوَد.
(٣) سقاء: إناء يكون للبن والماء.
(٤) قفى: ولَّى ورجع.
(٥) الثنية: مكان بمكة.
(٦) نفد: أي انتهى.
(٧) التَلبط: الاضطراب والتقلب ظهرًا لبطن.

أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا؟ فلم تر أحدًا. فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها[١] ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدًا؟ فلم تر أحدًا، ففعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال النبي ﷺ: «**فلذلك سعى الناس بينهما**» فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا فقالت: صَهْ[٢] - تريد نفسها - ثم تسمعت فسمعت أيضًا فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث[٣] فأغث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه - أو قال بجناحه - حتى ظهر الماء، فجعلت تُحوِّضه[٤] وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف[٥] . وفي رواية بقدر ما تغرف.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال النبي ﷺ: «**رحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم** - أو قال: لو لم تغرف من الماء - **لكانت زمزم عينًا معينًا**»[٦] قال: فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة[٧] فإن هاهنا بيتًا لله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية[٨] تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرت

(١) درعها: قميصها.
(٢) صه: اسم فعل بمعنى اسكت، ومعناه: لما سمعت الصوت سَكَّتت نفسها لتحققه.
(٣) غواث: إغاثة ومعونة.
(٤) تُحَوِّضه: تجعل حوله حوضًا يمنع سيلانه إلى الأرض.
(٥) أخرجه البخاري (٦/ ٤٥٦ فتح) ح رقم (٣٣٦٤)، وأحمد في مسنده (١/ ٣٤٨) مختصرًا.
(٦) معينًا: الماء الظاهر الجاري الذي لا يتعذر أخذه.
(٧) الضيعة: الضياع والحاجة.
(٨) الرابية: الشيء المرتفع.

بهم رفقة من جُرْهم أو أهل بيت من جُرْهم مقبلين من طريق كَدَاء[١] ، فنزلوا في أسفل مكة؛ فرأوا طائرًا عائفًا فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء. فأرسلوا جَريًا[٢] أو جَريين فإذا هم بالماء. فرجعوا فأخبروهم؛ فأقبلوا وأم إسماعيل عند الماء. فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم: ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا: نعم. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «**فألفى ذلك أم إسماعيل، وهي تحب الأُنس**»؛ فنزلوا فأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم، حتى إذا كانوا بها أهل أبيات وشبَّ الغلام وتعلم العربية منهم وأَنْفَسَهم[٣] وأعجبهم حين شبَّ فلما أدرك زوجوه امرأة منهم. وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل؛ فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا[٤] - وفي رواية: يصيد لنا - ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بشَرٍّ، نحن في ضيق وشدة؛ وشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك اقرئي عليه السلام وقولي له يُغيِّر عتبة بابه.

فلما جاء إسماعيل كأنه آنس[٥] شيئًا فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم جاءنا شيخٌ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته، فسألني: كيف عيشنا؟ فأخبرته أنَّا في جهد وشدة. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول: غَيِّر عتبة بابك. قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أُفارقك! الحقي بأهلك، فطلقها وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم

---

(١) كداء: مكان بأعلى مكة.

(٢) جريًا: رسولاً.

(٣) أنفسهم: أي صار عندهم نفيسًا مرغوبًا فيه.

(٤) أخرجه البخاري (٦ ح ٣٣٦٤ فتح)، يبتغي: يطلب لنا الرزق ويسعى فيه.

(٥) آنس شيئًا: أي أبصر شيئًا، أراد: كأنه رأى أثر أبيه وبركة قدومه.

أتاهم بعد فلم يجده فدخل على امرأته فسأل عنه. قالت: خرج يبتغي لنا قال: كيف أنتم؛ وسألها عن عيشهم وهيئتهم. فقالت: نحن بخير وَسَعَة وأثنت على الله. فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء. قال النبي ﷺ: «**ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ، ولو كان لهم دعا لهم فيه**» قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه[1]..

وفي رواية: فجاء فقال: أين إسماعيل؟ فقالت امرأته: ذهب يصيد؛ فقالت امرأته: ألا تنزل فَتَطْعَم وتشرب؟ قال: وما طعامكم وشرابكم؟ قالت: طعامنا اللحم وشرابنا الماء. قال: اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم - قال: فقال أبو القاسم ﷺ: «**بركة دعوة إبراهيم**» قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومُريه يثبت عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنَّا بخير. قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وأنت العتبة أمرني أن أُمسكك، ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يَبْري نبلاً له تحت دوحة قريبًا من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد. قال: يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك؟ قال: وتعينني؟ قال: وأعينك. قال: فإن الله أمرني أن أبني بيتًا هاهنا وأشار إلى أكمة[2] مرتفعة على ما حولها، فعند ذلك رفع

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ح ٣٣٦٤ فتح).

(٢) أكمة: ما ارتفع من الأرض كالرابية.

القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[١] .

وفي رواية: إن إبراهيم خرج بإسماعيل وأم إسماعيل معهم شنة فيها ماء فجعلت أم إسماعيل تشرب من الشَّنَّة فَيَدرُّ لبنُها على صبيها حتى قدم مكة فوضعها تحت دوحة ثم رجع إبراهيم إلى أهله فاتَّبَعَته أم إسماعيل حتى لما بلغوا كداء نادته من ورائه: يا إبراهيم إلى من تتركنا؟ قال: إلى الله، قالت: رضيت بالله فرجعت وجعلت تشرب من الشَّنَّة ويَدُرُّ لبنُها على صبيها حتى لما فَنيَ الماء قالت: لو ذهبتُ فنظرتُ لعلِّي أُحسُّ أحدًا. قال: فذهبت فصعدت الصفا، فنظرت ونظرت هل تُحسُّ أحدًا فَلم تحس أحدًا، فلما بلغت الوادي وسعت وأتت المروة وفعلت ذلكَ أشواطًا ثم قالت: لو ذهبت فنظرت ما فعل الصبي، فذهبتْ فنظرتْ فإذا هو على حاله كأنه يَنْشَغُ للموت[٢] فلم تُقرَّها نفسها فقالت: لو ذهبتُ فنظرتُ لعلِّي أحس أحدًا، فذهبت فصعدت الصفا فنظرتْ ونظرتْ فلم تحس أحدًا حتى أتمت سبعًا ثم قالت: لو ذهبت فنظرت ما فعل، فإذا هي بصوت، فقالت: أغثْ إن كان عندك خير، فإذا جبريل ﷺ فقال بعقبيه هكذا، وغمز بعقبه على الأرض فانبثق الماء[٣] فَدَهشَتْ أم إسماعيل[٤] فجعلت تحفنُ ـ وذكر الحديث بطوله؛ رواه بهذه الروايات كلها.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٤٥٨ فتح) ح رقم (٣٣٦٥).
(٢) نشغ للموت: أي شهق للموت.
(٣) انبثق الماء: جرى الماء.
(٤) أخرجه البخاري (كما سبق).

الدروس والعبر

أولاً: التوكل .. معناه وأهميته ومنزلته في الدين:

معنى التوكل:

قال في لسان العرب: (وكَل)

في أسماء الله تعالى الوكيل: هو المقيم الكفيل بأرزاق العباد، وحقيقته أنه يستقل بأمر الموكول إليه، وفي التنزيل العزيز: ﴿أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ٢]، قال الفراء: يقال: ربًا، ويقال: كافيًا.

وقيل: الوكيل الحافظ.

وقال أبو إسحاق: الوكيل في صفة الله تعالى الذي توكل بالقيام بجميع ما خلق.

وقال بعضهم: الوكيل الكفيل[١].

أقوال السلف في معاني التوكل:

قال الحسن: توكلُ العبد على ربه أن يعلم أن الله هو ثقته.

وسئل عبد الله القرشي عن التوكل فقال: التعلق بالله تعالى في كل حال.

وقال ابن رجب رحمه الله: «حقيقة التوكل هو صدق اعتماد القلب على

---

(١) لسان العرب (٦/ ٤٩٠٩).

الله عز وجل في استجلاب المنافع ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه»[١] .

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]: «أي لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك، لا شريك له، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب»[٢] .

أهميته ومنزلته في الدين:

* هو من أعظم منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فلا يحصل كمال التوحيد بأنواعه الثلاثة إلا بكمال التوكل على الله كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

قال ابن القيم رحمه الله: «فجعل التوكل على الله شرطًا في الإيمان، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه، وفي الآية الأخرى قال موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤] فجعل دليل صحة الإسلام التوكل، وكلما قوي توكل العبد كان إيمانه أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفًا كان دليلاً على ضعف الإيمان ولابد.

والله تبارك وتعالى يجمع بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والهداية.

---

(١) جامع العلوم والحكم.
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٨٥).

فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل»[1] .

* كذلك التوكل أعظم الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٣].

* كان السلف يعدون التوكل أصلاً لجميع الأعمال الصالحة، كما قال سعيد بن جبير: «التوكل جماع الإيمان».

وقال وهب بن منبه: «التوكل الغاية القصوى».

ثانيًا: فضل التوكل على الله وجزاء المتوكلين:

تكاثرت الآيات والأحاديث النبوية في بيان فضل التوكل على الله عز وجل وجزاء المتوكلين، منها:

* قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فدلت الآية على أن أهل التوكل هم أهل محبة الله عز وجل.

* وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢]، فدلت الآية على أن أهل التوكل هم أهل الإيمان والتقوى.

* وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٩٩]، فدلت الآية على أن المتوكلين ليس للشيطان عليهم سبيل.

* وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٣]، فهذا

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (٣٢٧ـ٣٣٠).

وعد من الله عز وجل أنه سيكون للمتوكلين عليه كافيهم وحسبهم .

وأما الأحاديث فمنها :

* قوله ﷺ : «مَنْ قال - يعني إذا خرج من بيته - : **بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له : هُديت وكفيت ووُقيت وتنحى عنه الشيطان**» ، وفي زيادة لأبي داود : «**فيقول الشيطان لشيطان آخر : كيف لك برجل قد هُدِيَ وكُفِيَ ووُقِيَ**»[1] .

* وقوله ﷺ : «**يا فلان إذا أويت إلى فراشك فقل : اللهم أسلمت نفسي إليك ، ووجهت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ، ونبيك الذي أرسلت ، فإنك إن مت مت على الفطرة ، وإن أصبحت أصبت خيرًا**»[2] .

ولا يخفى على أحد أن الاستسلام لله والتوجه والتفويض والالتجاء إليه سبحانه وتعالى وكذلك الرغبة والرهبة كلها داخلة في معنى التوكل .

قال بعض السلف : متى رضيت بالله وكيلاً وجدت إلى كل خير سبيلاً .

* وقوله ﷺ : «**يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير**»[3] .

والمراد بهم المتوكلون كما حكى النووي في هذا الحديث .

---

(١) رواه أبو داود والترمذي والنسائي ، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي برقم ٢٧٢٤) .

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه مسلم .

* وقوله ﷺ: «**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا**»[1]، ففي هذا الحديث دلالة واضحة على أن التوكل على الله تعالى مجلبة للرزق.

ثالثًا: أقسام التوكل:

وهو قسمان:

١ - التوكل الجائز:

وهو توكيل الإنسان غيره في فعل ما يقدر عليه، وهذا لا حرج فيه، بشرط أن لا يتعلق قلبه بمن وكله، بل يتعلق قلبه بالله وحده في كل الأمور.

٢ - التوكل غير الجائز:

وهو نوعان:

أحدهما: شرك، وهو التوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، كمن يتوكل على أصحاب القبور من الأموات.

والثاني: شرك أصغر، وهو التوكل على غير الله في فعل ما يقدر عليه، ولكن معتمدًا بقلبه على المخلوق في حصول حاجته لا على الخالق.

رابعًا: سمات المتوكلات على الله[2]:

التوكل على الله ليس لفظًا ينطق به المسلم أو المسلمة، وإنما هو حقيقة

---

(١) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه برقم ٣٣٥٩).

(٢) انظر: «التوكل حقيقته ومنزلته في الدين»، خالد بن محمد عبد المنعم آل العبد.

استقرت في القلب بتمام الاعتماد على الله تعالى، والانطراح بين يديه عز وجل، لذا كان للمسلمة التي تتوكل على الله حق توكله سمات بارزة وعلامات واضحة تدلل على ذلك، فمنها :

*** استشعار الفقر إلى الله في كل حال :**

فمصاحبة هذا الشعور للمؤمنة له أثر كبير في توجهها إلى ربها واعتمادها عليه دائمًا، فهي تشعر أنها في حاجة ملحة إلى ربها، ولا تستطيع أن تتقدم أو تتأخر إلا بإذنه تعالى وفضله ورعايته سبحانه، وهي في ذلك تستمد هذا الشعور من إيمانها بقدرته وغناه عز وجل، ومن النظر في الكتاب العزيز والسنة المطهرة.

فهي تقرأ: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** ﴾ [فاطر: ١٥]، وتقرأ: ﴿ **قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ** ﴾ [الأنبياء: ٤٢]، وتقرأ: ﴿ **وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ** ﴾ [الأعراف: ٤٣].

*** الذكر والدعاء واللجوء إلى الله في الشدة والرخاء والاستعاذة بجنابه :**

فهو سبيل من سبل تحقيق التوكل وإتمامه، وهو فرع من استشعار الفقر إلى الله، كما أنه سمة من سمات المتوكلين، فأنقى الناس لله وأكملهم توكلاً هم الأنبياء ثم الصالحون، وإذا نظرنا في أحوالهم لوجدناهم أكثر الخلق ذكراً ودعاءً ولجوءًا إلى بارئهم وأدومهم استعاذة بجنابه تبارك وتعالى.

فمحمد ﷺ كان يحفظ له في المجلس الواحد أكثر من سبعين مرة يستغفر فيها ربه.

ونوح عليه السلام يستجير بربه ويستعيذ بمولاه ويستنصره داعيًا: ﴿ أَنِّي

مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، وإبراهيم عليه السلام يقول في ثقة ويقين وتوكل مع توجه إلى الله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٩٩ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ٩٩، ١٠٠].

* الصبر والاحتساب عند الصدمات والمصائب، والرضا بقدر الله ومحبة هذا القضاء.

فلاشك أن هذه الأمور تمثل مقياسًا يقاس به توكل العبد على ربه، إذ إنه لو لم يكن صابرًا محتسبًا راضيًا بقضاء الله وقدره، لما كان متوكلاً.

ولهذا ذُكر عن بعض الحكماء أنه قال: التوكل على ثلاث درجات: أولها: ترك الشكاية، والثانية: الرضا، والثالثة: المحبة، فالأولى للزاهدين، والثانية للصادقين، والثالثة للمرسلين[1].

*** تحقيق التوحيد والاهتمام بالعبادات القلبية:**

كالخوف والرجاء والرغبة والخشية والإنابة، والصبر والرضا والمحبة، وغيرها من العبادات القلبية التي كلما قويت قوي معها توحيد الله عز وجل، وقوي بالتالي توكل صاحبها على ربه جل وعلا.

*** الاستعانة بالله مع الأخذ بالأسباب وترك العجز:**

فهذا ما وجه إليه النبي ﷺ بقوله: «**استعن بالله ولا تعجز**»[2].

ومعلوم أن التقصير في الأخذ بالأسباب إنما هو قدح في توكل العبد على ربه.

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي (٢/ ٥١٨) تحقيق/ طارق أحمد محمد.

(٢) رواه مسلم.

وكان النبي ﷺ يعلم ويعود أصحابه الاستعانة بالله في كل شأنهم وسائر أحوالهم، ولعل أقوى ما يعبر عن ذلك حديث جابر في الاستخارة التي هي من أعظم مظاهر التفويض إلى الله والتوكل عليه، والاستعانة به.

يقول جابر: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: «**إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب. اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر** - ويسمي حاجته - **خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقدره لي، ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر** - ويسمي حاجته - شر **لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاصرفه عني، واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به**»[1].

ومن مظاهر استعانته ﷺ ما كان يقوله عند الكرب:

«**اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله**»[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يدعو بهذه الكلمات: «اللهم أعني **ولا تعن عليّ، وانصرني ولا تنصر علي، وامكر لي ولا تمكر علي،** واهدني ويسر الهدى لي، **وانصرني على من بغى علي، رب اجعلني لك شكارًا، لك ذكارًا، لك رهابًا، لك مطواعًا، لك مخبتًا، إليك أوّاهًا منيبًا، رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت**

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه أبو داود، وحسنه الألباني - صحيح سنن أبي داود (٤٢٤٦).

حجتي، واهد قلبي وسدد لساني واسلل سخيمة صدري»[١] .

* **النظر في أحوال المتوكلين وقراءة سيرهم، ومصاحبة أهل التوكل:**

فمما لاشك فيه أن النظر في سير هؤلاء ومصاحبتهم حياة للقلوب، ودافع للاقتداء والتأثر بهم . .

خامساً: إبراهيم وهاجر عليهما السلام المثل والقدوة في التوكل:

* يظهر لنا في هذه القصة أعلى درجات التوكل والثقة بالله وقوة الاعتماد عليه سبحانه وتعالى، وذلك حين ترك إبراهيم عليه السلام فلذة كبده، ووحيده الذي رزق به بعد دعاء وتوجه لله، في مكان لا حياة فيه، مكان قفر، لا زرع فيه ولا ضرع، ولا جليس ولا أنيس، وكل ذلك تنفيذاً لأمر الله، ومسارعة إلى طاعته.

وهكذا كان كل الأنبياء والمرسلين، فهذا نوح عليه السلام يخبر الله عنه: ﴿ **إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ** ﴾ [يونس: ٧١]، فلما تسلح عليه السلام بسلاح التوكل على الله ماذا كانت النتيجة؟ ﴿ **فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ** ﴾ [يونس: ٧٣].

وهذا نبي الله هود عليه السلام حين قال له قومه: ﴿ **إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ** ﴾ [هود: ٥٤، ٥٥]، فما كان سلاحه عليه السلام ﴿ **إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم** ﴾ [هود: ٥٦]، فماذا كانت النتيجة؟

---

(١) صحيح، صحيح سنن الترمذي (٢٨١٦).

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [هود: ٥٨].

* كذلك من ثمار التوكل على الله عز وجل حفظ الله تعالى لأوليائه وعدم التخلي عنهم، ألا ترى كيف أخرج الماء لهاجر؟ وأتى بأناس يسكنون معها، ويؤنسون وحشتها، ويعلمون ابنها العربية الفصحى.

* ومن فقه التوكل أن السعي على الرزق والمعاش لا ينافي التوكل.

فإن هاجر عليها السلام لما فَنِيَ منها الزاد والماء قامت إلى الصفا والمروة، تسعى بينهما تحاول أن تجد أحداً يسعفها، ولم يخدش ذلك توكلها على الله تعالى، بل جعل الله تعالى مكان سعيها شعيرة من شعائر الحج وهو السعي بين الصفا والمروة.

سادسًا: أهمية اختيار الزوجة الصالحة:

إذا سئل الإنسان عن حاله فينبغي له ألا يظهر الشكوى والضيق والسخط إن كان في شدة، بل عليه أن يحمد الله تعالى ويرضى ويقنع بما قسمه الله تعالى له من رزق، بل ويظهر رضاه بحاله إذا سئل عنه.

فهذه امرأة إسماعيل الأولى حين شكت الضيق والشدة، أمره إبراهيم عليه السلام بمفارقتها، أما امرأته الثانية حين أثنت على الله وأظهرت رضاها بحالها، أمره بإمساكها.

إن الزوجة التي تطيل الشكوى، وتكثر التبرم لا يمكنها أبدًا أن تكون عونًا لزوجها على المهمات الكبار، لاسيما إن كان من أهل العلم والدعوة. أما الزوجة الراضية القانعة فهي خير معين بعد الله تعالى لزوجها في دروب الحياة المختلفة.

لذا فإنه يجدر بكل رجل أن يدقق في اختيار شريكة حياته، حتى لا يقع

فريسة لامرأة غير ديِّنة، وبالتالي يرى فيها من السلوكيات ما لا يرضاه.

يقول الأستاذ/ محمد بن إبراهيم الحمد:

[فمن الزوجات من هي كثيرة التسخط، قليلة الحمد والشكر، فاقدة لخلق القناعة، غير راضية بما آتاها الله من خير.

فإذا سئلت عن حالها مع زوجها أبدت السخط، وأظهرت الأسى واللوعة، وبدأت بعقد المقارنات بين حالها وحال غيرها من الزوجات اللائي يحسن إليهن أزواجهن.

وإذا قدم لها زوجها مالاً سارعت إلى إظهار السخط، وندب الحظ، لأنها تراه قليلاً مقارنة بما يقدم لنظيراتها.

وإذا جاءها بهدية احتقرت الهدية، وقابلتها بالكآبة، فتدخل على نفسها وعلى زوجها الهم والغم بدل الفرح والسرور؛ بحجة أن فلانة من الناس يأتيها زوجها بهدايا أنفس مما جاء به زوجها.

وإذا أتى بمتاع أو أثاث يتمنى كثير من الناس أن يكون لهم مثله - قابلته بفظاظة وشراسة منكرة، وبدأت تظهر ما فيه من العيوب.

وبعضهن يحسن إليها الزوج غاية الإحسان، فإذا حصلت منه زلة، أو هفوة، أو غضبت عليه غضبة نسيت كل ما قدم لها من إحسان، وتنكرت لما سلف له من جميل.

وهكذا تعيش في نكد وضيق، ولو رزقت حظًا من القناعة لأشرقت عليها شموس السعادة.

ومثل هذه المرأة يوشك أن تسلب منها النعم، فتقرع بعد ذلك سن الندم،

وتعض أناملها، وتقلب كفيها على ما ذهب من نعمها.

إن السعادة الحقة إنما هي بالرضا والقناعة، وإن كثرة الأموال والتمتع بالأمور المحسوسة الظاهرة لا يدل على السعادة؛ فماذا ينفع الزوجة أن تتلقى من زوجها الحلي والنفائس والأموال الطائلة إذا هي لم تجد المحبة، والحنان، والرحمة، والمعاملة الحسنة؟

وماذا ستجني من جراء تسخطها إلا إسخاط ربها، وخراب بيتها، وتكدير عيشة زوجها؟[١].

فواجب على المرأة العاقلة أن تتجنب التسخط، وجدير بها أن تكون كثيرة الشكر؛ فإذا سئلت عن بيتها وزوجها وحالها أثنت على ربها، وتذكرت نعمه، ورضيت قسمته؛ فالقناعة كنز الغني، والشكر قيد النعم الموجودة، وصيد النعم المفقودة، فإذا لزم الإنسان الشكر درت نعمه وقَرَّت؛ فمتى لم تر حالك في مزيد فاستقبل الشكر.

كيف وقد قال ربنا عز وجل: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

بل يحسن بالزوجة أن تشكر ربها إذا نزل بها ما تكرهه؛ شكراً لله على ما قدره، وكظمًا للغيظ، وستراً للشكوى، ورعاية للأدب[٢].

ثم إن الشكوى للناس لا تجدي نفعًا، ولا تطفئ لوعة - في الغالب -.

ولهذا رأى بعض السلف رجلاً يشكو إلى رجل فاقته وضرورته فقال:

---

(١) انظر: إصلاح المجتمع، ص(٣٠٨)، ونظرات في الأسرة المسلمة، ص(١١١).
(٢) انظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ١٩٩، ٢٤٣).

«يا هذا، والله ما زدت على أن شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك»(١) .

وإذا اعترتك بلية فاصبر لها　　　صبر الكريم فإنه بك أعلم
وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما　　　تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم(٢)

وإن كان هناك من حاجة لبَثِّ الشكوى لمن يعنيهم الأمر ؛ طلبًا للنصيحة، أو نحو ذلك ـ فلا بأس، وإلا فلَماذا نثير انتباه الذين لا يعنيهم أمرنا، ولا ننتظر منهم أي فائدة لنا، فنفضح أنفسنا، ونهتك أستارنا، ونُبين عن ضعفنا وخورنا في سبيل الحصول على شفقة أو عطف ليس له من نتيجة سوى ازدياد الحسرة وتفاقم المصيبة(٣) .

ثم إن من حق الزوج على زوجته أن تعترف له بنعمته، وأن تشكر له ما يأتي به من طعام، ولباس، وهدية ونحو ذلك مما هو في حدود قدرته، وأن تدعو له بالعوض والإخلاف، وأن تظهر الفرح بما يأتي به ؛ فإن ذلك يفرحه، ويبعثه إلى المزيد من الإحسان .

كما يحسن بالزوجة أن تستحضر أن الزوج سبب الولد، والولد من أجلِّ النعم، ولو لم يكن من فضل الزوج إلا هذه النعمة لكفاه ؛ «فمهما تكن الزوجة شقية بزوجها فإن زوجها قد أولدها سعادتها، وهذه وحدها مزية ونعمة»(٤) .

أما كفر النعمة، وجحود الفضل، ونسيان أفضال الزوج ـ فليس من صفات الزوجة العاقلة المؤمنة ؛ فهي بعيدة عن ما لا يرضي الله عز وجل

---

(٢) الفوائد لابن القيم، ص(١٣١).
(٣) مدارج السالكين (٢/ ١٦٠).
(٣) انظر : طريق النجاح، د/ بول جاغو، تلخيص بهيج شعبان، ص(٨٧).
(٤) وحي القلم للرافعي (١/ ٢٩٢).

فجحودُ فضل الزوج سماه الشارع كفرًا، ورتب عليه الوعيد الشديد، وجعله سببًا لدخول النار.

قال عليه الصلاة والسلام: «**رأيت النار ورأيت أكثر أهلها النساء**».

قالوا: لِمَ يا رسول الله؟

قال: «**يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان؛ لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئًا قالت: ما رأيت منك خيرًا قط**»[1].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا ينظر الله إلى امرأة لا تشكر لزوجها وهي لا تستغني عنه**»[2].

وعن أسماء ابنة يزيد الأنصارية قالت: «مرَّ بيَ النبي ﷺ وأنا وجوار أتراب لي فسلم علينا، وقال: «**إياكنَّ وكفر المُنْعمين**»، وكنت من أجرئهن على مسألته. فقلت: يا رسول الله، وما كفر المنعمين؟

قال: «**لعل إحداكن تطول أيْمَتُها من أبويها، ثم يرزقها الله زوجًا، ويرزقها ولدًا، فتغضب الغضبة، فتكفر، فتقول: ما رأيت منك خيرًا قط**»[3].

ومن الزوجات من تخدم زوجها، وتقوم على رعايته، ورعاية والديه.

ولكنها أنَّانة منَّانة، فلا تكاد تمضي مدة إلا وتذكر زوجها بأفضالها، وأياديها السالفة عليه؛ فتؤذيه بالمن، والأذى، والإدلال.

---

(١) رواه البخاري (٢٩)، ومسلم (٩٠٧).

(٢) رواه النسائي في الكبرى (٩١٣٥، ٩١٣٦)، والبيهقي (٧/ ٢٩٤)، والحاكم (٣/ ٧٨)، وقال: صحيح الإسناد، وقال الهيثمي (٢/ ٣٠٩): رواه البزار بإسنادين والطبراني، وأحد إسنادي البزار رجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٨٩).

(٣) رواه أحمد (٦/ ٤٥٧)، والبخاري في الأدب المفرد (١٤٨)، والترمذي (٢٦٩٧) وحسنه، والطبراني في الكبير (٢٤/ ١٧٧)، والحميدي في مسنده (١/ ١٧٩)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٨٠٠).

والمنة خلق ساقط يجدر بالزوجة أن تتجافى عنه، ولئن كانت المنة قبيحة من كل أحد فلهي أقبح وأقبح إذا صدرت من الزوجة تجاه زوجها؛ فالمنة تهدم الصنيعة، وتصدع قناة العزة.

ولقد نهى الله عز وجل عن المنة بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ**﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم**».

قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرات، قال أبو ذر: خابوا وخسروا من هم يا رسول الله؟

قال: «**المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب**»[١].

ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «لا يتم المعروف إلا بثلاث: بتعجيله، وتصغيره، وستره؛ فإذا عجَّله هنَّأه، وإذا صغَّره عظَّمه، وإذا ستره تمَّمه»[٢].

وقال رجل لبنيه: «إذا اتخذتم عند رجل يداً فانسوها»[٣].

وقال الشاعر:

أفسدتَ بالمنِّ ما أسديتَ من حسن ... ليس الكريم إذا أسدى بمنان[٤]

وقال الشافعي رحمه الله:

منن الرجال على القلو ... ب أشد من وقع الأسنة[٥]

---

(١) رواه مسلم (١٠٦).

(٢، ٣، ٤) عيون الأخبار (٤/ ١٧٧).

(٥) ديوان الشافعي، تحقيق د/ محمد عبد المنعم خفاجي، ص(١٣٥).

وقال البارودي رحمه الله:

تحملتُ خوف المن كل رزيئة   وحمل رزايا الدهر أحلى من المن[١]

ومع أن المنة وتعداد الأيادي ليس من صفات الكرام إلا أنه يسوغ في حال المعاتبة والاعتذار.

قال ابن حزم رحمه الله: «حالان يحسن فيهما ما يقبح في غيرهما، وهما المعاتبة والاعتذار؛ فإنه يحسن فيهما تعديد الأيادي، وذكر الإحسان، وذلك غاية القبح في ماعدا هاتين الحالتين».

وعلى هذا يسوغ للزوجة إذا احتاجت إلى عتاب زوجها أو الاعتذار إليه أن تذكره بشيء من أياديها، لا على سبيل المنة والإدلال، وإنما لتذكره بما له عندها من المنزلة، والتقدير][٢].

سابعًا: طاعة الله تعالى أولى عند المسلمة من كل شيء:

إن المسلمة إذا قدمت طاعة الله تعالى على حظ نفسها وهواها، جعل الله البركة في أفعالها وما تلمسه بعض أعضائها.

فإن إبراهيم عليه السلام لما ترك ابنه في مكان قفر امتثالاً لأمر الله تعالى وثقة به سبحانه وتعالى وتوكلاً عليه، جعل الله البيتَ الذي بناه مباركًا، فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]، وجعل الحجر الذي قام عليه وهو يبني البيت مكانًا يصلى عنده، فقال تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

---

(١) ديوان البارودي ص(٥٤٩).

(٢) من أخطاء الزوجات. ص(١٢ - ١٨).

كما أن استجابة إبراهيم عليه السلام لأمر الله تعالى في إسكان ابنه وزوجته في ذلك المكان على الرغم من صعوبة الأمر عليه لدليل على تقديم أمر الله تعالى على ما يكره العبد، مع أنه عليه السلام لم يعلم بأن ذلك سيعقبه خير ولكنه تمام التوكل على الله تعالى والاستجابة المطلقة لأمره عز وجل.

وهكذا يجب أن تكون المسلمة . .

طاعة الله تعالى عندها لا يسبقها شيء، وإيثار محاب الله تعالى على محاب النفس علامة من علامات محبتها لله تعالى، وذلك من آثار الإيمان القوي بالله تعالى.

إن من علامات حب الله تعالى، أن تحب المسلمة شريعة الله تعالى، فتلزم نفسها بها، وتدعو الناس إليها، وتجاهد في سبيل إعلاء شأنها، ولا تخاف في ذلك لومة لائم.

إن إيثار رضى الله تعالى على رضى غيره، وتقديم طاعته تعالى على طاعة غيره ولو أغضبت الخلق، يجب أن يكون منتهى آمال كل مؤمنة، تسعى لتحقيقه، وتبذل الغالي والرخيص للوصول إليه.

وهذا هو طريق السعادة لكل مسلمة ألا وهو طاعة رب العباد.

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾.

[الأنفال: ٢٤]

فالحياة النافعة (إنما تحصل بالاستجابة لله ورسوله، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أذل

الحيوانات، فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهراً وباطنًا، فهؤلاء هم الأحياء، وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان، ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول، فإن كل ما دعا إليه ففيه الحياة، فمن فاته منه فاته جزء من الحياة، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول)[1] .

وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

قال القاسمي رحمه الله: «هذا وعد منه تعالى لمن عمل صالحًا وهو العمل التابع لكتاب الله ولسنة رسوله ﷺ من ذكر أو أنثى، وهو ثابت على إيمانه إلى الموت، بأن يحييه الله تعالى حياةً طيبة»[2] .

وقال الأستاذ سليم الهلالي:

(إن للمؤمنين أهل محبة الله من النعم والسرور والفرح بالله ما لا يجده إلا من ذاق طعم الإيمان، من ذاق عرف، ومن عرف اغترف من نهر المحبة الخالصة الذي فجره الله في قلوب أوليائه، فسلكه ينابيع في جوارحهم، فاتخذوا صالح العمل وطيب القول سُفُنًا تمخر بهم إلى حلاوة الإيمان)[3] .

وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

فضمن الله تعالى في هذه الآية لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا

---

(١) الفوائد لابن القيم رحمه الله، ص(٦٧).

(٢) محاسن التأويل (١٠/ ١٥٦).

(٣) حلاوة الإيمان في ضوء القرآن الكريم والسنة الصحيحة، ص(٦).

بالحياة الطيبة وبالحسنى يوم القيامة، ففازوا بنعيم الدنيا والآخرة، وما هذا الجزاء لهم إلا لأن طاعة الله تعالى عندهم أغلى من كل شيء وأولى من كل شيء.

وتحت عنوان «همها مرضاة الله» يقول الدكتور محمد علي الهاشمي:

[والمسلمة الصادقة تتطلع دومًا في أعمالها إلى مرضاة الله عز وجل، وتزنها بهذا الميزان الدقيق، فما رضي الله عنه فعلته، وما لم يرض عنه أعرضت عنه واجتوته[1].

وحينما يقع التعارض بين ما يرضي الله عز وجل، وما يرضي الناس، فإنها تختار مرضاة الله بلا تردد ولا تلعثم ولا جدال، ولو أسخط الناس.

ذلك أنها تدرك بوعيها الإسلامي العميق وحسِّها المرهف أن مرضاة الناس غاية لا تدرك، وقد تودي بمبتغيها إلى سخط الله، مستهدية في هذا كله بهدي الرسول الحكيم القائل:

«من التمس رضاء الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن التمس رضاء الناس بسخط الله، وكله الله إلى الناس»[2].

بهذا الميزان الدقيق، وهذا المقياس المحكم، تتضح أمام المرأة المسلمة معالم الطريق القصد القويم، فتعرف ما تأخذ، وتعرف ما تدع، ومقياسها الدائم الذي لا يخطئ مرضاة الله عز وجل، وبذلك تختفي من حياة المرأة المسلمة المتناقضات المضحكة المخجلة التي تقع فيها كثيرات من الشاردات عن هدي الله.

---

(١) أي كرهته.

(٢) رواه الترمذي (٤/ ٣٤) في آخر أبواب الزهد، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (١٩٦٧)، والصحيحة (٢٣١١).

إن اللواتي نراهن في مصلاهن خاشعات، ولكنهن يحتكمن في كثير من مواقفهن لأهواء نفوسهن، فَيَجُرْن عن الحق، وتنطلق ألسنتهن في المجالس بالغيبة والنميمة وتجريح الناس، ويكدن لمن لا يحببن كيدًا، ويتأولن عليهن تأولاً، للإيقاع بهن وإيذائهن، أولئك يعانين خللاً في دينهن، وضعفًا في عقيدتهن، وقصوراً في تصورهن لحقيقة هذا الدين الكامل المتكامل الذي أنزله الله لصياغة الإنسان صياغة كاملة في شتى جوانب شخصيته، بحيث تبدو تصرفاته الخاصة والعامة كلها مرضية لله عز وجل، مطابقة هديه، ومحققة السلوك القويم الذي رسمه الإسلام للإنسان في هذه الحياة.

أمّا اللواتي يطعن الله في أمر، ويعصينه في أمر، ويزن تصرفاتهن أو بعضها بميزان أهواء نفوسهن، فهؤلاء يبدون أنصاف مسلمات، وهذه هي الازدواجية التي ابتليت بها المرأة المتخلفة عن هدي دينها وعقيدتها، وهي من أخطر الأمراض السلوكية والخلقية التي ابتلي بها الإنسان في هذا العصر)[١] .

ثامنًا: أهمية دور الأب في تربية الأولاد:

وهذا يظهر من رعاية إبراهيم عليه السلام لولده إسماعيل، ونصحه بما يراه خيراً له.

فقد كان إبراهيم يرحل لابنه مرة وراء مرة، ويطلع على أحواله وأخباره، ويوجهه لما فيه صلاحه.

لهذا (جاءت السنة المطهرة بالتوجيهات للآباء بأن يلتفتوا إلى أبنائهم، وأن يحسنوا تعليمهم وتأديبهم، وجاء التحذير لمن فرط في هذه المهمة

(١) شخصية المرأة المسلمة، ص(٦٤، ٦٥).

العظيمة، وأهمل تربيته، فقد قيل: «أول من يتعلق بالرجل زوجته وأولاده فيوقفونه بين يدي الله عز وجل فيقولون: يا ربنا خذ لنا حقنا من هذا الرجل، فإنه لم يعلمنا أمور ديننا».

لهذا كان واجبًا على الأب أن يكون عالمًا بأمور الدين محيطًا بالحلال والحرام، وأساليب التربية، ومبادئ الأخلاق وقواعد الشريعة، فإن لم يكن عالمًا بها وجب عليه تعلم ما لا يعذر بجهله من أمور الدين، وذلك ليعبد الله على علم ويقين، وأن يعلم أولاده أمور دينهم، وما أوجبه الله عليه من الأوامر والنواهي، والحلال والحرام، فإن لم يفعل ذلك وأهمل، فإن تربيته لأبنائه سوف تكون منحرفة، وبالتالي ينحرف الأطفال، ويكونون عبئًا على المجتمع إذا كبروا)[١] .

إن عدم وجود الأب في الأسرة، أو وجوده مع عدم قيامه بواجباته التربوية كما يريدها الإسلام تجاه أولاده، يعيق نمو الطفل الخلقي والفكري والجسمي لذا كان لابد أن يعي الأب أهمية دوره داخل الأسرة، وبصفة خاصة دوره في تربية وتوجيه الأطفال إلى الطريق الحق، وإبعادهم عن طريق الضلال.

إنه يجب على الأب أن يعرف دوره الرائد داخل الأسرة في تخريج الأجيال الصالحة المؤمنة المجاهدة، وأن يدرك المفاهيم الصحيحة لتحقيق ذلك ويطبقها عمليًا وذلك استجابة لله عز وجل وطاعة لرسوله ﷺ، فهو الراعي الأول داخل مملكة الأسرة المسلمة.

---

(١) مسئولية الأب المسلم، عدنان حسن صالح با حارث، ص(٨٢) بتصرف.

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله:

«إن الله سبحانه يسأل الوالد عن ولده يوم القيامة قبل أن يسأل الولد عن والده، فإنه كما أن للأب على ابنه حقًا فللابن على أبيه حق، فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه وتركه سدى، فقد أساء غاية الإساءة، وأكثر الأولاد إنما جاء فسادهم من قِبل الآباء، وإهمالهم لهم وترك تعليمهم فرائض الدين وسنته فأضاعوهم صغاراً فلم ينتفعوا بأنفسهم، ولم ينفعوا آباءهم كباراً.

كما عاتب بعضهم ولده على العقوق فقال: يا أبت لقد عققتني صغيراً فعققتك كبيراً وأضعتني وليدًا فأضعتك شيخًا»[١].

(هل رأيت أخي المربي الحبيب ابنًا يسب أباه، وآخر يفرح لغيابه، وثالث يتمنى أن لو يموت فيستريح منه ويرثه، هل وجدت من يحجر على أبيه ومن يسرقه؟ هل رأيت من يطرد أمه ومن يسخر منها أمام زملائه ومن يضحكهم عليها؟ هل رأيت من طعن في السن وجاوز الأربعين والخمسين ولم يصل لله ركعة ولم يدخل بيت الله يومًا إلا ليقضي حاجته أو ليشرب؟!!

إن هذه الأمثلة وغيرها الكثير لأبناء لم يجدوا من يربيهم ويرشدهم إلى الصواب لا إلى الخطأ. فهل تريدون أيها المربون أن يكون أولادكم مثل هؤلاء؟!)[٢].

وانطلاقًا من قوله ﷺ: «**إن الله سائل كل راع عما استرعاه، أحفظ أم**

---

(١) منهج التربية النبوية للطفل، محمد نور سويد.

(٢) فن تربية الأولاد، محمد سعيد مرسي، ص(١٠).

ضيع ؟ حتى **يُسأل الرجل عن أهل بيته**»[(١)] ، لابد أن يعي كل أب مسلم عاقل دوره البالغ الخطورة في تربية أولاده وتوجيههم الوجهة الصحيحة نحو طريق الهدى والرشاد، كيف لا وهو سيؤجر على كل عمل صالح يعلمه أولاده ويدلهم عليه كما جاء في حديث مسلم أن رسول الله ﷺ قال : «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا**» .

تاسعًا: ثقة المسلمة بالله وتمام الاستسلام له عز وجل:

وهذا واضح من قول هاجر عليها السلام لما تركها إبراهيم عند البيت قالت : «إذن لا يضيعنا» ، وفي رواية : «رضيت بالله» عندما قالت له : «آلله أمرك بهذا؟» ، وقال لها : «نعم» .

فلولا ثقة هاجر بربها عز وجل ما قبلت أن يتركها إبراهيم عليه السلام في هذا المكان القفر هي وولدها الصغير ، وهذا ما يجب أن تتعلمه وتعيه المسلمة من هذه القصة .

إن ضعف إيمان المسلمة بربها يحملها في أحيان كثيرة على الضجر والسخط وعدم التحمل ، لأنها لم تجعل في مقابل الابتلاء الله تعالى .

قال الشيخ عبد الله محمد الصديق الحسني رحمه الله : «العبرة من هذه القصة : أن الله تعالى يمتحن خواص عباده المقربين ، امتحانات شديدة قاسية ، ليكثر أجرهم عنده ، ويزداد قربهم منه ، ويربيهم على خشونة العيش ، والبعد

---

(١) رواه النسائي وابن حبان عن أنس رضي الله عنه ، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٧٤) .

عن الترف والتنعم، لتنمو رجولتهم وتقوى نفوسهم.

وليعلموا أن نعيم الدنيا زائل فلا يلتفتون إليه، وأن زخرفها حائل فينصرفون عنه، ثم جعلهم بما امتحنهم به ورباهم عليه قدوة للمؤمنين، ومنارًا للسالكين.

فيا أيها المؤمن لا تضعف إن أصابتك شدة، ولا تضجر إن مستك مصيبة، بل اعتصم بإيمانك واثبت على يقينك، واتل قول الله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]، واجعل قدوتك إبراهيم الذي امتحن في نفسه، وفي ولده، فزاد إيمانه وعظم يقينه.

ويا أيها السالك إلى الله، الطالب لرضاه، شمر عن ساق الجد واترك الراحة والتنعم جانبًا، وقدم نفسك قربانًا لله تعالى كما قدمها إسماعيل قبلك.

اذبح شهواتها بمدية عزمك، وأجهز على طمعها وتطلعها بسيف قناعتك، ثم اذهب إلى الله تعالى بصدق وإخلاص، وقل: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩]، يكن معك بالتأييد والتمكين ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]»[1].

وهذه الثقة بالله وتمام التوكل على الله تعالى ظهر أيضًا في موقف أم موسى لما أمرها الله عز وجل أن تلقيه في اليم، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

فأم موسى سلمت أمرها لله تسليمًا تامًا وأطاعت أمر ربها فيما تكره، وهو إلقاء وليدها في البحر، وأصبح فؤادها فارغًا من العقل لما دهمها من فرط الجزع

---

(١) سمير الصالحين، ص(١٨، ١٩).

والخوف على وليدها لاسيما لما بلغها وقوعه في يد فرعون، وكادت تبدي بأمره وقصته وتعترف أنه ولدها، لكن الله تعالى ربط على قلبها وألهمها الصبر وجعلها من المؤمنين المصدقين لوعد الله تعالى.

ويظهر لنا في هذا المشهد (لطف الله بأم موسى بذلك الإلهام الذي به سلم ابنها، ثم تلك البشارة من الله برده إليها، التي لولاها لقضى عليها الحزن على ولدها، ثم رده إليها بإلجائه إليها قدرًا بتحريم المراضع عليه، وبذلك وغيره يعلم أن ألطاف الله على أوليائه لا تتصورها العقول، ولا تعبر عنها العبارات.

وتأمل موقع هذه البشارة وأنه أتاها ابنها ترضعه جهرًا، وتسمى أمه شرعًا وقدرًا، وبذلك اطمأن قلبها وازداد إيمانًا، وفي هذا مصداق لقول الله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] فلا أكره لأم موسى من وقوع ابنها بين آل فرعون، ومع ذلك ظهرت عواقبه الحميدة وآثاره الطيبة)[(١)] .

فهلا تعلمت المرأة المسلمة من موقف هاجر عليها السلام وموقف أم موسى عليها السلام كيف تسلم لله تعالى في كل أمورها ثقة بالله عز وجل، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأن الخير كل الخير في التسليم التام لما يقدره الله عز وجل حتى وإن لم تظهر بوادر هذا الخير في أوله، لكنها إن شاء الله ستظهر وإن استغرق الأمر بعض الوقت.

عاشرًا: فضل زمزم:

١ ـ غسل قلب النبي ﷺ بماء زمزم:

عن أنس بن مالك: كان أبو ذر رضي الله عنه يحدث أن رسول الله ﷺ

---

(١) خلاصة تيسير اللطيف المنان في تفسير القرآن، ص(١٣٠).

قال: «فُرج سقفي وأنا بمكة، فنزل جبريل عليه السلام ففرج صدري، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا، فأفرغها في صدري ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فعرج إلى السماء الدنيا، قال جبريل لخازن السماء الدنيا: افتح. قال: من هذا؟ قال: جبريل»[1].

قال ابن أبي جمرة رحمه الله: وإنما لم يغسل بماء الجنة، لما اجتمع في ماء زمزم من كون أصل مائها من الجنة، ثم استقر في الأرض فأريد بذلك بقاء بركة النبي ﷺ في الأرض.

٢ ـ خير ماء على وجه الأرض:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم، فيه طعام من الطعم، وشفاء من السقم ...**»[2].

٣ ـ ماء زمزم لما شرب له:

لحديث جابر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ماء زمزم لما شرب له**»[3].

قال النووي رحمه الله: معناه أنه من شربه لحاجة نالها، وقد جرَّبه العلماء والصالحون لحاجات أخروية ودنيوية، فنالوها بحمد الله وفضله.

قال الحافظ ابن حجر: شربه الحاكم أبو عبد الله لحسن التصنيف، ولغير ذلك، فصار أحسن أهل عصره تصنيفًا.

---

(١) رواه البخاري، واللفظ له، ومسلم وأحمد والبغوي في شرح السنة.

(٢) رواه الطبراني وابن حبان وغيرهما، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣١٧).

(٣) رواه أحمد وابن ماجه وغيرهما، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٧٨).

فمن شرب ماء زمزم ليُشفى من مرضه أو لشرح صدره الضيق، أو لقضاء حاجة، أو لكشف كرب، أو لاغتنام طاعة وفَّى الله له بذلك إن شاء الله.

٤ ـ ماء زمزم طعام طعم:

لحديث ابن عباس السابق: «**زمزم طعام طعم، وشفاء سُقْم**».

وعنه رضي الله عنهما قال: «كنا نسميها شباعة ـ يعني زمزم ـ وكنا نجدها نعم العون على العيال».

يقول ابن القيم رحمه الله: «شاهدت من يتغذى به الأيام ذوات العدد، قريبًا من نصف شهر أو أكثر، ولا يجد جوعًا، ويطوف مع الناس كأحدهم، وأخبرني أنه ربما بقي عليه أربعين يومًا، وكان له قوة يجامع بها أهله ويصوم ويطوف مرارًا»[١].

٥ ـ زمزم شفاء سُقْم:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يحمل ماء زمزم في الأداوى والقِرب، وكان يصب على المرضى ويسقيهم»[٢].

قال وهب بن منبه: والذي نفس وهب بيده، لا يعمد إليها أحد فيشرب منها حتى يتضلع إلا نزعت داء، وأحدثت له شفاء.

يقول ابن القيم رحمه الله: جرَّبت أنا وغيري الاستشفاء بماء زمزم أموراً عجيبة، واستشفيت به من عدة أمراض، فبرأت بإذن الله.

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٣٩٤).

(٢) أخرجه الترمذي والحاكم وغيرهما، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٨٩).

ماء زمزم يشفي سيدة من السرطان[١] :

فهذه سيدة مغربية اشتد بها المرض، واحتار الأطباء في أمرها، وعجز الدواء عن تخفيف آلامها، وفي باريس شخصوا لها المرض بأنه سرطان في الصدر ينتشر في كل أجزائه ولا علاج له.

وقبل العودة إلى المغرب اقترح عليها زوجها أن تسافر إلى مكة لأداء العمرة، وهناك اعتكفت ببيت الله وداومت على الشرب من ماء زمزم، واكتفت برغيف وبيضة واحدة طوال اليوم، وأمضت أيامها في صلاة وتلاوة القرآن ودعاء. وبعد أيام وجدت أن الكويرات الحمراء التي كانت تشوه جسدها قد اختفت نهائيًا، وأحست أن شيئًا ما حدث، فعادت إلى باريس وكانت دهشة الأطباء أنه لا أثر في جسدها للسرطان!! ماذا حدث، إنها آية الله في بركة زمزم.

٦ ـ ماء زمزم يُتْحَف به الضيفان ويحمله الركبان :

روى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما: «كان إذا نزل به ضيف أتحفه من ماء زمزم، ولا أطعم قومًا طعامًا إلا سقاهم من ماء زمزم»[٢] .

وقال مجاهد: كانوا يستحبون إذا ودَّعوا البيت أن يأتوا زمزم فيشربوا منها.

يا طيب زمزم مطعمًا أو مشربًا ... تهفو لورد نعيمه الأرواحُ
جبريل أطلقه بهمز جناحه ... فإذا به مسترسلاً ينداحُ

---

(١) الرياض النضرة في فضائل الحج والعمرة، للدكتور/ سيد العفاني (١/ ١٥٣، ١٥٤).
(٢) رواه الطبراني عن أبي هريرة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٤).

الله أودعــــه عنـــاصـــر رُكِّبـــت ... فيـــه يحـــار بكنههـــا الشُّـــراحُ

فتضلعــوا مــن مائـه وادعـوا فقـد ... جــاءت أحـاديـث بـذاك صحــاحُ

من قــال زمزم قدست أسـرارهـا ... عنـد الإلـــه فمـــا عليـــه جنـــاحُ

* * *



(١٠)

موقف زوجة شريح القاضي ليلة زفافها

موقف زوجة شريح القاضي ليلة زفافها

رُوِيَ (أن شريحًا القاضي قابل الشعبي يومًا، فسأله الشعبي عن حاله في بيته، فقال له: «من عشرين عامًا لم أر ما يغضبني من أهلي»، قال له: «وكيف ذلك؟» قال شريح: «من أول ليلة دخلت على امرأتي، رأيت فيها حسنًا فاتنًا، وجمالاً نادرًا، قلت في نفسي: فلأطَّهَّر وأصلي ركعتين شكرًا لله، فلما سلمت وجدت زوجتي تصلي بصلاتي، وتسلم بسلامي، فلما خلا البيت من الأصحاب والأصدقاء، قمت إليها، فمددت يدي نحوها»، فقالت: «على رسلك يا أبا أمية، كما أنت»، ثم قالت: «الحمد لله أحمده وأستعينه، وأصلي على محمد وآله، إني امرأة غريبة لا علم لي بأخلاقك، فبيِّن لي ما تحب فآتيه، وما تكره فأتركه»، وقالت: «إنه كان في قومك من تتزوجه من نسائكم، وفي قومي من الرجال من هو كفء لي، ولكن إذا قضى الله أمرًا كان مفعولاً، وقد ملكت فاصنع ما أمرك به الله، إمساك بمعروف، أو تسريح بإحسان، أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولك. . . !».

قال شريح: «فأحوجتني - والله يا شعبي - إلى الخطبة في ذلك الموضع، فقلت: الحمد لله أحمده وأستعينه، وأصلي على النبي وآله وأسلم، وبعد: فإنك قلت كلامًا إن ثَبَتِّ عليه يكن ذلك حظك، وإن تَدَّعيه يكن حجة عليك، أحب كذا وكذا، وأكره كذا وكذا، وما رأيت من حسنة فانشريها وما رأيت من سيئة فاستريها!».

فقالت: «كيف محبتك لزيارة أهلي؟» قلت: «ما أحب أن يُملَّني أصهاري»، فقالت: «فمن تحب من جيرانك أن يدخل دارك فآذن له، ومن تكره فأكره؟»، قلت: «بنو فلان قوم صالحون، وبنو فلان قوم سوء»، قال شريح: فبت معها بأنعم ليلة، وعشت معها حَوْلاً لا أرى إلا ما أحب، فلما كان رأس الحول جئت من مجلس القضاء، فإذا بفلانة في البيت، قلت: «من هي؟» قالوا: «خَتَنُك» ـ أي أم زوجك ـ، فالتفتت إلي، وسألتني: «كيف رأيت زوجتك؟» قلت: «خير زوجة»، قالت: «يا أبا أمية إن المرأة لا تكون أسوأ حالاً منها في حالين: إذا ولدت غلامًا، أو حظيت عند زوجها، فوالله ما حاز الرجال في بيوتهم شرًا من المرأة المدللة، فأدِّب ما شئت أن تؤدب، وهذب ما شئت أن تهذب» فمكثت معي عشرين عامًا لم أعقب عليها في شيء إلا مرة، وكنت لها ظالمًا)[1].

* * *

(١) انظر: «أحكام النساء» لابن الجوزي ص(١٣٤، ١٣٥)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٤١٧/١).

الدروس والعبر

أولاً: صفات الزوجة الصالحة[١] :

* إن أهم صفة في الزوجة يجب على الرجل الحرص عليها والتمسك بها أشد الاستمساك: الدين. ولا أعني بالدين المظهر دون المخبر، وإنما السلوك والعمل.

أعني بالدين أن تعيش المسلمة دينها ليل نهار لأنها تعتبره قضية حياة، وتعتبر نفسها صاحبة رسالة، فلا تهنأ ولا تهدأ إلا بالالتزام التام بالدين في نفسها وفي بيتها ومع الناس، ثم بالدعوة إلى الله عز وجل.

إن المرأة التي لا تقف مع زوجها وقت الشدة ليست بالزوجة الدَّينة الصالحة.

والتي تهتك ستره وتفضحه وتنشر عيوبه مع أول ابتلاء، ليست بالزوجة الدَّينة الصالحة. والتي تقف مع الناس ضد زوجها لدينه وصلاحه ليست بالزوجة الدَّينة الصالحة.

والتي لا تعرف لتربية أولادها منهجًا مستقيمًا على الدين ليست بالزوجة الدَّينة الصالحة.

والتي لا تؤدي حقوق زوجها إلا على هواها ومزاجها ليست بالزوجة الدَّينة الصالحة.

---

(١) للمؤلف كتاب بعنوان: «هذه هي زوجتي» فليراجع لأهميته.

والتي لا تعرف للزوج حقه وقدره ومكانته سلوكًا وواقع مودة ورحمة ليست بالزوجة الدَّينة الصالحة.

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك**».

قال الغزالي رحمه الله: «وليس أمره بمراعاة الدين نهيًا عن مراعاة الجمال ولا أمرًا بالإضراب عنه، وإنما هو نهي عن مراعاته مجردًا عن الدين، فإن الجمال في غالب الأمر يُرغب الجاهل في النكاح دون الالتفات إلى الدين ولا نظر إليه فوقع النهي عن هذا، وأمر ألا يغفل النظر فيه»[1].

وعلى ذلك فذات دين جميلة، أفضل من ذات دين فقط، وذات دين جميلة غنية أفضل من ذات دين جميلة وهكذا.

قال المناوي رحمه الله: «**ولدينها**» ختم به إشارة إلى أنها وإن كانت تنكح لتلك الأغراض لكن اللائق الضرب عنها صفحًا وجعلها تبعًا، وجعل الدين هو المقصود بالذات.

فمن ثم قال: «**فاظفر بذات الدين**» أي اخترها وقربها من بين النساء ولا تنظر إلى غير ذلك، «**تربت يداك**» افتقرتا أو لصقتا بالتراب من شدة الفقر إن لم تفعل.

قال القاضي: عادة الناس أن يرغبوا في النساء ويختاروها لإحدى أربع خصال عدَّها، واللائق بذوي المروءات وأرباب الديانات أن يكون الدين

---

(١) الإحياء.

مطمح نظرهم فيما يأتون ويذرون، سيما فيما يدوم أمره ويعظم خطره.

فلذلك حث المصطفى ﷺ بآكد وجه وأبلغه، فأمر بالظفر بذات الدين الذي هو غاية البغية ومنتهى الاختيار والطلب الدال على تضمن المطلوب لنعمة عظيمة وفائدة جليلة.

وقوله: «**تربت يداك**»: أصله دعاء لكن يستعمل لمعان أخرى كالمعاتبة والإنكار والتعجب وتعظيم الأمر والحث على الشيء، وهو المراد أيضًا هنا»[(١)].

* أما الصفة الثانية التي تلي الدين: فهي المرأة الودود الولود:

روى أبو داود والنسائي عن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «**تزوجوا الولود فإني مكاثر بكم الأمم**»[(٢)].

وروى الطبراني والدارقطني أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أخبركم بنسائكم من أهل الجنة: الودود الولود العؤود، التي إذا ظُلمت قالت هذه يدي في يدك لا أذوق غُمضًا حتى ترضى**»[(٣)].

وعند النسائي بلفظ: «**ونساؤكم من أهل الجنة الودود الولود العؤود على زوجها، التي إذا غضب جاءت حتى تضع يدها في يد زوجها وتقول: لا أذوق غُمضًا حتى ترضى**»[(٤)].

وتأتي سُعدى لتضرب المثل والقدوة الحسنة لنساء غافلات عنيدات قلوبهن متحجرة.

---

(١) فيض القدير (٣/ ٢٧١).
(٢) صحيح الجامع (٢٩٤٠).
(٣) حسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٥٤).
(٤) قال الألباني: للحديث شواهد يتقوى بها. (السلسلة الصحيحة برقم ٢٨٧).

دخلت سعدى على زوجها طلحة بن عبيد الله فرأت على مُحياه سحابة هَمٍّ لم تعرف سببها، وخشيت أن تكون قد قصرت في حق، أو فرطت في واجب، فبادرت قائلة: «مالك، لعلك رابك منا شيء فنُعتبك؟!»[1] . قال: «لا، ولنعم حليلة المرء المسلم أنتِ، ولكن اجتمع عندي مال ولا أدري كيف أصنع به؟» قالت: «وما يغمك منه، ادع قومك فاقسمه بينهم». قال: «يا غلام عليَّ بقومي، فقسم أربعمائة ألف».

المرأة الودود أي كثيرة التودد إلى زوجها، المحبة له، فهي تفعل كل ما من شأنه الاستيلاء على قلب زوجها، ولا يخرج من لسانها إلا كل كلمة طيبة تملك بها شغاف قلب زوجها.

ومن مظاهر هذا الود: أنها لا تدع زوجها في غم أو هم سواءً كانت ظالمة أو مظلومة حتى تسترضيه، وتذهب عن وجهه سحابات النكد والحزن، بخلاف الزوجة الجافة المتكبرة التي تأكل وتشرب وتنام وتروح وتجيء وتدخل وتخرج ولا تبالي بزوجها حتى يعتذر هو إن كان مخطئًا، أو يبدأ بالكلام إن كانت مخطئة.

إن المرأة الودود نعمة في بيت الرجل، مَنْ رزقها فكأنما ملك الدنيا وما فيها، والمرأة النكدة نقمة في بيت الرجل، مَنْ رزقها فالله المستعان. وكذلك المرأة الولود فإن لها مكانة في قلب الرجل - في الغالب - عن المرأة التي لا تلد ولا شك، لذا فإن ارتباط هاتين الصفتين معًا وهما (الودود الولود) هو ارتباط قلبين في الحقيقة على السعادة والهناء داخل البيت.

* أما الصفة الثالثة: المطيعة لربها ولزوجها.

---

(١) أي لعلي قصرت في حقك فأعتذر عن تقصيري وأعود عن إساءتي.

* والصفة الرابعة: الحافظة لغيب زوجها.

وهاتان الصفتان ذكرهما الله عز وجل في قوله: ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ** ...﴾ [النساء: ٣٤].

قال الآلوسي رحمه الله: «والمراد ﴿**فَالصَّالِحَاتُ**﴾ منهن مطيعات لله تعالى ولأزواجهن. ﴿**حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ**﴾ أي بحفظهن أنفسهن وفروجهن في حالة غيبة أزواجهن. وقال الثوري وقتادة: أو يحفظن في غيبة الأزواج ما يجب حفظه في النفس والمال.

وقيل: المراد حافظات لأسرار أزواجهن، أي ما يقع بينهم وبينهن في الخلوة[1].

وقال ابن كثير رحمه الله: ﴿**فَالصَّالِحَاتُ**﴾ أي من النساء ﴿**قَانِتَاتٌ**﴾ قال ابن عباس وغير واحد: يعني مطيعات لأزواجهن ﴿**حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ**﴾ وقال السدي وغيره: أي تحفظ زوجها في غيبته في نفسها وماله. وقوله: ﴿**بِمَا حَفِظَ اللَّهُ**﴾ أي: المحفوظ من حفظه الله[2].

وقال صاحب الظلال: ﴿**فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ**﴾ [النساء: ٣٤]:

(فمن طبيعة المؤمنة الصالحة، ومن صفاتها الملازمة لها، بحكم إيمانها وصلاحها، أن تكون.. قانتة.. مطيعة. والقنوت: الطاعة عن إرادة وتوجه ورغبة ومحبة، لا عن قسر وإرغام وتفلت ومعاظلة! ومن ثم قال: قانتات.

---

(١) روح المعاني (٤/ ٣٥، ٣٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٢٩٣) تحقيق سامي بن محمد السلامة.

ولم يقل طائعات. لأن مدلول اللفظ الأول نفسي، وظلاله رخية ندية.. وهذا هو الذي يليق بالسكن والمودة والستر والصيانة بين شطري النفس الواحدة. في المحضن الذي يرعى الناشئة، ويطبعهم بجوه وأنفاسه وظلاله وإيقاعاته!

ومن طبيعة المؤمنة الصالحة، ومن صفتها الملازمة لها، بحكم إيمانها وصلاحها كذلك، أن تكون حافظة لحرمة الرباط المقدس بينها وبين زوجها في غيبته - وبالأولى في حضوره - فلا تبيح من نفسها في نظرة أو نبرة - بله العرض والحرمة - ما لا يباح له هو - بحكم أنه الشطر الآخر للنفس الواحدة.

وما لا يباح، لا تقرره هي، ولا يقرره هو: إنما يقرره الله سبحانه: ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾.

فليس الأمر أمر رضاء الزوج عن أن تبيح زوجته من نفسها - في غيبته أو في حضوره - ما لا يغضب هو له، أو ما يمليه عليه وعليها المجتمع! إذا انحرف المجتمع عن منهج الله.

إن هنالك حكمًا واحدًا في حدود هذا الحفظ؛ فعليها أن تحفظ نفسها ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾.. والتعبير القرآني لا يقول هذا بصيغة الأمر. بل بما هو أعمق وأشد توكيدًا من الأمر. إنه يقول: إن هذا الحفظ بما حفظ الله؛ هو من طبيعة الصالحات، ومن مقتضى صلاحهن!)[١].

كيف تحفظين غيبة زوجك؟

[إن حفظ الزوج في غيبته واجب شرعي، وتكليف رباني، وليس ندبًا

---

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٦٥٢).

وفضلاً، ويجدر بنا أن نتناول كيفية حفظ الزوجة لزوجها في غيبته لأهميته.
ويمكن إجمال ذلك فيما يلي:

حفظه في أسراره، في أولاده، في أمواله، في نفسها، وفي أهله وأقاربه...

* فيجب على المرأة المسلمة أن تحافظ على أسرار زوجها، وما يحدث بينهما مما لا ينبغي إظهاره وإشاعته كتفاصيل الجماع، والمشاكل والخلافات... ومما ينبغي الحذر منه تحديث النساء خفية أو صراحة، مباشرة أو غير مباشرة ... بأي سر من الأسرار، سواء كن من القريبات أو البعيدات .. فإن ذلك سينقل لا محالة.

فما أكثر أحاديث النساء!!

وما أضعفهن عن تحمل الأسرار والمحافظة عليها!!

وما أسرعهن في نقلها والزيادة عليها!!

فلتحذر الأخت المسلمة من ذلك، حتى لا توغر صدر زوجها، وإن سئلت فلا تجب، وإن في المعاريض لمندوحة.

* ولتحفظه في أولاده بحسن التربية والتعليم، والتأديب، ورعاية صحتهم .. إلى غير ذلك، كما عليها أن ترعى أولاد زوجها من غيرها فلا تقس عليهم وتحرمهم العطف والرعاية .. ولتحذر الزوجات من المبالغة في تدليل الأولاد، وترك الحبل لهم على الغارب .. بحجة أن أباهم غائب فهم محرومون من عطف الأبوة فلا ينبغي إغضابهم والحيلولة دون طلبهم فتلبي طلبات الفساد، وتهمل التوجيه والإرشاد فيفسد بذلك الأولاد، وتلك خيانة

كبرى، لها وقعها الأليم على نفس الزوج المسلم.

* كما يجب أن تحفظه في ماله سواء كان نقودًا، أو أثاثًا، أو أي ممتلكات، فلا تتصرف في شيء إلا بإذنه ورضاه، ولا تبذر ولا تسرف، ولا تنفق الأموال الطائلة في التزين والتجمل والكماليات المرهقة.

إن عليها أن تكون رشيدة في إنفاقها في حضرته، وأشد رشدًا في غيبته.

* كما يجب أن تحفظه في نفسها وعرضها . .

فلا تخرج إلا بإذنه، وإن خرجت فلتحافظ غاية المحافظة على الالتزام بآداب الإسلام في الخروج فلا تتبرج، ولا تتزين وتتعطر . . وغير ذلك مما يجذب الأنظار . . ، ولتبتعد غاية البعد عن ارتياد مواطن الريب والفساد، والاختلاط بالأجانب، ومجالسة الفسقة من النساء والرجال . .

ولا تأذن لأحد في دخول البيت سواء كان من الأجانب أو الأقارب إذا كره ذلك، ولا تسمح لأجنبي أن يخلو بها . .

* كما يجب أن تحفظه في أهله وأقاربه . . .

فلا تسيء إليهم، ولا تقاطعهم، وتثير الشغب والمشاكل والخلافات والمنغصات بالحقد والحسد، والغيرة والعصيان . . . وغير ذلك.

ومن أعظم ما تحفظ به زوجها في ذلك أن تصبر على أي أذى يقع، أو مشكلات تحدث، أو ضرر يلحق . . حتى يرجع زوجها فتخبره بحكمة وهدوء ليعالج الأمور بحكمة وهدوء، فإن من أعظم ما ينغص على الزوج حياته ومعيشته، ويؤرقه في غربته، أن يسمع بخلافات أمه وأخواته وسائر أقاربه مع زوجته . .

فعلى الزوجة أن تكون وفية كريمة، عاقلة حكيمة، فتصبر وتحتسب، ولا تتهور فتكيل الصاع بالصاعين والبادي أظلم . . ، وتهجر البيت إلى أهلها . . وتبدأ سهام الطعن تتراشق، وقذائف الفضائح تنطلق . . ، ونبال الغمز واللمز والهمز والعيب تتبادل . . ، والزوج في غيبته لا يدري، وعندما يدري يتملكه الشقاء، وتستبد به الهموم والأحزان . . وقد يتصرف تصرفات لا تحمد عقباها في حق الزوجة . .

وأخيرًا أقول : إن حفظ الغيب من معالم احترام المرء لإنسانيته، وبيان أنه إنسان لا حيوان تردعه العصا، ويؤدبه السوط، إنه إنسان يراقب ربه في السر والعلانية، في الغيب والشهادة . . فيرعى حقوق الغائب والحاضر والغائب أكثر وأشد .

وتلك هي التقوى .

فاحرصي أيتها الزوجة على التقوى تَسْعَدي في نفسك وتُسْعِدي زوجك][1] .

ثانيًا: طلب رضا الزوج .. طريق المرأة إلى الجنة:

إن المرأة الصالحة هي التي تستخدم زوجها كالدَرَج تصعد به إلى الجنة، هي الحريصة على طلب رضاه وهي المرأة التي لا ترضى بغير الجنة بديلاً .

ماذا قالت زوجة شريح القاضي عندما مدَّ يده نحوها بعد الانتهاء من الصلاة : «الحمد لله أحمده وأستعينه، وأصلي على محمد وآله، إني امرأة غريبة لا علم لي بأخلاقك، فبيِّن لي ما تحب فآتيه، وما تكره فأتركه» .

---

(١) كيف تسعدين زوجك، محمد عبد الحليم حامد، ص(٧٨ ـ ٨١) .

وهذا الأدب والخلق والسلوك يجب أن يكون شعار المرأة مع زوجها طيلة حياتها الزوجية، فتأتي كل ما يحبه الزوج، وتترك كل ما يكرهه من الأقوال أو الأعمال، وسواء ذلك تكرهه هي أو لا تكرهه لعظم حق زوجها عليها.

إن الزوجة العاقلة الصالحة حينما تسلك طريق مرضاة الزوج، فإنها في الحقيقة تسلك الطريق الموصل بحق إلى الجنة، مادامت تطلب مرضاته في غير معصية وذلك انطلاقًا من قوله ﷺ لعمة حُصين بن محصن: «**فانظري أين أنت منه، فإنما هو جنتك ونارك**»[١]. فمهمة الزوجة إذن أن تسد ثغرتها حتى لا تأتي عواصف الهم والنكد من ناحيتها، فإن هبت العواصف لا محالة من أي ناحية، فعليها السعي لإرضاء زوجها بغض النظر أيهما أخطأ، فإن لعاطفتها الساحرة آثارًا طيبة في تهدئة العواصف وتسكينها.

إذن كيف ترضين زوجك؟

(١ - إذا كان الخطأ من ناحيتك أيتها الزوجة، فعليك أن تبادري بالاعتذار والتأسف وطلب السماح، بأسلوب يشعر بالندم ويعبر عن الألم .. والأسلوب في غاية الأهمية، لأن كلمة أنا آسفة، وحقك عليّ قد تقذف من الفم كأنها حجارة.

ونحن نريدها نسمة لطيفة تبرد حرارة الغضب المخيفة.

* وعليك أيضًا باللمسات الحانية، اللمسات الحسية والمعنوية، فقد أشار الحديث النبوي السابق إلى ذلك:

«**هذه يدي في يدك، لا أكتحل بغمض حتى ترضى**» فلمسات اليد

(١) رواه أحمد والنسائي، وقال الألباني: إسناده صحيح (آداب الزفاف، ص٢٨٥).

الناعمة، وقبلات الفم الحانية . . لها آثار سحرية في إطفاء جذوة الغضب المتأججة . . . كما أن عبارات المشاركة الوجدانية، وإظهار التأثر البالغ، والتألم الشديد من أجل غضب الزوج يفثأ[١] هذا الغضب حتى يذهب .

* وإذا كان هو المخطئ ومع ذلك غضب، فأصبري واسكتي ولا تجادلي، بل تنازلي عن حقك لتمتصي غضبه حتى يهدأ، وفي الهدوء يكون التفاهم سهلاً .

* وإذا كان غضبه لسبب خارجي غير ظاهر، فالتمسي له الأعذار، فإن ذلك من شيم الكرام، فقد يكون متعبًا مجهدًا، أو عوتب وعوقب في العمل بحق أو غير حق من مسئوله بأسلوب قاس مهين . . أو حلت به مصائب، وتفاقمت لديه مشاكل عجز عن تحملها وحلها . . . فإذا وصل البيت انفجر غضبه فواجبك في هذه الحال الهدوء والصبر، وإزالة ما أثاره ولو كان تافهًا . . دون نقد، ولا تكثري من الأسئلة حينئذ :

لماذا أنت غضبان؟ هل فعلت شيئًا أغضبك؟ هل هذا الأمر البسيط يغضبك هكذا؟

لا، لابد أن تخبرني، فهناك شيء تخفيه عني .

بل يكفيك حينئذ نظرات الحنان، وعبارات التهدئة الخفيفة القليلة . حتى إذا هدأ بعد فترة، أو جاء موعد النوم تعرفي بحكمة على أحداثه اليومية في عمله، أو أخبار أسرته، أو موضوعات كانت تشغله . . إلى غير ذلك .

حتى إذا عرفت السبب هونت عليه، وسليته بما يخففه ويذهبه .

بذلك أيتها الزوجة ترضين ربك، وتسعدين زوجك، وتعذرين إلى الله،

---

(١) فثأ الغضب : أي سكَّنه وكسره (القاموس المحيط للفيروز آبادي) ص(٦٠) .

وتحمين حياتكما من كدر عواصف الغضب . .

وأسوق إليك هذا الحديث النبوي العظيم ليشجعك على الخير .

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**لا يحل لامرأة تؤمن بالله أن تأذن لأحد في بيت زوجها وهو كاره، ولا تخرج وهو كاره، ولا تطيع فيه أحدًا، ولا تعزل فراشه، ولا تضرُّ به، فإن كان هو أظلم، فلتأته حتى ترضيه، فإن قبل منها فبها ونعمت، وقبل الله عذرها، وأفلج[1] حجتها، ولا إثم عليها، وإن هو لم يرض فقد أبلغت عند الله عذرها**»[2] .

ذلك هو واجب الزوجة المسلمة تجاه زوجها إذا غضب على أي وجه كان، فلتحرص الزوجة عليه لتحافظ على سلامة الأسرة، ودوام سعادتها . .

ولتحذر كل الحذر من الكبر والعناد، والجدل والمراء، واستغلال لين شخصية الزوج إن كان ضعيفًا، أواستغلال فرط صلاحه ودينه . . .

وعليها بالاعتذار عند خطئها، والتماس الأعذار لزوجها فإن ذلك من شيم الكرام، وأسباب دوام الود والألفة والوئام)[3] .

ثالثًا: المرأة تُذكر زوجها بالله:

هل تنصح المرأة زوجها؟ وهل توصيه بتقوى الله تعالى؟ وهل تذكره بالله؟

نعم . . إن المرأة الصالحة تفعل كل ذلك بأدب جم وخلق رفيع وتواضع .

---

(١) أفلج : أظهر ونصر .

(٢) الحاكم

(٣) كيف تسعدين زوجك، ص(٧٣ ـ ٧٥) .

قالت زوجة شريح القاضي له: «إنه كان في قومك من تتزوجه من نسائكم، ومن قومي من الرجال من هو كفء لي، ولكن إذا قضى الله أمرًا كان مفعولاً، وقد ملكت فاصنع ما أمرك الله به، إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان».

تعني أنها لم تكن شيئًا مهملاً، ولكن قدر الله عز وجل الذي يقول للشيء كن فيكون، ومادمت قد ملكتني بأغلظ ميثاق وهو عقد النكاح، فاتقِ الله وسر في طريقه عز وجل ولا تظلم، فإما معاشرة بالمعروف، وإما تسريح ولكنه بإحسان.

قال تعالى: ﴿ **وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ [النساء: ١٩].

فأمر الله عز وجل الرجال بمعاشرة زوجاتهم بكل ما هو معروف عُرْفًا وشرعًا.

ولذلك فقد أوصى النبي ﷺ بالنساء خيرًا فقال: «**استوصوا بالنساء خيرًا، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء**»(١).

فالمرأة إذا أراد زوجها إقامتها على الجادة وعدم اعوجاجها، أدى ذلك إلى الشقاق والفراق وهو كسرها، وإن صبر على سوء حالها وضعفها ونحو ذلك من عوجها دام الأمر واستمرت العشرة، وهذا لا يكون إلا بالصبر عليها واحتمالها لأنها خلقت من ضلع، فينبغي عليه أن يستمتع بها على عوجها

---

(١) متفق عليه.

لقضاء الوطر، وطلب الولد الصالح، والإعفاف.

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خُلقًا رضي منها آخر** - أو قال: - **غيره**».

فلا يصح للمؤمن أن يبغض زوجته على كل حالها، فهي ليست شراً محضًا، بل إن كره منها مثلاً سوء الخلق رضي منها العفاف مثلاً، وليعاشرها على ذلك فيغفر سيئتها لحسنتها ويتغاضى عما يكره بما يحب.

إن دور الزوجة المسلمة داخل البيت مع زوجها ليس بالأمر الهين مهما كان زوجها على علم، فكل ابن آدم خطاء، وتعترينا بين الفينة والأخرى ربما فترات ضعف، نريد من يقف بجوارنا ويأخذ بأيدينا.

لذلك فإن الزوجة المؤمنة عندما ترى من زوجها تكاسلاً في طاعة كتأخره مثلاً عن صلاة الفجر، أو عدم حرصه على قيام الليل الذي تعود عليه ونحو ذلك من الطاعات تذكره وترغبه وتُعْلمه أنه قدوتها، تقوى بقوته وتضعف بضعفه وتتكاسل بتكاسله.

إن وجدت منه سوءًا في عشرته لها، فقد بدأ يسب ويشتم، فلتنتهز فرصة يكون باله فيه هادئًا فترغبه في حسن الخلق، وكيف كان النبي ﷺ حليمًا مع زوجاته، يصبر عليهن، ويتجاوز عن هفواتهن، ويقابل بعض تصرفاتهن بابتسامة ورد فعل جميل، ولا تنسى أن تثني عليه وتفهمه أن ما فعله ربما لضيق صدره، أو لغلبة الشيطان، أو بسبب مشكلة هنا أو هناك وهكذا.

إن الزوج الصالح يحب أن يسمع من زوجته - بأدب وتواضع - تذكرة إن غفل، ونصيحة إن سها، وتشجيعًا إن كسل، فالمرء على دين خليله، وهل

هناك أقرب من الزوجة لزوجها ومن الزوج لزوجته.

إن المرأة الصالحة التي تذكر زوجها بالله، بطاعته، وبتقواه، وبخشيته، إنما هي زوجة مشغولة بالله والدار الآخرة، ونعم هي.

رابعًا: من فقه الزوجة الصالحة:

من كمال عقل الزوجة الصالحة وعلمها وفقهها في الدين سؤالها لزوجها عما يحب ويكره، وهذا ما فعلته زوجة شريح القاضي بقولها: «كيف محبتك لزيارة أهلي؟ . . . فمن تحب من جيرانك أن يدخل دارك فآذن له، ومن تكره فأكره؟»

وهذا حق من حقوق الزوج على زوجته وهو ألا تدخل بيته أحدًا إلا بإذنه، ويستوي في ذلك المحارم وغيرهم من النساء أو الرجال.

وبعض النساء ـ للأسف ـ تتهاون في هذا الحق، فتدخل في بيتها من لا يأذن زوجها بدخوله، وهذا حرام عليها لقوله ﷺ: «**ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مبرح**»[1].

قال النووي رحمه الله: «والمختار أن معناه أن لا يأذن لأحد تكرهونه في دخول بيوتكم، والجلوس في منازلكم، سواء كان المأذون له رجلاً أجنبيًا، أو امرأة أو أحدًا من محارم الزوجة، فالنهي يتناول جميع ذلك.

وهذا حكم المسألة عند الفقهاء، وأنها لا يحل لها أن تأذن لرجل أو امرأة، ولا محرم ولا غيره في دخول منزل الزوج إلا من علمت أو ظنت أن الزوج لا

---

(١) رواه مسلم (١٢١٨)، وأبو داود (١٩٠٥)، وابن ماجه (٣٠٧٢)، والدارمي (١٨٥٧).

يكرهه، لأن الأصل تحريم دخول منزل الإنسان حتى يوجد الإذن في ذلك منه، أو ممن أذن له في الإذن في ذلك، أو عرف رضاه باطراد العرف بذلك ونحوه.

ومتى حصل الشك في الرضا ولم يترجح شيء، ولا وُجد قرينة، لا يحل الدخول ولا الإذن والله أعلم»[١] .

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يحل للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه**».

شكى أحد الأزواج زوجته التي أعرضت عنه ونكّدت عليه لأنه لم يأذن لأخيها دخول البيت في وقت هو لا يحب أن يزوره أحد فيه، فقلت أين هذه من زوجة شريح القاضي فلتقرأ ولتتعلم ولتتق الله تعالى.

فيا أيتها المرأة المسلمة! زوجك ثم زوجك ثم زوجك، اجعلي همك كله في طلب مرضاته والتودد إليه حتى لا تدعو عليك زوجته من الحور العين بقولها: قاتلك الله، وكوني له مطيعة، قانتة، سباقة إلى كل ما يحب ويرضى، حتى يفهم تمامًا أن حبك له أغلى عندك من كل شيء ومن أي مخلوق آخر.

(هذه هي الزوجة البرَّة الودود التي يريدها الإسلام، راعية لبيتها، وفيَّة لزوجها حريصة على دوام العشرة بينهما. وإذا ما هبت على حياتهما الزوجية رياح مكدرة سارعت إلى تنقية الجو بالتودد الصادق والتفاهم الحكيم، ولاتسمع إلى وسوسات الشيطان ونزغات النفس الأمارة بالسوء، فتسارع إلى

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٨/ ٣٤٠).

طلب الطلاق من زوجها، ذلك أن عقدة الزوجية أجل وأكبر من أن تنفصم عراها لخلاف عارض أو سوء تفاهم ناشز)[١] .

فلعل المسلمة العاقلة الدَّينة تتخذ من زوجة شريح القاضي القدوة الحسنة في سلوكها الرفيع هذا، وتحرص على فعل وقول كل ما يحب، لإيمانها التام بأن هذا هو طريقها إلى جنة ربها، وإلا فقد أخطأت الطريق .

خامسًا: أم الزوجة ودرس لنساء المسلمين:

ماذا قالت أم زوجته له: «كيف رأيت زوجتك؟ قلت: خير زوجة. قالت: يا أبا أمية إن المرأة لا تكون أسوأ حالاً منها في حالين:

إذا ولدت غلامًا، أو حظيت عند زوجها.

فوالله ما حاز الرجال في بيوتهم شرًا من المرأة المدللة، فأدِّب ما شئت أن تؤدب، وهذب ما شئت أن تهذب».

أين اليوم مثل هذه الأم الناصحة العاقلة، التي لا تعرف إلا الحق ولا تقف إلا مع الحق؟!!

نحن في حاجة إلى مثل هذه العقلية الواعية التي لا تعرف إلا الحق، وتسلك في تربية أولادها أنجع الأساليب.

(وكم من أسرة يعود الفضل في نجاح تربية أولادها إلى الأم الذكية اللبقة النبيهة الحصيفة التي أدركت مسؤوليتها تجاه أولادها، فقامت بها خير قيام، فأنشأت أولادًا عادوا بالخير على والديهم وعلى المجتمع والناس.

---

(١) شخصية المرأة المسلمة، محمد علي الهاشمي، ص(١٨٢).

وكم من أسرة أخفقت في تربية أبنائها، لأن الأم لم تدرك مسؤوليتها تجاه أولادها، فأهملتهم، فكانوا شراً مستطيراً وعذاباً واصباً على والديهم وعلى المجتمع والناس.

وما كان الأولاد ليكونوا شراً محضاً لو أن الوالدين ـ ولاسيما الأم ـ عرفا مسؤوليتهما إزاء أولادهما، وقاما بتبعات تلك المسؤولية خير قيام)[١].

إن مثل هذه النوعية من الأمهات اللاتي يوصين أزواج بناتهن بحسن تأديب وتهذيب بناتهن وعدم تدليلهن التدليل الذي يسيء إليهن ويهضم بعض حقوق الزوج، هن من النساء الحصيفات الواعيات، اللاتي من باب أولى أحسنَّ تربية بناتهن ونصحنهن، وزودنهن بكل نافع لهن في شؤون بيوتهن وأزواجهن وأولادهن.

إن الأم العاقلة هي التي (تفتح عيني ابنتها دوماً على ما يسرُّ زوجها ويسعده، وتشجعها على القيام بواجباتها الزوجية والأسرية على أحسن وجه، وإن رأت من ابنتها شيئاً من تقصير أو تراخ أو لا مبالاة، سارعت إلى نصحها وتسديدها ومساعدتها لتلافي ذلك التقصير، بحيث لا تترك لصهرها على ابنتها مأخذاً يهوِّن من شأنها، أو يصغرها في عينه.

ولا تنسى أن تنوِّه بين الحين والحين بمزايا وإيجابيات صهرها، ترددها على مسامع ابنتها، لتزيدها التصاقاً به، وحباً له، ورضاً بما قسمه الله لها.

وبذلك تكون خير معوان لابنتها على تماسك حياتها الزوجية واستمرارها وإشاعة السعادة في أجوائها.

---

(١) المصدر السابق، ص(٢٢٦).

وتلتزم الحماة المسلمة العدل في مواقفها وأحكامها إن نَشب خلاف أو سوء تفاهم بين ابنتها وزوجها، أو رأت من ابنتها تقصيراً مخلاً في حسن تبعلها زوجها، أو في قيامها بواجباتها المنزلية، أو في مراعاة رغبات الزوج المشروعة، فلاتتحيَّز لابنتها، بل تنطق بكلمة الحق والعدل، عملاً بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾ [الأحزاب: ٧٠].

وإن رأت من ابنتها ميلاً إلى الابتزاز والإسراف والإنفاق بغير حساب، ولم تُجْد نصيحتها لابنتها، نطقت بكلمة الحق، مبينة لابنتها خطأها، وتجاوزها الحد المشروع الذي بينه الشرع الحنيف للإنفاق، مستهدية بقوله تعالى في وصف عباد الرحمن المهتدين المكرَّمين: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧].

وإذا ما رأت في شخصية ابنتها قوةً طاغية، وميلاً يتحيَّف من كرامة الرجل وقوامته، سارعت إلى إفهام ابنتها بصريح العبارة: أن الرجال قوامون على النساء، طبقًا لقوله تعالى: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ [النساء: ٣٤]، وأن القوامة للرجل على المرأة لسببين جوهريين، لا ينبغي للمرأة أن تنساهما أبدًا، وهما: الأفضلية والإنفاق، ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨])[1] .

سادسًا: وفاء الزوج لزوجته:

وهذا ظاهر من قول شريح القاضي: «فمكثت معي عشرين عامًا لم

---

(١) المصدر السابق، ص(٢٣٤، ٢٣٥).

أعقب عليها في شيء إلا مرة، وكنت لها ظالمًا».

وقد كان النبي ﷺ سيد الأوفياء، وهذا يظهر جليًا في حديثه عن خديجة رضي الله عنها بعد أن ماتت.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول: **«كانت، وكانت، وكان لي منها ولد»**[1].

وعنها رضي الله عنها أيضًا قالت: استأذنت هالة بنت خويلد ـ أخت خديجة ـ على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة، فارتاع لذلك، فقال: **«اللهم هالة»**[2].

أي اللهم اجعل المستأذن هالة. ويظهر من ذلك شدة وفائه ﷺ لخديجة رضي الله عنها وذكره لها بالطيب من القول والفعل.

قالت عائشة رضي الله عنها أيضًا: كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة، فيحسن الثناء عليها، فذكرها يومًا من الأيام فأخذتني الغيرة، فقلت: هل كانت إلا عجوزًا قد أبدلك الله خيرًا منها؟! فغضب ثم قال: **«لا والله ما أبدلني الله خيرًا منها، آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها»**.

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي.

(٢) رواه مسلم وغيره.

ونحن نعلم جميعًا أن خديجة رضي الله عنها نفعت رسول الله ﷺ في وقت عزَّ فيه النصير .

وإننا إذا أردنا أن نعرف شمائل الناس ونعوت الخلق نختبرهم وقت المحن والشدائد .

جزى الله الشدائد كل خير عرفت بها عدوي من صديقي

والنبي ﷺ الزوج الوفي لم ينس لخديجة رضي الله عنها مواقفها النبيلة معه، في وقت كان وحده وكل الناس ضده، فكان منه هذا الوفاء .

ومن الأزواج (من قلَّ حظه من الوفاء، فلا همَّ له من زوجته سوى نصيبه منها، فلا يحفظ حقها إلا مادام راغبًا فيها، ومادامت في شرخ شبابها، وغضارة نضارتها، وكامل صحتها، ووفرة مالها .

فإذا ما كبرت، أو مرضت، أو افتقرت ـ أعرض عنها، ونسي ما كان من سالف الود بينه وبينها، ولم يقدِّر لها صبرها عليه، وقيامها بحقه .

ومن قلة الوفاء أن يطلِّق الرجل زوجته إذا مرض مرضًا يخشى منه الموت؛ كي يحرمها من الميراث .

ومن ذلك أن يسافر عنها كثيرًا دونما حاجة للسفر .

إلى غير ذلك من صور قلة الوفاء التي تدل على لؤم الطبع، وقلة الرعاية لحفظ الذمام .

أما كرام الناس، وأهل الوفاء منهم ـ فإنهم يحفظون الود، ولا ينسون الإحسان مهما تقادم عليه الزمان .

ومن أولى ما يُعْنَون بحفظه حق الزوجات اللواتي وهبنهم البر، والإخلاص، وحسن المعاشرة، فترى أولئك الكرام يحفظون عهود الود، فيذكرون زوجاتهم بالخير، ويدعون لهن، ويقفون إلى جانبهن بالمواساة إذا مرضن، أو كبرن، أو أصبن ببلية، بل ويحفظون حقهن بعد مماتهن)[1] .

* * *

---

(١) من أخطاء الأزواج، محمد بن إبراهيم الحمد، ص(١٠٥، ١٠٦).



(١١)

موقف أم الدحداح رضي الله عنها وقمة البذل في سبيل الله



موقف أم الدحداح رضي الله عنها وقمة البذل في سبيل الله

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال :

[لما نزلت هذه الآية : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ [البقرة: ٢٤٥] قال أبو الدحداح الأنصاري : يا رسول الله، وإن الله ليريد منا القرض؟ قال : «**نعم يا أبا الدحداح**» قال : أرني يدك يا رسول الله، قال : فناوله يده، قال : فإني قد أقرضت ربي حائطي . وله حائط فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها، قال : فجاء أبو الدحداح فناداها : يا أم الدحداح، قالت : لبيك، قال : اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل . وفي رواية أنها قالت : ربح بيعك يا أبا الدحداح . ونقلت منه متاعها وصبيانها، وإن رسول الله ﷺ قال : «**كم من عِذْق[1] رَداح[2] في الجنة لأبي الدحداح**»، وفي لفظ : «**رُبَّ نخلة مُدلاة عروقها دُرٌّ وياقوت لأبي الدحداح في الجنة**».

* * *

(١) العذْق : بفتح العين النخلة، وبكسرها : عرجونها .

(٢) الرَداح : الثقيل .

الدروس والعبر

أولاً: فضل الإنفاق في سبيل الله تعالى:

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً، فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة، فهو يقضي بها ويعلمها**» متفق عليه.

معناه: ينبغي أن لا يُغبَط أحدٌ إلا على إحدى هاتين الخصلتين.

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيكم مالُ وَارِثه أحَبُّ إليه مِن مَاله؟**» قالُوا: يا رَسولَ الله، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه. قال: «**فإن مَالَه ما قَدمَ، ومال وارثه ما أخَّرَ**» رواه البخاري.

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة**» متفق عليه.

وعن جابر رضي الله عنه قال: ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال: لا. متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من يوم**

يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعطِ منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعطِ ممسكًا تلفًا » متفق عليه.

وعنه أن رسول الله ﷺ قال: « **قال الله تعالى: أنفق يا ابن آدم يُنفق عليك** » متفق عليه.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أي الإسلام خير؟ قال: « **تطعم الطعام، وتقرأُ السلام على من عرفت ومن لم تعرف** » متفق عليه.

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: « **أربعون خصلة أعلاها منيحةُ العَنْزِ**[1] **ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها وتصديق موعودها إلا أدخله الله تعالى بها الجنة** » رواه البخاري.

وعن أبي أمامة صُدَيِّ بن عجلان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « **يا ابن آدم إنك أن تبذل الفضل خير لك، وأن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى** » رواه مسلم.

وعن أنس رضي الله عنه قال: ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه، ولقد جاءه رجل، فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، وإن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يلبث إلا يسيراً حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها. رواه مسلم.

وعن عمر رضي الله عنه قال: قَسَم رسول الله ﷺ قَسْمًا، فقلت:

---

(١) قال ابن علان رحمه الله (دليل الفالحين ٢/ ٥٥٠): قال أبو عبيدة: المنيحة عند العرب على وجهين: أولهما: إعطاء الرجل صاحبه نحو شاة صلة. ثانيهما: أن يعطيه شاة أو ناقة ينتفع بحلبها ثم يردها، وهذا هو المراد هنا.

يا رسول الله لَغير هؤلاء كانوا أحق به منهم؟ قال: «**إنهم خيروني أن يسألوني بالفحش فأعطيهم، أو يُبَخِّلوني**[1]**، ولست بباخلٍ**» رواه مسلم.

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه أنه قال: بينما هو يسير مع النبي ﷺ مَقْفَلَهُ من حُنين، فَعَلَق الأعرابُ يسألونه، حتى اضطروه إلى سمُرة، فَخطفتْ رداءه، فوقف النبي ﷺ فقال: «**أعطوني ردائي، فلو كان لي عدد هذه العِضَاه نَعَمًا، لقسمْته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذابًا ولا جبانًا**».

رواه البخاري

قال النووي رحمه الله: «مقفله» أي: حال رجوعه. و«السمُرة»: شجرة. و«العضاه»: شجر له شوك.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ماَ نَقصَت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله عز وجل**» رواه مسلم.

وعن أبي كبشة عمر بن سعد الأنماري رضيٍ الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**ثلاثة أُقسم عليهن وأحدثكم حديثا فاحفظوه: ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عزاً، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر - أو كلمة نحوها - وأحدثكم حديثاً فاحفظوه**» قال: «**إنما الدنيا لأربعة نفر:**

عبد رزقه الله مالاً وعلمًا، فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقًا، فهذا بأفضل المنازل.

---

(١) معناه كما قال الإمام النووي رحمه الله: أنهم ألحُّوا عليَّ في السؤال لضعف إيمانهم، وألجئوني بمقتضى حالهم إلى السؤال بالفحش، أو بنسبتي إلى البخل (المصدر السابق - ص٥٥٢).

وعبد رزقه الله علمًا، ولم يرزقه مالاً، فهو صادق فيه رَحِمَه، ويعلم لله فيه حقًا، فهذا بأفضل المنازل.

وعبد رزقه الله علمًا، ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلانٍ، فهو بنيته، فأجرهما سواء.

وعبد رزقه الله مالاً، ولم يرزقه علمًا، فهو يخبط في ماله بغير علم لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقًا، فهذا بأخبث المنازل.

وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علمًا، فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلانٍ، فهو نيته، فوزرهما سواء» رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وعن عائشة رضي الله عنها أنهم ذبحوا شاة، فقال النبي ﷺ: «**ما بقي منها؟**» قالت: ما بقي منها إلا كتفها، قال: «**بقي كلها غير كتفها**» رواه الترمذي وقال: حديث صحيح.

ومعناه: تصدقوا بها إلا كتفها فقال: بقيت لنا في الآخرة إلا كتفها.

وعن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «**لا تُوكي فيُوكَي عليك**»[١].

وفي رواية: «**أنفقي أو انفحي، أو انضحي، ولا تحصي فيحصي الله عليك، ولا توعي فيوعي الله عليك**» متفق عليه.

و«انفحي» بالحاء المهملة: وهو بمعنى «أنفقي» وكذلك: «انضحي».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**مثل البخيل والمنفق، كمثل رجلين عليهما جُنَّتَانِ من حديد من ثُدِيِّهِمَا إلى**

---

(١) قال في النهاية: أي لا تدخري وتشدي ما عندك وتمنعي ما في يدك. (المصدر السابق- ص٥٦٠). فيوكي الله عليك: أي فيقطع عليك رزقه.

تَرَاقِيهما، فأما المنفق، فلا ينفق إلا سَبَغَت، أو وَفَرَت على جلده حتى تخفي بنانه، وتعفو أثره، وأما البخيل، فلا يريد أن ينفق شيئًا إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسعها فلا تتسع» متفق عليه.

و«الجُنَّة» الدرع، ومعناه: أن المنفق كلما أنفق سبغت، وطالت حتى تجر وراءه، وتخفي رجليه وأثر مشيه وخطواته.

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ تَصَدَّقَ بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلُوَّه حتى تكون مثل الجبل**» متفق عليه.

«الفَلُوُّ» بفتح الفاء وضم اللام وتشديد الواو، ويقال أيضًا: بكسر الفاء وإسكان اللام وتخفيف الواو: وهو المُهْرُ.

وعنه عن النبي ﷺ قال: «**بينما رجل يمشي بفلاة من الأرض فسمع صوتًا في سحابة: اِسق حديقة فلان، فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حَرَّة، فإذا شَرْجَةٌ من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله، فتتبع الماء، فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته، فقال له: يا عبد الله ما اسمك؟ قال: فلانٌ للاسم الذي سمع في السحابة، فقال له: يا عبد الله لم تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعت صوتًا في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان لاسمك، فما تصنع فيها؟ فقال: أما إذ قلت هذا، فإني أنظر إلى ما يخرج منها، فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثًا، وأرد فيها ثلثه**» رواه مسلم.

«الحَرَّةُ» الأرض المُلْبَسَةُ حجارة سوداء، «والشَّرْجَةُ» بفتح الشين المعجمة وإسكان الراء وبالجيم: هي مسيل الماء.

ثانيًا: علو الهمة في الصدقة والجود والإيثار:

وهذه نماذج رفيعة نضعها بين يدي كل مؤمن ومؤمنة عسى أن تستحثهم هذه النماذج على البذل والعطاء ابتغاء وجه الله عز وجل.

كان إبراهيم عليه السلام يُسمى أبا الضِّيفان، كان يمشي الميل والميلين في طلب من يتغذى معه. وفي الكشاف: كان لا يتغذى إلا مع ضيف[١].

وقال رسول الله ﷺ: «**أكرم الناس يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم**»[٢].

وقال أيضًا ﷺ: «**الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم**»[٣].

وكان يوسف عليه السلام وهو على خزائن الأرض لا يشبع ويقول: أخاف أن أشبع فأنسى الجياع.

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس[٤]، وأتاه رجل فسأله، فأعطاه غنمًا سَدَّتْ ما بين جبلين، فرجع إلى قومه، وقال: أسلموا فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر.

وكان جوده ﷺ كله لله، وفي ابتغاء مرضاته، فإنه كان يبذل المال إما

---

(١) فيض القدير للمناوي (٣/ ٥٤٣).
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) رواه البخاري.
(٤) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

لفقير، أو محتاج، أو ينفقه في سبيل الله، أو يتألف به على الإسلام من يقوى الإسلام بإسلامه، وكان يؤثر على نفسه وأهله وأولاده، فيعطي عطاءً يعجز عنه الملوك مثل كسرى وقيصر، ويعيش في نفسه عيش الفقراء، فيأتي عليه الشهر والشهران لا يوقد في بيته نار، وربما ربط على بطنه الحجر من الجوع، وكان قد أتاه صبي مرة فشكت إليه فاطمة ما تلقى من خدمة البيت، وطلبت منه خادمًا يكفيها مؤنة بيتها، فأمرها أن تستعين بالتسبيح والتكبير والتحميد عند نومها، وقال: «**لا أعطيك وأدع أهل الصفة تُطْوَى بطونهم من الجوع**».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر**»، فبكى أبو بكر وقال: «هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله»[1].

وقال الأعمش: «كنت يومًا عنده - أي عمر بن الخطاب - فأُتِيَ باثنين وعشرين ألف درهم، فلم يقم من مجلسه حتى يفرقها، وكان إذا أعجبه شيءٌ من ماله تصدق به، وكان كثيرًا ما يتصدق بالسكر، فقيل له في ذلك فقال: إني أحبه، وقد قال تعالى: ﴿**لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾.

[آل عمران: ٩٢]

وهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه اشترى بئر رومة بأربعين ألف درهم، وأنفق في جيش العسرة عشرة آلاف درهم.

---

(١) صحيح، رواه ابن ماجه وأحمد (صحيح الجامع - ٥٨٠٨).

وعن نافع قال: إن كان ابن عمر ليفرق في المجلس ثلاثين ألفًا، ثم يأتي عليه شهر ما يأكل مزعة لحم[١]. واشتهى في مرضه أن يأكل حوتًا، ومرة أخرى اشتهى عنبًا، فلما جيء به إليه تصدق به.

وعن ابن سيرين: كان سعد بن عبادة يرجع كل ليلة إلى أهله بثمانية من أهل الصفة يعشيهم.

وعن يحيى بن سعيد قال: كان قيس بن سعد يطعم الناس في أسفاره مع النبي ﷺ، وكان إذا نفد ما معه تديَّن، وكان ينادي في كل يوم: هلموا إلى اللحم والثريد.

وقال عبد الله بن نمر: ما رأيت أحدًا أجود بعد رسول الله ﷺ من معاوية وهو أول من أعطى ألف ألف درهم في صدقة.

وعن سفيان: كان علي بن الحسين يحمل معه جرابًا فيه خبز، فيتصدق به ويقول: إن الصدقة تطفئ غضب الرب عز وجل.

وكتب المنصور ابن المهدي إلى محمد بن عباد يشكو دَيْنًا وضيقَ ذات يدٍ وجفوة سلطانه، فبعث إليه بعشرة آلاف دينار.

وكان رحمه الله يقول: منع الموجود سوء ظن بالمعبود.

وقال الربيع: تزوجت، فسألني الشافعي: كم أصدقتها؟ قلت: ثلاثين دينارًا، عجلت منها ستة، فأعطاني أربعة وعشرين دينارًا.

---

(١) هي القطعة اليسيرة من اللحم.

ثالثًا: صور من الإنفاق في سبيل الله والإيثار:

أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه:

قال أنس: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب. قال أنس: فلما أنزلت هذه الآية: ﴿**لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾ [آل عمران: ٩٢]، قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿**لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾ وإن أحب أموالي إلي بيرحاء، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، قال: فقال رسول الله ﷺ: «**بَخٍ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين**». فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله. فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه[١].

الربيع بن خُثَيْم:

عن منذر أن الربيع كان إذا أخذ عطاءه فَرَّقَه، وتَرَكَ قَدْرَ ما يكفيه[٢].

وروى بشير بن دعلوف عن الربيع بن خثيم أنه وقف سائل على بابه فقال: أطعموه سكرًا؛ فإن الربيع يحب السكر[٣].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، ومسلم ومالك والترمذي والنسائي.

(٢) السير ٤/٢٥٨-٢٦٢.

(٣) التبصرة لابن الجوزي ٢/ ٢٥٥.

«وكان الربيع ـ رحمه الله تعالى ـ لا يعطي السائل كسرة ولا شيئًا مكسوراً ولا ثوبًا خَلقًا، ويقول: أستحيي أن تقرأ صحيفتي على الله تعالى وفيها الأشياء التافهَة التي أعطيتُها لأجله»(١).

وعن منذر الثوري، عن الربيع بن خثيم أنه قال لأهله: اصنعوا لنا خبيصًا. فصُنع، فدعا رجلاً كان به خبل، فجعل يُلقمه ولعابه يسيل، فلما أكل وخرج، قال له أهله: تكلفنا وصنعنا ثم أطعمته، ما يدري هذا ما أكل! قال الربيع: لكن الله يدري(٢).

إبراهيم التيمي:

كان رحمه الله يجمع كل قليل جماعةً من الفقراء، ويجلسهم في المسجد، ويقول لهم: تعبَّدوا وأنا أقوم بخدمتكم ومؤنتكم(٣).

أبو حفص النيسابوري:

الإمام القدوة الرباني شيخ خُراسان.

قال عنه الذهبي في ترجمته في السير (١٢/ ٥١٠ـ٥١٣): «أنفذ في يوم واحد بضعة عشر ألف دينار يفتكُّ به أسرى، فلما أمسى لم يكن له عشاء».

الحافظ عبد الغني المقدسي:

قال الضياء المقدسي: رأيت يومًا قد أُهدي إلى بيت الحافظ مشمش، فكانوا يفرقون، فقال من حينه: فرقوا ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]. وقد فتح له بكثيرٍ من الذهب وغيره، فما يترك شيئًا، حتى

---

(١) تنبيه المغترين للشعراني ص٩٣.
(٢) شعب الإيمان للبيهقي ٧/ ١٠٠.
(٣) تنبيه المغترين ص٩١.

قال لي ابنه أبو الفتح: والذي يعطي الناس الكثير، ونحن لا يبعث إلينا شيئًا[1] .

حماد بن أبي سليمان:

كان رحمه الله ذا دنيا متسعة، وكان يفطر في رمضان خمسمائة إنسان، وكان يُعطيهم بعد العيد لكل واحدٍ مائة درهم[2] .

أبو جعفر القارئ:

قال الذهبي في السير (٥/ ٢٨٧، ٢٨٨): كان أبو جعفر يتصدق حتى بإزاره.

جعفر الصادق بن محمد بن علي:

قال الذهبي في ترجمة جعفر في السير (٦/ ٢٥٥ - ٢٧٠): «عن هياج بن بسطام قال: كان جعفر بن محمد يطعم حتى لا يبقى لعياله شيء».

قال تعالى: ﴿ **مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

أبو الدحداح رضي الله عنه:

عن أنس بن مالك أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن لفلان نخلة، وأنا أقيم حائطي بها، فمره أن يعطيني حتى أقيم حائطي بها. فقال له النبي ﷺ: «**أعطها إياه بنخلةٍ في الجنة**». فأبى. وأتاه أبو الدحداح فقال: بعني نخلتك

(١) انظر ترجمة الحافظ عبد الغني في «السير» ٢١/ ٤٤٣ - ٤٧١.

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٣١ - ٢٣٩.

بحائطي. قال: ففعل. قال: فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني قد ابتعت النخلة بحائطي، فجعلها له، فقال ﷺ: «**كم من عذق رداح لأبي الدحداح في الجنة**». مرارًا، فأتى امرأته فقال: يا أم الدحداح، اخرجي من الحائط فإني بعته بنخلة في الجنة. فقالت: قد ربحت البيع. أو كلمة نحوها[(١)] .

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**رُبَّ عَذْقٍ مذلل لابن الدَّحداحة في الجنة**»[(٢)] .

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كم من معلق لأبي الدحداح في الجنة**»[(٣)] .

زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه:

وكان من الأحناف، مات وهو في طريقه إلى مكة.

قالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائمًا مسندًا ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش، والله ما فيكم أحد على دين إبراهيم غيري. وكان يحيي الموءودة، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: مه، لا تقتلها، أنا أكفيك مؤنتها. فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن

---

(١) إسناده رجاله ثقات. والحديث أخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي النضر، وقال: صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي، وأخرجه ابن حبان في صحيحه ٩/ ١٤٤ رقم (٧١١٥).

(٢) صحيح. رواه ابن سعد عن ابن مسعود، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٤٨٩).

(٣) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي.

شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤنتها[١] .

كم بينك وبين الموصوفين؟! كم بين المجهولين والمعروفين؟! آثرت الدنيا وآثروا الدين، فتلمح تفاوت الأمر يا مسكين.

رابعًا: كلمات عطرة في الجود والكرم[٢] :

قال محمود الوراق:

من ظن بالله خيرًا مبتدئًا   والبخل من سوء ظن المرء بالله

وقال عبد الله بن عباس: سادات الناس في الدنيا الأسخياء، وفي الآخرة الأتقياء.

وقيل لأبي عُقيل البليغ العراقي: كيف رأيت مروان بن الحكم عند طلب الحاجة إليه؟

قال: رأيت رغبته في الإنعام فوق رغبته في الشكر، وحاجته إلى قضاء الحاجة أشد من حاجة صاحب الحاجة.

وقيل لابن عُيينة: ما السخاء؟ قال: بر الإخوان، والجود بالمال.

وقال جعفر الصادق: إن الله خلق خلقًا من رحمته برحمته لرحمته، وهم الذين يقضون حوائج الناس، فمن استطاع منكم أن يكون منهم فليكن.

وقال محمد بن سيرين: أدركنا الناس وهم يتهادون بالفضة في الأطباق كالفاكهة.

---

(١) رواه الذهبي في سير أعلام النبلاء ٨/ ١٣٩. وهذا حديث صحيح.

(٢) انظر: صلاح الأمة في علو الهمة (٢/ ٦١٢-٦٢٥).

وقال الحسن البصري: عجبًا لك يا بن آدم، تنفق في شهواتك إسرافًا وبدارًا، وتبخل في مرضاة ربك بدرهم، ستعلم يا لُكع مقامك عنده غدًا.

وكان حماد بن أبي سليمان رحمه الله يقول: لولا سؤال المحتاجين لي ما اتجرت في شيء أبدًا.

وقال معمر: من أقبح المعروف أن تحوج السائل إلى أن يسأل وهو خجل منك، فلا يجيء معروفك قدر ما قاسى من الحياء، وكان الأولى أن تتفقد حال أخيك وترسل إليه ما يحتاج ولا تحوجه إلى السؤال.

وكان لمحمد بن سيرين - رحمه الله - بغلٌ مربوط في دهْليزه، فكل من احتاج إلى ركوبه أخذه وركبه من غير استئذان، لما يعلمون من طيب نفسه بذلك.

وكان الفضيل بن عياض - رحمه الله تعالى - يقول: من المعروف أن ترى المنة لأخيك عليك إذا أخذ منك شيئًا، لأنه لولا أخذه منك ما حصل لك الثواب، وأيضًا فإنه خصك بالسؤال ورجا فيك الخير دون غيرك.

وكان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يقول: لأن أجمع نفرًا من أصحابي على طعامي أحب إلي من عتق رقبة.

وكان أحدهم يقول: زكاة الدار أن يُجعل فيها بيت للضيافة.

وكان يحيى بن معاذ يقول: عجبت ممن يبقى معه مال وهو يسمع قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٧].

وكان عبد العزيز بن عُمير يقول: الصلاة توصلك إلى نصف الطريق،

والصوم يوصلك إلى باب الملك، والصدقة تدخلك إلى الملك.

وكان إبراهيم بن يوسف - رحمه الله - يجمع الأموال ويقول: إنما أجمع ذلك لبطون جائعة، وظهور عارية، ولم أجمعه للماء والطين.

وقال أحد العباد: يتزوج أحدكم فلانة بنت فلان بالمال الكثير، ولا يتزوج الحور العين بلقمة أو تمرة أو خرقة، هذا من العجب!!

وكان الليث بن سعد يقول: من أخذ مني صدقة أو هدية فحقه علي أعظم من حقي عليه، لأنه قبل مني قرباني إلى الله عز وجل.

وكان سفيان الثوري - رحمه الله - ينشرح إذا رأى سائلاً على بابه ويقول: مرحبًا بمن جاء يغسل ذنوبي.

وكان الفضيل بن عياض - رحمه الله - يقول: نعم السائلون، يحملون أزوادنا إلى الآخرة بغير أجرة، حتى يضعوها في الميزان بين يدي الله تعالى.

خامسًا: هكذا فلتكن النساء:

يسترعي انتباه المتأمل في موقف أم الدحداح رضي الله عنها أنها لم تناقش زوجها ولم تعترض، بل قالت له: لبيك، وفي رواية: ربح بيعك يا أبا الدحداح.

أين هذا الجيل الفريد من نساء المسلمين الذي يعين الرجل على كل ما ينفعه في الآخرة، ويوصله إلى دار القرار في جنة الرحمن.

وقد تواصلت أجيال نسائية مؤمنة على خطى أم الدحداح رضي الله عنها وغيرها من النساء الصالحات:

فعن محمد بن الحسين السلمي قال: قال أبو محمد الحريري: كنت عند بدر المغازلي، وكانت امرأته باعت دراً بثلاثين ديناراً، فقال لها بدر: نفرق هذه

الدنانير في إخواننا، ونأكل رزق يوم بيوم، فأجابته إلى ذلك، وقالت: تزهد أنت، ونرغب نحن؟ هذا ما لا يكون[1].

وقال أبو يوسف البزار:

(تزوج رياح القيسي امرأة، فبنى بها، فلما أصبح قامت إلى عجينها، فقال: «لو نظرت إلى امرأة تكفيك هذا»، فقالت: «إنما تزوجت رياحًا القيسي، ولم أرني تزوجت جبارًا عنيدًا»، فلما كان الليل نام ليختبرها، فقامت ربع الليل، ثم نادته: «قم يا رياح»، فقال: «أقوم»، فقامت الربع الآخر، ثم نادته، فقالت: «قم يا رياح»، فقال: «أقوم»، فلم يقم، فقامت الربع الآخر، ثم نادته، فقالت: «قم يا رياح»، فقال: «أقوم»، فقالت: «مضى الليل، وعَسْكَرَ المحسنون، وأنت نائم، ليت شعري من غَرَّني بك يا رياح؟»، قال: «وقامت الربع الباقي»)[2] اهـ.

وقال رياح: (اغتممتُ مرة في شيء من أمر الدنيا، فقالت: «أراك تغتم لأمر الدنيا، غرَّني منكم شُميط[3]، ثم أخذت هُدْبَةً من مِقْنَعَتِها[4]، فقالت: «الدنيا أهون عَلَيَّ من هذه»)[5] اهـ.

وقال الحسين بن عبد الرحمن:

حدثني بعض أصحابنا قال: (قالت امرأة حبيب أبي محمد، وانتبهت

(١) أحكام النساء ص (١٤٧).
(٢) صفة الصفوة (٤/ ٤٣، ٤٤).
(٣) وهو «شُمَيْط بن العجلان» الذي زَوَّجَها من «رياح القيسي».
(٤) المِقْنَعَة: ما تغطي به المرأة رأسها، وهو أصغر من القناع، والهدبة: الخيط الصغير، وما يشبهه.
(٥) صفة الصفوة (٤/ ٤٤).

ليلة، وهو نائم، فأنبهته في السحر، وقالت: «قم يا رجل فقد ذهب الليل، وجاء النهار، وبين يديك طريق بعيد، وزاد قليل، وقوافل الصالحين قد سارت قُدَّامنا، ونحن قد بقينا»[(١)] .

و(أجمع المؤرخون على أن جميع الأعمال الطيبة، والأفعال الحسنة التي قام بها المهدي[(٢)] ، فأكسبته الشهرة الفائقة، إنما كانت بتأثير زوجته «الخيزران»)[(٣)] .

وفي العصر المتأخر كان للزوجة العاقلة أكبر الأثر في نصرة أعظم حركة تجديدية شهدتها الأمة منذ أوائل القرن الثاني عشر الهجري حتى يومنا هذا:

إذ لما قدم شيخ الإسلام «محمد بن عبد الوهاب» رحمه الله إلى «الدرعية» ليعرض دعوته على أميرها «محمد بن سعود» لعله ينصره بسيفه، ويحمي الدعوة التجديدية الوليدة، أوعز تلميذ شيخ الإسلام الشيخ «أحمد بن سويلم العريني» إلى «ثنيان» و«مشاري» أخوي الأمير «محمد بن سعود»، وكانا من أنصار الشيخ وأتباعه، أوعز إليهما أن يستكشفا رأي أخيهما الأمير محمد في شأن الشيخ، ويقفا على مدى استعداده لمناصرة دعوته، فلم يترددا في قبول طلبه، وخَفَّا مُسْرِعَيْن إلى دار أخيهما الأمير محمد، وشرعا أولاً بمفاوضة زوجته المسماة «موضى بنت أبي وهطان» من آل كثير، وكانت امرأة مشهورة

---

(١) السابق (٤/ ٣٣).

(٢) هو الخليفة محمد بن عبد الله المنصور.

(٣) مرآة النساء ص (٨٦) ، وهي أم الهادي، وهارون الرشيد، ملكة حازمة، عاقلة، لبيبة، دينة، خيرة، متفقهة، أخذت الفقه عن الإمام الأوزاعي، كما في الأعلام (٢/ ٣٧٥).

بوفرة الذكاء والنباهة وسعة الإدراك، وقد تحدث الأخَوان إلى زوجة أخيهما طويلاً في المهمة التي جاءا من أجلها، وعن الدعوة التي يدعو إليها الشيخ، ومدى فائدتها في محاربة البدع والخرافات، ومكانة الشيخ، وما هو عليه من علم ومعرفة، وصفة ما يأمر به وينهى عنه، وأخيراً طلبا إليها أن تفاوض زوجها لمناصرة الشيخ، وشَدِّ أزره، وإشهار السيف من غمده في سبيل نصرة الدعوة التي يدعو إليها، فَوَعَدَتْهما خيراً، وتم الاتفاق على ذلك، ونقلت السيدة «موضى» إلى زوجها ما دار بينها وبين أخويه من الحديث، ودَعَتْهُ إلى تأييد الشيخ، ونصرة دعوته، وقالت له: إن هذا الرجل قدم إلى بلدك، وهو غنيمة ساقها الله تعالى إليك، فأكرِمْه، وعظِّمْه، واغتنم نُصْرَتَه»، ثم رَغَّبَتْهُ، وحسَّنت إليه القيام بزيارة خاصة إلى دار الشيخ «أحمد بن سويلم» لمقابلة الشيخ، لتكون إعلانًا جهاراً للملأ بأنه على نصرته، وتحت حمايته، لكي يعظمه الناس، ويكرموه، فوافق الأمير محمدٌ على نصيحة زوجته)، وتم اللقاء بينهما حيث أفاض الشيخ في شرح دعوته إلى التوحيد، ومحاربة الشرك والبدع، وتمت البيعة بينهما، وعقد التحالف على قيام الأمير «محمد ابن سعود» بشد أزر الشيخ ونصرة دعوته، ودخل الشيخ البلد تلبيةً لدعوة الأمير، واتخذ له منزلاً بالقرب من دار الأمير «محمد بن سعود»[1] اهـ.

وقد كان لهذه المرأة الصالحة الصادقة أكبر الأثر في مؤازرة زوجها

---

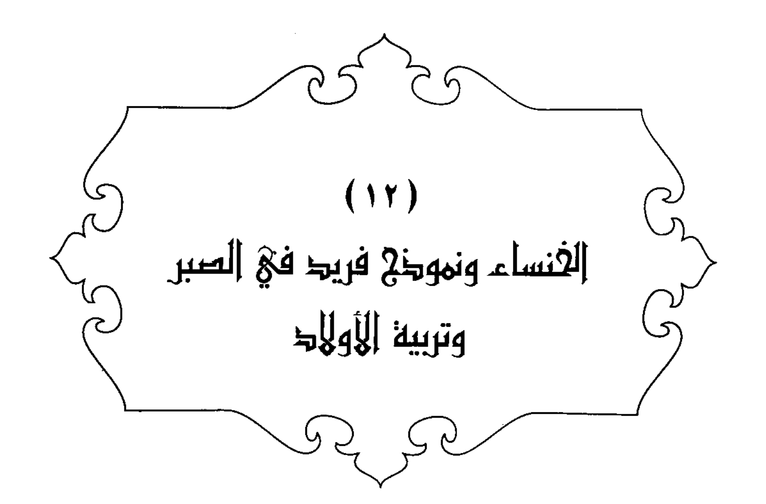
(١) انظر: تاريخ الجزيرة العربية في عصر الشيخ محمد بن عبد الوهاب لحسين خلف الشيخ خزعل ص (١٥٩ ـ ١٦١)، وكذا السعوديون والحل الإسلامي ص(١١٢)، مجلة البحوث الإسلامية العدد السابع عشر ص(٣٦٠) عام ١٤٠٦ ـ ١٤٠٧ هـ.

وتشجيعه، وحثه على الصبر والسلوان حينما اندحر الجيش الذي قاده ولده عبد العزيز وهزم هزيمة نكراء في «حائر»[١] .

* * *

---

(١) السابق ص(٢٥٢)، ومن فضائل هذه المرأة العاقلة أن في كنفها وتحت عينها نشأ ابنها الإمام المجاهد، والبطل المجالد، أمير المسلمين في زمانه، العلامة الزاهد العابد، بقية السلف الصالح، تلميذُ إمام الدعوة السلفية : عبد العزيز بن محمد بن سعود، الملقب بـ «مهدي زمانه»، المقتول غدراً بيد رافضي خبيث في صلاة العصر وهو ساجد سنة ١٢١٨ هـ، رحمه الله، وعفا عنه، وتقبله في الشهداء.



(١٢)
الخنساء ونموذج فريد في الصبر وتربية الأولاد

الخنساء ونموذج فريد في الصبر وتربية الأولاد

قالت بعد استشهاد أبنائها الأربعة في القادسية :

الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته .

* * *

الدروس والعبر

أولاً: من هي الخنساء[1] ؟

لسنا هنا في صدد الكلام عن الخنساء الشاعرة لقبًا، تماضر السُلَمية اسمًا؛ إذ ليست الغاية من دراسة سيرتها دراسة شعرها أو شرحه وبيان غريبه. فالخنساء عَلَمٌ في رأسه نار؛ لم يغفل ذكرها تاريخ من تواريخ الأدب، فهذه الكتب تذكرها شاعرة عظيمة، تبوأت منزلة رفيعة ومركزًا متميزًا بين الشعراء، ولاسيما شعراء الرثاء. فلا يهمنا من شعرها إلا ما يخدم غرضنا من هذه الدراسة. فالتفصيل في ذكر شعرها وكلام النقاد المعاصرين وغير المعاصرين لها، لا نذكره إلا بمقدار ما يفيدنا في خدمة فكرتنا: وهي ذكر ما يفعله الإسلام في نفوس البشر من تغيير وتبديل، وذلك من النقيض إلى النقيض. فكم من شخصيات قَلَبَها من الأسود إلى الأبيض، ومن الظلام إلى النور. فكأن الإسلام مادة كيماوية توضع على تربة لها صفات معينة فتتفاعل معها تفاعلاً كيماويًا، فتبدلها تبديلاً. ونحصل من ذلك التفاعل على مواد جديدة، تختلف بصفاتها عن القديمة بل تناقضها وتعاكسها في كثير من الأحيان.

وليست تماضر السلمية فريدة في هذا الوضع، فالتاريخ الإسلامي يزخر بأمثالها ممن بدلهم الإسلام تبديلاً، وغير أحوالهم تغييرًا، عمر بن الخطاب رضي الله عنه حمل سيفه يريد قتل رسول الله ﷺ فإذا به بعد إسلامه يصبح وزيره ويده اليمنى. خالد بن الوليد الذي كان من أشد أعداء الإسلام؛ كَيْدًا

(١) نساء رائدات ـ عفت وصال حمزة (١/ ٥٥ : ٦٩)، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني (٤/ ٢٨٧)، الاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر (٤/ ٢٩٦).

له، وهجومًا عليه، وحيلولة دون انتشاره، قد صار بعد أن أسلم أشد الناس دفاعًا عنه، وكيدًا لأعدائه ودعوة له، ثم فعل الأعاجيب من أجله. عكرمة بن أبي جهل، عمرو بن العاص وغيرهم وغيرهم رضي الله عنهم.

والخنساء امرأة بدلها الإسلام تبديلاً كليًا، كما بدل غيرها؛ فبعد أن كانت في الجاهلية امرأة بكاءة تبكي بدموع تارة، وبشعْر تارة أخرى، حتى أنه لو أحصي البكاؤون والبكاءات في التاريخ، لكَانَتْ تماضر السُّلَميَّة زعيمة البكائين. ثم أصبحت بعد الإسلام زعيمة الصابرين. أصبحت المرأة الراضية الصابرة المحتسبة، التي تحمد الله في كل حال وتتجرع كؤوس الصبر راضية مطمئنة.

وبعد هذا. فمن هي تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية.

نسبها:

هي تماضر[(١)] بنت عمرو بن الحارث بن الشريد، الرياحية السلمية من بني سُليم بن قيس عيلان من مضر، ولقبها الخنساء، توفيت سنة ٢٤ هـ.

نشأتها:

عاشت الخنساء أكثر عمرها في العصر الجاهلي وأدركت الإسلام فأسلمت ووفدت على رسول الله ﷺ مع قومها بني سُلَيم[(٢)].

---

(١) تماضر: من مضر اللبن يمضره مضوراً: حَمُضَ وابيضَّ وصار يحذي اللسان قبل أن يروب، وسمي مُضَر بذلك لأنه كان مولعًا بشرب الماضر، والتَمضُّر: التشبه بالمضرية. ويقال: خذ الشيء خضْرًا مضْرًا أي غضًا طريًا. والعرب تقول: مَضَّر الله لك الثناء أي طَيّبه. وتماضر اسم امرأة مشتَق منَ هذه الأشياء، قال ابن دريد: أحسبه من اللبن الماضر (لسان: مضر).

(٢) الأعلام للزركلي ٢/ ٨٦.

وعلى هذا يمكننا أن ندرس حياتها حسب مرحلتين اثنتين : الأولى في الجاهلية والثانية في الإسلام .

الخنساء في الجاهلية:

لقبها : ذكر الديوان في المقدمة بأنها لُقِّبَتْ بالخنساء تشبيهًا لها بالبقرة الوحشية . لكن كتب اللغة لا تذكر أن معنى الخَنَسِ هو جمال العينين . بل ذكرت تلك الكتب أن الخَنَس صفة من صفات الأنف ؛ فعلى هذا فإن اللقب جاءها بسبب صفة جميلة في أنفها[١] .

خطبة دريد بن الصِّمَّة لها:

لم تذكر كتب التاريخ أو كتب الشعر تفصيلاً عن حياتها في الجاهلية ، مع أن أكثر عمرها كان قبل الإسلام ، لكن أول ما ورد ذكرها هو خطبة دريد بن الصِّمَّة لها .

فمن هو دريد بن الصمة؟ هو دريد بن الصمة الجشمي البكري من هوازن ، شجاع من الأبطال الشعراء المعمرين في الجاهلية . كان سيد بني جُشم وفارسهم وقائدهم ، غزا نحو مئة غزوة ، لم ينهزم في واحدة منها . وعاش حتى سقط حاجباه عن عينيه . وأدرك الإسلام ولم يُسلم ؛ فقتل على دين الجاهلية يوم حنين . وكانت هوازن قد خرجت لقتال المسلمين فاستصحبته

---

(١) الخنساء من خنس . الخَنَس في الأنف تأخره إلى الرأس وارتفاعه عن الشفة وليس بطويل ولا مشرف . وقيل : الخنس قريب من الفطس وهو لصوق القصبة بالوجنة ، وضخم الأرنبة ، وقيل : انقباض قصبة الأنف وعرض الأرنبة . والرجل أخنس والمرأة خنساء . أما قول دريد :

أخناس قد هام الفؤاد بكم وأصابه نبل من الحب

فهو يعني الخنساء بنت عمرو بن الشريد فغيَّره ليستقيم الوزن (لسان : خنس) .

معها تيمنًا به وهو أعمى. فلما انهزمت جموعها أدركه ربيعة بن رفيع السلمي فقتله. له أخبار كثيرة. والصمة لقب أبيه معاوية بن الحارث[1] قتل عام ٨ هـ في حنين.

وفي مقدمة ديوان الخنساء، أن دريد بن الصمة فارس هوازن وسيد بني جشم، قد خطبها فردته لكبر سنه، فهجاها فلم ترد عليه، فسئلت عن ذلك فأجابت: لا أجمع عليه أن أرده وأهجوه. لكن كتبًا كثيرة ذكرت غير ذلك؛ فقد جاء في الشعر والشعراء والأغاني ج ١٥ ص٦٣ وما بعدها:

أن دريدْ بن الصمّة خطبها وذلك أنه رآها تهنأ إبلاً لها، ثم تخلع ملابسها لتغتسل فهويها فردتِه. وفي الأغاني عن محمد بن سلام، أن دريدًا لما خطبها بعثت خادمة لها وقالت: انظري إليه إذا بال؛ فإن كان بوله يخرق الأرض ويخُدُّ[2] فيها، ففيه بقية، وإن كان بوله يسيح على وجهها فلا بقية فيه. فرجعت إليها وأخبرتها فقالت: لا بقية في هذا، فأرسلت إليه: أتراني تاركة بني عمي كأنهم عوالي الرماح ومُرْتَثَّة[3] شيخ بني جُشَم.

هكذا كان منطق الخنساء في شبابها.

ويقول دريد بن الصمة في عشقه لها:

حيوا تماضر واربعوا صحبي وقفوا فإن وقوفكم حسبي

(١) الأعلام ٢/ ٣٣٩، وانظر الشعر والشعراء ص ٢١٨.

(٢) يَخُدُّ فيها أي يحفر أُخدودًا.

(٣) ارتُث فلان إذا حُملَ من المعركة رثيثًا أي جريحًا وبه رمق، وأما قول الخنساء مرتثة شيخ بني جشم أي أنه أسن وقرب من الموت وضعف فهو بمنزلة من حمل من المعركة وقد أثبتته الجراح لضعفه (لسان: رثّ).

أخُنَـاس قـد هـام الفـؤاد بكـم　　وأصـابـه نبـل مـن الحـب
مـا إن رأيـت ولا سمعـت بـه　　كـاليـوم هـانـئ أنيـق جـرب[1]
متبـذلاً تبـدو محـاسنـه　　يضـع الهنـاء مـواضـع النقـب[2]

وعندما ردته الخنساء هجاها بأبيات كثيرة أختار منها ما يلي:

وقـاك الله يـا بنـة آل عمـرو　　مـن الفتيـان أشبـاهـي ونفسـي
وقـالـت: إنـه شيـخ كبيـر　　ومـا نبـأتهـا أنـي ابـن أمـس
وأنـي لا أبيـت بغيـر نحـرٍ　　وأبـدأ بـالأرامـل حيـن أمسـي
وأنـي لا يهـر الكلـب ضيفـي　　ولا جـاري يبيـت خبيـب نفـس[3]
فـلا تلـدي ولا ينكحـك مثلـي　　إذا مـا ليلـة طـرقـت بنحـس

فقالت الخنساء تجيبه:

معـاذ الله ينكحنـي حَبـركـى　　يقـال: أبـوه مـن جُشـم بـن بكـر
ولـو أصبحـت فـي جُشـم هـديًـا　　إذن أصبحـت فـي دنـسٍ وفقـر[4]

وتزوجت الخنساء من أبناء عمها؛ تزوجت رواحة بن عبد العزيز السُلمي وقد سماه كتاب الأغاني، وكذلك العقد الفريد بعبد العزى.

---

(١) أنيق: جمع ناقة. والأصل أنوق ثم خفضت إلى أن صارت أنيق (لسان: نوق).
(٢) الهناء: القطران، والنقب: الجَرَب.
(٣) أي لا يبيت جاره مخدوعًا أو فاسدًا، والخب: الفساد، والخَبب: الخبث.
(٤) الأغاني ١٥/ ٦٣ وما بعدها. والهدي: العروس، والحبركى: الطويل الظهر القصير الرجلين، وفي التهذيب الضعيف الرجلين الذي يكاد يكون مقعدًا من ضعفهما، والحبركى القَوْمُ الهلكى (لسان: حبك).

ولعل هذا الاسم الوثني كان له قبل إسلامه. فلما أسلم استبدل به اسم رواحة، أو أن اسم رواحة لقب كان يعرف به.

ولدت الخنساء لرواحة ابنه عبد الله ويكنى بأبي شجرة. ثم خلف رواحة عليها مرداس بن أبي عامر السُلمي - ويلاحظ أن أزواجها من قبيلة سُليم أولاد عمها - ولدت له: يزيد ومعاوية وعمراً وعمرة[١]. وفي الشعر والشعراء، أنها ولدت له ثلاثة هم يزيد ومعاوية وعمرو.

أخواها:

كان أبوها عمرو بن الحارث بن الشريد يأخذ بيدي ابنيه صخر ومعاوية ويقول: أنا أبو خَيْرَي مضر. فتعترف له العرب بذلك[٢]. وقيل للخنساء صفي لنا أخويك صخراً ومعاوية فقالت: كان صخر والله جُنَّةُ[٣] الزمان الأغبر، وزعاف[٤] الخميس الأحمر، وكان والله معاوية القائل والفاعل. قيل لها فأيهما كان أسنى وأفخر؟ قالت: أما صخر فحرُّ الشتاء وأما معاوية فبرد الهواء. قيل لها فأيهما أوجع وأفجع؟ قالت: أما صخر فجمر الكبد، وأما معاوية فسقام الجسد وأنشدت:

أسدان محمرا المخالب نجدة بحران في الزمن الغضوب الأنمر

مقتل معاوية: قتل معاوية يوم حوزة الأول نحو سنة ٦١٢م وهو يوم لسُليم على غطفان. قتله هاشم ودريد ابنا حرملة بن مرة، وكان ذلك بسبب

(١) ديوان الخنساء المقدمة.
(٢) الشعر والشعراء ص ٢٢٠.
(٣) الجُنَّة: الستر.
(٤) الزعاف: السم الشديد. والخميس: الجيش.

امرأة بَغيٍّ. وإذ إن المقام ليس مناسبًا لسرد القصة، لكن الدرس المأخوذ منها يفيد على كل حال: وافى معاوية سوق عكاظ في موسم من مواسم العرب، فبينا هو يمشي في سوق عكاظ إذ لقي أسماء المرية، وكانت امرأة جميلة، وزُعم أنها كانت بغيًا. فدعاها إلى نفسه فامتنعت عليه وقالت: أما علمت أني عند سيد العرب هاشم بن حرملة؟ فأحفظته وأغضبته فقال: أما والله لأقارعنّه عنك. قالت: شأنك وشأنه. فأثارته بهذا القول أكثر وأكثر، ثم ذهبت إلى هاشم بن حرملة، وأخبرته بما قال معاوية، وبما أجابته فقال هاشم بن حرملة: فلعمري لا يريم لنا أبياتًا حتى ننظر ما يكون من جهده[١].

لما مضى الشهر الحرام وتراجع الناس عن عكاظ، خرج معاوية بن عمرو غازيًا، حتى إذا وصل إلى مكان يُدعى الحوزة، دَوَّمت[٢] عليه طير وسَنَحَ له ظبي فتطيَّر منهما ورجع في أصحابه. وبلغ ذلك هاشمًا فقال: ما منعه من الإقدام إلا الجبن. ولما كانت السنة المقبلة أعاد الغزو فَسَنَحَتْ له ظبي وغراب فتطير فرجع. ومضى أكثر أصحابه إلى شؤونهم دون قتال، وبقي معاوية مع تسعة عشر فارسًا لا يريدون قتالاً، فوردوا ماء، فإذا عليه بيت شعر. فصاحوا بأهله فخرجت إليهم امرأة. فقالوا: ممن أنت؟ قالت: امرأة من جهينة فوردوا الماء يسقون خيولهم ويشربون، فانسلَّت المرأة وأتت إلى هاشم بن حرملة؛ فأخبرته أنهم غير بعيد وعرفته عدتهم، وبينهم عبد العزى زوج الخنساء، فلم يشعر السُّلميون، حتى طلعوا عليهم فثاروا عليهم فلقوهم، وقتل هاشمُ بن

---

(١) أي لايقترب من بيوتنا حتى نعلم قدرته على قتالنا.

(٢) دَوَّمت الكلاب: أمعنت في السير، و دَوَّمت: أبعدت، ودَوَّمت الشمس: دارت في السماء. والتدويم: الدوران. قال أبو بكر: الدائم من حروف الأضداد، يقال للساكن دائم، وللمتحرك دائم (لسان: دوم).

حرملة معاويةَ بن عمرو وآخرين غيره وفر الباقون. وقال أخوه صخر في رثائه قصيدة أختار منها قوله:

إذا ما امرؤ أهدى لميت تحية فحياك رب الناس عني معاويا

مقتل صخر نحو ١٠ قبل الهجرة نحو ٦١٥ م:

غزا صخر بن عمرو ومن معه قبيلة أسد بن خزيمة فأصابوا غنائم وسبايا، وأخذ صخر يومئذ بُديلة امرأته. وأصابت صخراً يومئذ طعنة، طعنه رجل يقال له: ربيعة بن ثور ويكنى أبا ثور. فأدخل جوفه حلقًا من الدرع، فاندمل عنه، حتى شق عليه بعد سنين؛ وكان ذلك سبب موته.

وفي رواية أخرى، أن صخراً ورد هو وبلعاء بن قيس الكناني، وكانا أجمل رجلين في العرب قال: فشربا عند يهودي خمّار كان بالمدينة. قال: فحسدهما لما رأى من جمالهما وهيئتهما وقال: إني لأحسد العرب أن يكون فيهم مثل هذين فسقاهما شربة جَويا[1] منها. ومرض صخر قريبًا من سنة حتى مله أهله. وسمع صخرٌ امرأة تسأل زوجته عنه: كيف بعلك؟ فقالت: لا هو حي فيُرجى، ولاهو ميت فينعى، لقينا منه الأمرين. وصخر يسمع كلامها، فشق عليه ذلك. وإذا قالوا لأمه: كيف صخر اليوم؟ قالت: أصبح صالحًا بنعمة الله يكفينا أننا نرى وجهه كل يوم. وينظر صخر إلى أمه، فيجد دموعها تجري على خديها فيقول:

أرى أم صخر ما تجف دموعها ومَلّتْ سُليمى مضجعي ومكاني

وما كنت أخشى أن أكون جنازة عليك ومن يَغْتَرُّ بالحدثان؟

---

(١) جَويا: أصابتهما حرقة شديدة.

فأي امرئٍ ساوى بأمٍ حليلةً ... فلا عاش إلا في أذى وهوان
ولَلْموتُ خير من حياة كأنها ... مَحِلَّةُ يَعْسوبٍ برأسِ سنانِ[١]

وفي رواية ثالثة: أنه شهد حربًا فأبلى فيها، وتقدم فحمل عليه رجل من القوم، فطعنه في خاصرته، فتحامل على نفسه في الجراحة؛ فَجويَ منها ولم يُفصد، فخرج منها كمثل اليد وأضنته حولاً أو حولين لا ينبعث. فسمع من يسأل امرأته عن علته، وأين بلغت منه؟ فقالت امرأته قولاً يدل على البَرَم به والملل لصحبته. فلما رأى ذلك برم بتلك الخراجة من جنبه، فأشاروا عليه بقطعها.

وسئلت أمه عنه فقالت: أصبح صالحًا بحمد الله، ثم أفاق بعض الإفاقة فعمد إلى امرأته سلمى فعلقها بعمود الفسطاط حتى ماتت. وفي رواية أنه قال: ناولوني سيفي لأنظر كيف قوتي، وأراد قتلها. فناولوه السيف فلم يطق السيف، ثم جاءه طبيب فأشار عليه بقطع الخراجة فوافق صخر فقطعها له الطبيب فمات بعدها[٢].

ويقال بأن سليمى كانت امرأة ذات حسن وجمال، وردف ثقيل وساق مليح، فمر بها رجل من الحي فقال لها: أيباعُ هذا الكَفَل؟ قالت: نعم عما قريب. وسمعها صخر من داخل البيت وهو ضعيف ثم سمع امرأة تسأل أمه عنه فقالت: نحن بخير ما دمنا نرى وجهه[٣].

---

(١) جاء في لسان العرب في شرح هذا الشطر: إن الرئيس إذا قتل، جُعِلَ رأسه على سنان؛ يعني أن العيش إذا كان هكذا فهو الموت (لسان: عسب).

(٢) الأغاني ١٥/ ٦٣.

(٣) طرائف ونوادر ٢/ ١٠٨.

شعر الخنساء:

كانت الخنساء تقول الشعر أبياتًا يسيرة فلما أصيبت بأخويها أجادت وأكثرت وجمعت نفسها وشَهَّرت[١] وكان صخر أحب أخويها إلى نفسها؛ لذلك لم تزل ترثيه ولم تزل تبكيه، حتى عميت. وكانت تقف بالموسم فتُسَوِّم[٢] هودجها بِسُوْمَة وتعاظم العرب في مصيبتها بأبيها عمرو بن الشريد، وأخويها صخر ومعاوية ابني عمرو وتنشدهم، فتبكي الناس. ومن جميل ما قالت في صخر:

أشم أبلج تأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

لم تَره جارة يمشي بساحتها ... لريبة حين يخلي بيته الجار

وكان صخر أحب إخوتها إليها؛ لما كان عليه من الحلم والجود، والتقدم في عشيرته وفي الشجاعة وجمال الوجه؛ ففتّق الحزن أكمام شاعريتها، فنطقت بشعرها، آهات نفس ملتاعة، ونفثات صدر متألم حزنًا، ودموع قلب جريح.

لكنها لم تنس معاوية فقد ذكرت فيه شعرًا كثيرًا أختار منه أبياتًا ترثيه:

ألا لا أرى في الناس مثل معاوية ... إذا طرقت إحدى الليالي بداهية

ألا لا أرى كالفارس الورد فارسًا ... إذا ما علته جرأة وغلابية

---

(١) التعازي والمراثي ص٩٢.

(٢) تُسَوِّمَ: سَوَّم الفرس جعل عليها السيمة وهي العلامة. والسومة والسيمة والسِّيماء والسيمياء: العلامة الجوهري. والسومةُ بالضم العلامة توضع على الشاة وفي الحرب أيضًا. والخيل المسوّمة: التي عليها السومة وهي العلامة (لسان: سوم).

فأقسمت لا ينفك دمعي وعَوْلتي   عليك بحزن ما دعا الله داعية

رأي النقاد في شعرها :

كان النابغة الذبياني ناقد الجاهلية في عكاظ، تضرب له قبة حمراء من أدم، ويأتيه الشعراء يعرضون أشعارهم، أنشده الأعشى أبو بصير معلقته التي أولها :

ما بكاء الكبير بالأطلال   وسؤالي وما ترد سؤالي

ثم جاء حسان بن ثابت فأنشده ثم توالى الشعراء واحداً تلو الآخر وأخيراً جاءته الخنساء السُلمية فأنشدته :

قذى بعينكِ أم بالعين عوار   أم ذرفت إذ خلت من أهلها الدار

فقال النابغة : والله لولا أن أبا بصير أنشدنا آنفًا، لقلت إنك أشعر الجن والإنس. فقال حسان غاضبًا وقد أزعجه تعليق النابغة على شعر الخنساء، وشعر الأعشى، وإهماله لشعر حسان. قال غاضبًا : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ومن جدك. فقبض النابغة على يد حسان وقال له : يابن أخي إنك لا تحسن أن تقول مثل قولي :

فإنك كالليل الذي هو مدركي   وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ثم قال للخنساء : أنشديه، فأنشدته فقال ـ القول لحسان ـ : والله ما رأيت امرأة أشعر منك فقالت له : والله ولا رجل[1].

وبعد الخنساء ببضع عشرات من السنين كان جرير يقول : أنا أشعر الناس لولا الخنساء.

---

(١) الشعر والشعراء ص ٢١٨.

ورغم سذاجة معانيها وتكرارها، ومغالاتها في وصف حزنها ومناقب أخيها صخر بخاصة فإن شعرها محبب، قريب إلى القلوب بما فيه من عاطفة صادقة ملتهبة ولوعة عميقة، وبما فيه من وفاء أخوي صادق.

ويروى أن حسان بن ثابت دخل على النابغة فتلقته الخنساء خارجة من عنده فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل

يُغشَوْن حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل

فقال (أي النابغة): إنك لشاعر، وإن أخت بني سُليم لبكّاءة.

وسئل جرير مَنْ أشعر الناس؟ قال: أنا لولا هذه الخبيثة؛ يعني الخنساء. وقال بشار بن برد فيها: لم تقل امرأة قط شعراً إلا تبين فيه الضعف فقيل له: أوكذلك الخنساء؟ قال: تلك فوق الرجال.

وهي من شواعر العرب المعترف لهن بالتقدم، وقد أجمع الشعراء والرواة القدماء، على أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر في الرثاء منها، وعدوها في الطبقة الثانية.

موقف الخنساء من مقتل أخويها:

في الجاهلية تركت الخنساء لدموعها العنان؛ فجعلتها تنصب من عيونها انصبابًا، فتجلس في المجلس بين الناس فتبكي وتثير عواطفهم، فيبكون وينتحبون وتراهم جميعًا يشاركونها عواطفها، فتزيد من تأثرها وتطلق عنان الحزن على غاربه، ولاسيما أن الناس يبكون معها ويبكون لها وهم كذلك يبكون لأنفسهم، فكل فرد في الدنيا ملتاع ذو مصائب وتذكره مصائب

الآخرين بمصيبته، بعد أن كان قد نسيها أو تناساها. وانطلقت أكثر فكانت تقف في ساحات القوم تبكي وتقول الشعرفيشاركها الناس فيبكون معها.

في الجاهلية بالغت في وصف مصيبتها حتى مرضت عيناها فقالت:

قذى بعينك أم بالعين عُوّار أم ذرفت إذ خلت من أهلها الدار

وقالت:

تبكي خناس على صخر وحق لها إذ رابها الدهر إن الدهر غرار

وقالت:

وما يبكون مثل أخي ولكن أعزي النفس عنه بالتأسي

وبلغ الحد بالخنساء أنها ستقتل نفسها حزنًا على أخيها فلا رادع يردعها ولا مانع يمنعها.

يذكرني طلوع الشمس صخرًا وأذكره لكل غروب شمس

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

لكنها رأت كثرة النساء الباكيات والرجال الباكين على إخوانهم، فلم تقبل لنفسها أن تشذ عنهم فتقتل نفسها، فانضمت إلى صفوفهم حزينة باكية تبكي لها ولهم، وعليها وعليهم. ثم تعود وتفضل صخرًا على كل من مات فتقول:

وما يبكون مثل أخي ولكن أعزي النفس عنه بالتأسي]

ثانيًا: موقفها في القادسية:

رافقت الخنساء أبناءها الأربعة إلى القادسية وهم: يزيد ومعاوية وعمرو وعمرة فكانت تشجعهم وتبث فيهم الحماس، وتحرضهم على النزال في المعارك، وتأمرهم بالدعوة إلى دين الله.

وقد سجل التاريخ لها خطبة رائعة قالتها لأبنائها قبل خروجهم للحرب في القادسية، قالت لهم من أول الليل:

«يا بَنيَّ إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين. ووالله الذي لا إله إلا هو؛ إنكم لبنو رجل واحد كما إنكم بنو امرأة واحدة، ما خنتُ أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجنتُ حسبكم، ولا غيرت نسبكم. وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين. واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فإن أصبحتم غدًا إن شاء الله سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين. فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، واضطرمت لظىً على سياقها[١] وحللت نارًا على أوراقها فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها، عند احتدام خميسها؛ تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة»[٢].

فهل هنالك إيمان كإيمانها وتشجيع على الحرب كتشجيعها؟ واستهانة

---

(١) أي الذين ساقوها.

(٢) الاستيعاب ٤/ ٢٩٦.

بالموت كاستهانتها، وأمل بدار الخلد وجنان الله الواسعة كما تأمل؟

ومادام كلامها قد صدر من قلب صادق، ومن مشاعر مؤمنة، فإنه سيقع في قلوب مسلمة، عميقة الإيمان، قوية الثقة بالله، لذا فإن أبناءها خرجوا في اليوم التالي، وقد ملأت نصائح أمهم العجوز نفوسهم فصمموا أن يقبلوا نصحها، وعزموا أن ينفذوا قولها، وألا يفروا من المعركة مهما تكن النتائج أو ينتصروا.

أخذوا مواقعهم في المعركة، ووميض الاستشهاد يبرق أمام أعينهم. وبدؤوا يكرون ويستبسلون وكلام أمهم العجوز قد اختلط بدمائهم ونبض في عروقهم.

هجم الأول ثم الثاني ثم الثالث ثم الرابع وكان الاستشهاد نصيبهم جميعًا ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾.

[آل عمران: ١٦٩]

كان كل واحد منهم يخوض غمار المعركة وهو يقول أبياتًا من بحر الرجز يذكر فيها أمه وأقوالها له. قال الأول:

يا إخوتي إن العجوز الناصحة   قد نصحتنا إذ دعتنا البارحه

مقالةً ذات بيان واضحة   فباكروا الحرب الضروس الكالحه

وإنما تلقون عند الصائحة   من آل ساسان الكلاب النابحه

قد أيقنوا منكم بوقع الجائحة   وأنتم بين حياة صالحه

أو ميتة تورث غنمًا رابحه

وتقدم فقاتل حتى قتل رحمه الله.

ثم حمل الثاني وهو يقول:

إن العجــوز ذات حــزم وجلــد والنظـر الأوفـق والـرأي السـدد

قــد أمــرتــنا بالسداد والرشــد نصيحــة منهــا وبــراً بــالــولــد

فباكروا الحرب حماة في العــدد إمــا لفــوز بــارد علــى الكبــد

أو ميتــة تــورثكــم عــز الأبــد في جنة الفـردوس والعيـش الرغد

وقاتل حتى استشهد.

ثم حمل الثالث وهو يقول:

والله لا نعصــي العجــوز حــرفًــا قــد أمــرتنــا حــربًــا وعطفــا

نصحًــا وبــراً صــادقًــا ولطفًــا فبـادروا الحـرب الضـروس زحفـا

حتــى تلفــوا آل كســرى لفًــا أو يكشفوكـم عـن حماكـم كشفـا

إنـا نـرى التقصيـر عنكـم ضعفًـا والقتــل فيكــم نجــدة وزلفــى

فقاتل حتى استشهد.

ثم حمل الرابع وهو يقول:

لســت لخنســاء ولا للأخــرم ولا لعمــرو ذي السنـاء الأقــدم

إن لـم أرد في الجيش جيش الأعجم مـاض على الهـول خضـم خضـرم

إمــا لفــوز عــاجــل ومغنــم أو لــوفــاة فــي السبيــل الأكــرم

فقاتل حتى قتل رحمة الله عليه وعلى إخوته.

وتردد الناس في نقل الخبر لتماضر السلمية؛ ظنًا منهم أنها سوف تصعق

إذا سمعت باستشهادهم جميعًا. وقد علموا أنها امرأة بكاءة، وأنها بقيت طوال حياتها وهي تبكي معاوية وصخراً. وليس القتيل واحدًا، وليسا اثنين ولا ثلاثة، لكن القتلى أربعة وهذا ما سيذهب بعقل الأم البكاءة، وقد تصاب بصدمة تذهب بحياتها. لكن الذي حصل كان يذهل العقول، جاءها أحد المحاربين يبلغها مقتل أبنائها، واحدًا تلو الآخر، حتى يخفف عنها هول المصيبة، لكنه فوجئ بثبات المرأة المؤمنة الصابرة حيث قالت: (الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته) فكان هذا القول نموذجًا لأقوال الأم المسلمة الصابرة المثالية، ولو أنه كتب بماء الذهب ووضع في كل بيت مسلم، أو أنه نقش على رخام وأعطي لكل مسلم، يذكره بما فعلته تماضر السلَمية لكان قليلاً على هذا الكلام.

رحم الله الخنساء ورضي عنها، فإنها بحق سيدة النساء؛ فقد نقلها الإسلام من امرأة شاعرة تفيض دموعها غزيرة على أخويها صخر ومعاوية، إلى امرأة صابرة محتسبة. إن مقتل ابن واحد يجعل الثكلى هائمة تائهة، فكيف بمقتل أربعة هم فلذات أكبادها؟ ما الذي يمنع تماضر أن تفعل ما فعلته في الجاهلية؟ تبكي وتُبكي من حولها؟ أليس ذلك بسبب إيمانها الصادق، وفرحتها الكبرى، أن أولادها سبقوها إلى الجنة.

إنها امرأة رائدة بكل ما في هذه الكلمة من معنى[١].

ثالثًا: صور من شجاعة المرأة في الجهاد[٢]:

لقد ثبت أن بعض النساء شاركن في الجهاد في عهد رسول الله ﷺ، وصحبن الجيوش الإسلامية.

---

(١) نساء رائدات ص (٦٩ ـ ٧٣).

(٢) صور من شجاعة المرأة في الجهاد ص (٤٩ ـ ٥٦) أسعد الطيب.

فأحببت أن أختم هذا البحث بصور من شجاعتهن ونضالهن.

(خروج أم المؤمنين عائشة) :

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع بين نسائه فأيتهن يخرج بسهمها خرج بها النبي ﷺ، فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي فخرجت مع النبي ﷺ بعدما أنزل الحجاب[١].

(خروج الربيع بنت معوذ) :

عن الربيع بنت معوذ، قالت: (كنا نغزو مع النبي ﷺ فنسقي القوم، ونخدمهم ونرد الجرحى والقتلى إلى المدينة)[٢].

(خروج أم عطية) :

عن أم عطية الأنصارية[٣]، قالت: (غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات أخلفهم في رحالهم فأصنع لهم الطعام وأداوي الجرحى، وأقوم على المرضى)[٤].

(خروج عائشة وأم سليم) :

عن أنس قال: (لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ، قال: ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم[٥]، وإنهما لمشمرتان، أرى خدم سوقهما،

---

(١) صحيح البخاري كتاب الجهاد، باب حمل الرجل امرأته في الغزو ٣/ ٢٢١.
(٢) البخاري كتاب الجهاد، باب مداواة النساء الجرحى ٣ / ٢٢٢.
(٣) أم عطية: نسيبة بنت الحارث، الإصابة ٤ / ٤٧٦.
(٤) مسلم كتاب الجهاد، باب النساء الغازيات ٣ / ١٤٤٧.
(٥) بنت ملحان بن خالد الأنصارية وهي أم أنس خادم رسول الله ﷺ واشتهرت بكنيتها، الإصابة ٤/ ٤٦١.

تنقران القرب، وقال غيره تنقلان القرب على متونهما ثم تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانها في أفواه القوم)[١] .

(خروج أم سليم ونسوة من الأنصار) :

عن أنس بن مالك قال: (كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سليم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا فيسقين الماء ويداوين الجرحى)[٢] .

(قتال أم سليم) :

عن أنس أن أم سليم اتخذت يوم حنين خنجراً فكان معها فرآها أبو طلحة، فقال: يا رسول الله هذه أم سليم معها خنجر، فقال لها رسول الله ﷺ : «**ما هذا الخنجر؟**» قالت: اتخذته إن دنا مني أحد المشركين بقرت به بطنه. فجعل رسول الله ﷺ يضحك.

قالت: يا رسول الله أقتل من بعدنا من الطلقاء انهزموا بك، فقال رسول الله ﷺ : «**يا أم سليم إن الله قد كفى وأحسن**»[٣] .

في هذا الحديث ما يدل على أنها لا تقاتل إلاَّ بقصد المدافعة، وليس أنها تطلب مبارزة العدو.

(قتال أم عمارة يوم أُحد) :

عن سعيد بن أبي زيد الأنصاري: أن أم سعد بنت سعد بن الربيع

---

(١) البخاري كتاب الجهاد، باب غزو النساء ٣/ ٢٢١ .

(٢) مسلم كتاب الجهاد، باب غزو النساء ٣ / ١٤٤٣ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٤٦ .

رضي الله عنهما كانت تقول: (دخلت على أم عمارة فقلت لها: يا خالة أخبريني خبرك. فقالت: خرجت أول النهار أنظر ما يصنع بالناس ومعي سقاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه والدولة والريح للمسلمين فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ فقمت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف، وأرمي عن القوس، حتى خلصت الجراح إليَّ. قالت: فرأيت على عاتقها جرحًا أجوف له غور، فقلت لها: من أصابك بهذا؟ قالت: ابن قمئة، أقمأه الله، لما ولى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل يقول: دلوني على محمد، لا نجوت إن نجا، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ فضربني هذه الضربة، ولقد ضربته على ذلك ضربات ولكن عدو الله كانت عليه درعان)[1].

(قتال أم أيمن):

ذكر الواقدي: (أنه لما انهزم المسلمون في يوم أحد وولى بعضهم ولقيتهم أم أيمن ناكصين حثت التراب في وجوههم وقالت لبعضهم: هناك المغزل اغزل به وهات سيفك، وأسرعت إلى الموقعة مع بعض النساء)[2].

(قتال صفية يوم أُحد):

إن صفية رضي الله عنها جاءت يوم أحد وقد انهزم الناس وبيدها رمح تضرب في وجوههم فقال النبي ﷺ: «**يا زبير المرأة**»[3].

(١) حياة الصحابة للكاندهلوي ١/ ٥٩٥.

(٢) المغازي للواقدي ص٢٧٢.

(٣) حياة الصحابة للكاندهلوي ١/ ٥٩٦.

(شهادة عمير بن أبي وقاص) :

عن سعد رضي الله عنه قال : رأيت أخي عمير بن أبي وقاص قبل أن يعرضنا رسول الله ﷺ يوم بدر يتوارى ، فقلت : مالك يا أخي؟ قال : إني أخاف أن يراني رسول الله ﷺ فيستصغرني فيردني ، وأنا أحب الخروج لعل الله أن يرزقني الشهادة ، فقال : فعرض على رسول الله ﷺ فرده ، فبكى فأجازه .

فكان سعد رضي الله عنه يقول : فكنت أعقد حمائل سيفه من صغره فقتل وهو ابن ست عشرة سنة[1] .

(وفي عصرنا الحالي) :

على أرض فلسطين الحبيبة وغيرها من ديار المسلمين المحتلة أو التي يُضطهد أهلها فيها كان هذا المثال الرائع في الفداء والتضحية والبطولة .

فتحت عنوان « مناضلة من فلسطين »

كتبت جريدة « آفاق عربية » تقول :

ذكية شموط امرأة فلسطينية ضاع وطنها ولكنا آثرت أن تحتفظ بأطلاله داخلها ، لتحمله فوق رأسها أمتعة قليلة أثناء تهجيرها من مخيم إلى مخيم ، وتسكبه في آذان أطفالها حكايات تجسيداً للمأساة . فتحت أعينها على مشاهد التشريد والتنكيل ولا تنسى أبداً لحظة قيام أحد الغزاة بفقوء عين أبيها ، عاشت كأغلب جيلها في خيام سقفها السماء ملتحفة بالهواء ومفترشة بالحصى .

---

(١) مجمع الزوائد ٦/ ٦٩ ، ورجاله ثقات .

قد تراها حكاية غريبة ومثيرة، ولكنها سطر معتاد ومنطقي داخل دفتر النضال الفلسطيني، وهي في نفس الوقت ذات ملف إجرامي داخل أرشيف سلطات الاحتلال، حيث يلقبونها «بالأم الدموية».

عرفت مبكرًا طريق النضال وشقت نهر المقاومة وقتلت وحدها عشرات الصهاينة بخلاف المصابين لتقضي ثمنًا لذلك أربعة عشر عامًا داخل السجون الصهيونية. وتبلغ المأساة مداها في قصة هذه السيدة، حيث لم تكتف العصابات الصهيونية بالسجن عقابًا لها تنكيلاً، ففرقوا شملها، وحرموها من أطفالها، ونزعوا رضيعها بعدما بلغ العامين لتخرج بعد ذلك ـ كما خططوا ـ وهي محطمة الجسد، ومحطمة القلب لتجني ثمرة ما اقترفت يداها من نضال. ولكنها خرجت أقوى من كل جلاديها وأكثر حرية من كل سجانيها وبدأت رحلة جديدة تبحث فيها عن أطفالها في شتات التغريب لتعيش الشتات مرتين؛ شتات الوطن وشتات الأبناء. حاورناها فكانت السطور التالية:

*** كيف جاءت معرفتك بالجماعات الفدائية والانضمام إليها؟**

عندما احتل اليهود الضفة الغربية سنة ١٩٦٧ أراد زوجي الاطمئنان على أقاربه في «الناصرة» وهناك رأى يهوديًا يحاول أخذ فرس أحد الفلسطينيين بالقوة ولا أحد يستطيع الدفاع عنه فتقدم زوجي وضرب اليهودي وتم القبض عليه وسجنه. وفي سجن رام الله التقى زوجي مع مجموعة الفدائيين المسجونين وعبَّر عن رغبته في الانضمام إليهم، فطلبوا منه بعد الخروج من السجن الذهاب مباشرة لسوريا والالتقاء بشخص فلسطيني يدعى «أبو حلمي

الصابرين» وبالفعل بعد خروجه بأسبوعين ذهب لهضبة الجولان بسوريا دون أن يخبرني بأي شيء.

وهناك سلموه السلاح وطلبوا منه أن يعود به لفلسطين حتى يتصلوا به عن طريق نداء استدعاء برقم معين في الأخبار عندما يسمعه لابد أن يسافر لسوريا وعندما عاد زوجي وقص لي الحكاية قلت له لقد جاء يوم الانتقام وأعربت عن رغبتي في المساعدة وطلبت منه أن تكون أول عملية فدائية في بلدي حيفا التي طردوني منها.

وبالفعل ذهبنا لاستكشاف المكان بحيفا فوجدنا سيركًا بلغاريًا يلعب فيه اليهود وبجانبه يوجد شخص يبيع البطيخ فحددنا ميعاد العملية وتم وضع القنابل في البطيخ وفي الشال الذي كنت أرتديه. وذهبت للسيرك وقطعت تذكرة دخول للسيرك وكان معي ابني الذي لم يتعد التسعة أشهر والسلة التي كانت تحتوي على البطيخ وبعض أنواع الفواكه الأخرى، وعندما جلست في المدرجات ووضعت السلة بجانبي، طلبت من سيدة يهودية أن تمسك ابني حتى أخلع الشال عني وعندما أخذت الطفل منها حركته بطريقة تجعل زجاجة الحليب التي في فمه تسقط وفي تلك اللحظة ظل ابني يصرخ فطلبت من السيدة اليهودية الاعتناء بالشال والسلة حتى أحضر زجاجة حليب أخرى بحجة أن صراخ الطفل لن يمكننا من المشاهدة والفرجة وبالفعل أخذت «عامر» وخرجت من السيرك وأنا في طريقي للناصرة سمعت صوت الانفجار وسمعت الناس تصرخ وتقول قنبلة في البطيخة وكانت تلك أسعد لحظة في حياتي.

*** ما هي العملية الفدائية التي لن تنسيها أبدًا ؟**

كل العمليات الفدائية التي قمت بها أتذكرها جيدًا ولكن عملية «سوق العافولة» من أحب العمليات لقلبي ، بالرغم من أنها كانت العملية الأخيرة ، فـ«سوق العافولة» هذا يقع في منطقة «مرج بن عامر» بجوار جنين وكان يوم الاثنين هذا مخصصًا لبيع التفاح الجولاني الذي يأتي من الجولان على سيارات الجيش الإسرائيلي المخصصة لنقل الأسلحة والمعدات للجنود وكانت نقود هذه البضائع مخصصة لتمويل الجيش الصهيوني . وفي يوم الاثنين المحدد لتنفيذ العملية ذهبت إلى «سوق العافولة» واشتريت أربع سلات من التفاح ووزعت خمسين كيلو من المتفجرات على ثلاث سلات منها وعندما تمتلئ سلة أضعها في أحد أركان سيارة من السيارات التي كانت تحمل التفاح إلا السلة الأخيرة جعلتها في يدي حتى لا ألفت الأنظار وكان من المفترض أن أخرج من السوق في خلال ستين دقيقة من دخولي إليه ، وبعد خروجي بحوالي خمسين مترًا سمعت صوت الانفجار وعندما نظرت خلفي رأيت مئات الصهاينة يصرخون «فدائيين . . . فدائيين» ورأيت الناس في الهواء فأصابتني هيستريا البكاء والفرحة في لحظة واحدة .

*** لماذا قررت التوقف عن القيام بالعمليات الفدائية ؟**

في الحقيقة لقد كنا نقوم بالعمليات الفدائية في فلسطين وتتبناها التنظيمات الفلسطينية في سوريا وتعلن مسئوليتها عنها . وعندما قمت بعملية سوق العافولة كان هناك استدعاء لزوجي في سوريا وهناك قاموا بتعذيب زوجي واتهموه بالجاسوسية وخداعهم وكانت أدلتهم منحصرة في السؤال عن

السلاح الذي أخذه منهم وإنه لم يقم بأي عملية فدائية ولم يصدقوه عندما قال إن السلاح كان يستخدمه معي في القيام بالعمليات الفدائية وحكموا عليه بالإعدام ولكنه طلب منهم الانتظار في تنفيذ الحكم حتى يوم الاثنين وأخبرهم بالعملية التي سأقوم بها وتفاصيلها.

وعندما حدث الانفجار عرفوا أن زوجي بريء من التُّهم التي نسبوها إليه وقاموا بالإفراج عنه وطلبوا منه تكوين جماعة من الشباب داخل فلسطين لمساعدتنا في القيام بالعمليات الفدائية، وعندما عاد زوجي كان جسمه تقريبًا مسلوخًا من التعذيب وعرفت بتفاصيل ما حدث وهنا قررت عدم القيام بأي عمليات أخرى واكتفيت بنقل السلاح للفدائيين داخل فلسطين.

*** كيف عرف اليهود هويتك وما هي تفاصيل القبض عليك؟**

بعد خمس سنوات من التوقف عن القيام بالأعمال الفدائية قام أحد الشباب المجندين في مجموعة زوجي الفدائية بعمل مجموعة من القنابل لاصطياد الأسماك بها، وفي تلك الأثناء قبض عليه الصهاينة وسألوه عن مصدر المتفجرات وقاموا بتعذيبه وعندما قطعوا ساقه اعترف أنه يعمل في مجموعة فدائية ينظمها زوجي «محمود شموط» وتلك المتفجرات تصنع في روسيا وتأتي على سوريا ومنها لفلسطين. وجاءت القوات الإسرائيلية تبحث عن زوجي وكان في ذلك الوقت بسوريا يقوم بإخفاء شخص من مدينة «عكا» يدعى أحمد عبد العال يبحث عنه الإسرائيليون، والذي استشهد فيما بعد في عملية فدائية نهرية وأخبرتهم أني على خلاف معه ولا أعرف مكانه، ولكن الشاب المقبوض عليه أخبرهم بالحقيقة فصنعوا له كمينًا في هضبة الجولان

وبالفعل تم القبض عليه ومعه مجموعة من المتفجرات، هنا تم فتح ملف عملية «حيفا» عندما تذكر أحد الضباط قول أحد الأشخاص بأن هناك سيدة خرجت من السيرك قبل الانفجار مباشرة وكان معها طفل لم يتعد عمره العام. فاتجهت الشكوك نحوي وهاجموا الدار في الثالثة صباحًا وأخذوني وتركوا أولادي، وفي السجن التقيت بأهلي مقبوضًا عليهم وبالسؤال عما حدث لم أجد إجابة إلى أن قامت سيدة مسيحية بإخباري بالقبض على زوجي على الحدود ومعه متفجرات وهنا أدركت أنهم علموا بالأمر.

*** ماهي تفاصيل إجبارك على الاعتراف وهل كانت هناك أي عمليات تعذيب؟**

عندما سألوني عن عملية حيفا أنكرت صلتي بها ولم يؤثر التعذيب لحظة واحدة على قراري بعدم الاعتراف ولكنهم جاءوا بأطفالي الثلاثة «عامر - مسعود - دولت» وكان أكبرهم ابن الأربع سنوات وقاموا بتعذيبه أمامي حتى فقد الوعي وضعف جسمه من شدة التعذيب، وكانوا يقولون إذا لم تعترفي سوف نقتل ابنك وعندما جاء الدور على ولدي مسعود لم أستطع التحمل واعترفت.

*** هل طلبت منك السلطات الإسرائيلية الحصول على معلومات معينة وهل نجحت في ذلك؟**

نعم فبعد اعترافي بعملية حيفا طلبوا مني إرشادهم عن باقي العناصر الفدائية وعمن قاموا بعملية «سوق العافولة» مقابل الإفراج عني وعن زوجي وإعطائي مبلغ مائة ألف دولار ولكني رفضت ذلك.

*** كيف تمت محاكمتك أمام المحاكم الإسرائيلية وما هي التهمة الموجهة إليك؟**

وجهوا لي تهمة الخيانة العظمى حيث اعتبروني إسرائيلية لأني من حيفا وأتذكر جيداً لحظة وقوفي أمام الحاكم الإسرائيلي وعندما نظر لي وقال: كيف قمت بتلك العمليات وأنت أم لثلاثة أطفال؟ لحظتها نظرت إليه وقلت له: نعم أم ولكن أم غير طبيعية شردتموها وهي ذات الثلاث سنوات وقتلتم أهلها أمام عينيها وكنتم السبب في حرمانها من التعليم وعاشت حياتها مطرودة، هنا نظر لي الحاكم ولم يتفوه بكلمة واحدة.

*** كيف تم الإفراج عنك إذن؟**

لقد قضيت بالسجن أربعة عشر عامًا، في هذه المدة حاولت الجماعات الفدائية الإفراج عني وعن زوجي، وكانت إسرائيل تردد دائمًا «إلا تلك المرأة لن تخرج حية من السجن أبداً» إلى أن جاء شهر نوفمبر عام ١٩٨٣ حيث تم أسر ستة جنود إسرائيليين في بيروت وعرضت إسرائيل المبادلة، ووافقت السلطة الفلسطينية بشرط أن أكون أنا وزوجي ضمن المفرج عنهم وبعد أربع ساعات من المحادثات جاء رد إسرائيل بالموافقة وقامت عملية المبادلة في مصر، وفي خلال أربع وعشرين ساعة قامت السلطات المصرية بترحيلي أنا وزوجي للجزائر عن طريق الصليب الأحمر خوفًا من حدوث عملية اختطاف لنا.

*** من خلال معايشتك للإسرائيليين فماهي طبيعة الجندي الإسرائيلي؟**

الإسرائيلي جبان جداً يحتمي دائمًا وراء سلاحه ويخشى المواجهة إذا لم يكن معه سلاح، يخاف من طفل صغير يحمل حجراً ويحاول الاختباء منه.

*** هل تؤمنين بجدوى المفاوضات التي تجرى بين الطرفين من أجل السلام؟**

تلك المفاوضات تحمل في مضمونها إهداراً للوقت وإذا كان هذا الإهدار لصالح أحد فهو لمصلحة إسرائيل التي تستغل لعبة السلام من أجل كسب الوقت، فإسرائيل لا تريد سلامًا تريد أرضًا، تريد عمل إسرائيل الكبرى، لذلك فمن المستحيل أن يكون هناك سلام فاليهود الذي يقول إنه يبحث عن السلام كاذب، فما فعلوه مع السادات برجوع سيناء «غلطة» تندم عليها إسرائيل حتى الآن ولن تتكرر مرة أخرى وهذا ما أكده شامير عندما سأله تلميذ يهودي عن إمكانية رجوع الجولان لسوريا فضحك بسخرية وقال: لن تعود الجولان حتى لو تقلب حافظ الأسد في الهواء ثماني مرات. فالأراضي المحتلة لن ترجع بالسلام بل بالقوة وهذا ما أثبته التاريخ.

* * *



(١٣)

فاطمة بنت الخطاب وقوة الإيمان

فاطمة بنت الخطاب وقوة الإيمان

لما قال لها أخوها عمر بن الخطاب رضي الله عنه - وكان لا يزال على الشرك - والله لقد أُخبرت أنكما تبعتما دين محمد. وشج رأس أخته وسال الدم على وجهها لما أرادت أن تبعده عن زوجها لما احتدم النقاش بينهما. قالت له: «نعم لقد أسلمنا يا عمر، وآمنا بالله ربًا وبرسوله نبيًا، فافعل ما بدا لك، وكان ذلك رغم أنفك».

* * *

الدروس والعبر

أولاً: من هي فاطمة بنت الخطاب[1] ؟

اسمها ونسبها :

هي فاطمة بنت الخطاب بن نُفيل بن عبد العزى القرشية العدوية. لم تذكر كتب الصحابة تاريخ مولدها ولا تاريخ وفاتها. هي أخت عمر بن الخطاب وزيد بن الخطاب رضي الله عنهما. كُنّيتْ بأم جميل بنت الخطاب. وفي رواية أن اسمها أميمة. وجاء في الإصابة أن اسمها فاطمة ولقبها أميمة وكنيتها أم جميل. والمتفق عليه أنها أسلمت مبكرة مع زوجها سعيد بن زيد.

زوجها سعيد بن زيد[2] :

هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن رباح . . . القرشي العدوي. أمه فاطمة بنت نعجة بن مليح الخزاعي.

كانت زوجته فاطمة بنت الخطاب أخت عمر رضي الله عنه وكانت أخته عاتكة زوجة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

أسلم سعيد قديمًا قبل إسلام عمر وقبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، وكان إسلام عمر رضي الله عنه عنده في بيته. هاجر سعيد إلى المدينة وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ إلا بدرًا؛ لأنه كان يومئذ في الشام يتجسس

(١) نساء رائدات، ص (٧٢-٧٦).

(٢) الاستيعاب ٢ / ٢.

الأخبار لرسول الله ﷺ . وما عاد إلا بعد غزاة بدر فقسم له رسول الله ﷺ سهمه من الغنائم؛ كأنه قد اشترك فعلاً في المعركة .

سعيد أحد المبشرين بالجنة وهم : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة، وكان هؤلاء دائمًا أمام رسول الله ﷺ في القتال، ووراءه في الصلاة[1] .

كان أبوه زيد بن عمرو بن نفيل يطلب الحنيفية ـ دين إبراهيم عليه السلام ـ قبل أن يبعث رسول الله ﷺ . وكان يعبد الله لا يشرك به شيئًا، ويصلي إلى الكعبة . وفي رواية عن أسماء بنت أبي بكر ـ وكانت أكبر من عائشة أم المؤمنين بعشر سنوات ـ قالت : رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسندًا ظهره إلى الكعبة وهو يقول : يا معشرِ قريش، والله ما آكل ما ذُبِحَ لغير الله، والله ما أحد على دين إبراهيم غيري .

وقد ذكر سعيد بن زيد لرسول الله ﷺ خبر أبيه زيد، وكونه على دين إبراهيم عليه السلام، ثم قال لرسول الله ﷺ : إن أبي زيدًا كما قد رأيت وما قد بَلَغَكَ؛ فاستغفر له . قال رسول الله ﷺ : «**نعم أستغفرُ له، فإنه يبعث يوم القيامة أمةً واحدة**»[2] .

مات سعيد بن زيد في العقيق قرب المدينة، فحمل إلى المدينة ودفن فيها سنة ٥٠ للهجرة .

---

(١) الإصابة ٢ / ٤٦ .

(٢) الأُمَّةُ : المعلم . وجاء رجل إلى عبد الله فسأله عن الأمة فقال : معلم الخير . ويروى عن النبي ﷺ أنه قال عن زيد بن عمرو بن نفيل : «يبعث يوم القيامة أمّة على حدة» . وذلك أنه تبرأ من أديان المشركين وآمن بالله قبل مبعث سيدنا محمد ﷺ . وجاء فيه أيضًا : والأمة الرجل المنفرد بدينه لا يشركه فيه أحد . لسان العرب، مادة (أمم) .

وكان عمره آنذاك ثلاثًا وسبعين سنة وذلك أيام معاوية بن أبي سفيان.

يقال عن سعيد إنه كان مجاب الدعوة، وهذا من كراماته رضي الله عنه وقصته مع أروى بنت أويس قصةٌ مشهورةٌ أذكر مختصرها للذكرى:

استَعْدَت[1] أروى بنت أويس سعيد بن زيد، إلى أبي محمد بن عمرو بن حزم وقالت: إن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، قد بنى ضفيرة[2] في حقي؛ فائته فكلمه، فلْينزع عن حقي، فوالله لئن لم يفعل لأصبحَنَّ في مسجد رسول الله. فقال لها: لا تؤذي صاحب رسول الله؛ فما كان ليظلمك أو يأخذ لك حقًا. فخرجت وجاءت عمارة بن عمر وعبد الله بن سلمة فقالت لهما: ائتيا سعيد بن زيد فإنه قد ظلمني، وبنى ضفيرة في حقي، فوالله لئن لم ينزع لأصبحَنَّ في مسجد رسول الله. فخرجا حتى أتياه في أرضه بالعقيق. فقال لهما: ما أتى بكما؟ قالا: جاءتنا أروى بنت أويس، فزعمت أنك بنيت ضفيرة في حقها، وحلفتْ: لئن لم تنزع[3] لتصبحَنَّ في مسجد رسول الله ﷺ؛ فأحببنا أن نأتيك ونذكر لك ذلك، فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من يأخذ شبرًا من الأرض، يطوقُهُ الله يوم القيامة من سبع أرضين**». فَلْتَأْتِ فلتأخذ ما كان لها من حق. اللهم إن كانت كذبتْ عليَّ فلا تُمتْها حتى تعمي بصرها، وتجعل منيتها فيها. فرجعا فأخبراها ذلك. فجاءت فهدمت الضفيرة، وبنت بنيانًا. فلم تمكث إلا قليلاً حتى عميت، وجعلت تمشي في دارها وهي حذرة. فإذا قامت في الليل، قامت ومعها جارية لها تقودها؛ لتوقظ العمال. فقامت ليلة وتركت الجارية، ولم توقظها. فخرجت تمشي

(١) استعدت: استعداه: استنصره واستعان به. لسان، مادة (عدد).

(٢) الضفيرة: بناء من خشب وطين.

(٣) نزع: حَوَّل الشيء عن موضعه. لسان، مادة (نزع).

حتى سقطتْ في البئر فأصبحت ميتة[١] . وفي الاستيعاب أيضًا أن سيلاً جاء فأبدى ضفيرتها فرأوا حقها خارجًا عن حق سعيد بن زيد . فجاء سعيد إلى مروان بن الحكم ـ وكان أيضًا ممن استَعْدَتْه أروى على سعيدبن زيد ـ فقال له : أقسمت عليك لتركبن معي ولتنظرن إلى ضفيرتها . فركب معه مروان وركب ناس معهما حتى نظروا إليها .

هذا وأن أهل المدينة كانوا إذا دعا بعضهم على بعض قالوا : أعماكَ الله كما أعمى الأروى ، يريدونها[٢] .

أخوها عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى القرشي العدوي ، أبو حفص أمير المؤمنين .

أمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة المخزومية . ولد رضي الله عنه بعد الفجار الأعظم بأربع سنين . وذلك قبل المبعث النبوي بثلاثين سنة وكانت إليه السفارة في الجاهلية ، وكان عند المبعث شديدًا على المسلمين ثم أسلم فكان إسلامه فتحًا للمسلمين . قال عبد الله بن مسعود : وما عبدنا الله جهرة حتى أسلم عمر .

وكان رسول الله ﷺ يقول : «**اللهم اشددْ الدين بعمر ، اللهم اشددْ الدين بعمر ، اللهم اشددْ الدين بعمر**» .

وقال عمر رضي الله عنه[٣] : خرجت أتعرَّض لرسول الله ﷺ فوجدته

---

(١) الاستيعاب ٢/ ٨ .

(٢) انظر : المقامات العلية في كرامات الصحابة الجليَّة ص٥٧ ، ٥٨ ، تحقيق عفت وصال حمزة .

(٣) الإصابة ٢/ ٥١٩ .

سبقني إلى المسجد، فقمت خلفه فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أتعجب من تأليف القرآن، فقلت: هذا والله شاعر كما قالت قريش. قال: فقرأ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠، ٤١] فقلت: كاهن. قال: فقرأ: ﴿وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤٢] حتى ختم السورة.

قال: فوقع الإسلام في قلبي كل موقع. وسنذكر بعد قليل خبر إسلامه رضي الله عنه.

وأول من وَلِيَ شيئًا من أمور المسلمين عمر بن الخطاب؛ ولاه أبو بكر القضاء فكان أول قاضٍ في الإسلام، قال له أبو بكر: اقض بين الناس فإنني في شغل. وقال ابن مسعود: لو وضع علم أحياء العرب في كفة ووضع علم عمر في كفة لرجح علم عمر، وكانوا يرون أنه ذهب بتسعة أعشار العلم، ولمجلسٌ كنتُ أجلسه مع عمر، أوثق في نفسي من عمل سنةٍ. والذي سماه بأمير المؤمنين هو المغيرة بن شعبة. قال عمر رضي الله عنه لما ولي الخلافة: كان أبو بكر يقال له خليفة رسول الله ﷺ فكيف يقال لي خليفة خليفة رسول الله؛ يطول هذا. فقال له المغيرة بن شعبة: أنت أميرُنا ونحن المؤمنون فَأنت أمير المؤمنين.

قتل عمر يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة. وكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر، قتله أبو لؤلؤة؛ طعنه وطعن معه اثني عشر رجلاً فمات ستة منهم، فرمى رجل من أهل العراق على أبي لؤلؤة برنسًا ثم برك عليه، فلما رأى أنه لا يستطيع أن يتحرك وجأ نفسه فقتلها.

(١) نساء رائدات، (ص٧٦-٨٤).

أبناؤها :

ولدت فاطمة لسعيد بن زيد ولده جميلاً فكانت تكنى بأم جميل وابنه عبد الرحمن . ولم يُذكر أن لها ولدًا غيرهما .

ثانيًا: إسلامها ودورها في إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه[١] :

إسلامها :

كانت فاطمة بنت الخطاب ، من فُضْلَيات النساء وأعقلهن ، علمت بمبعث النبي ﷺ فآمنت . وهي التي كانت تعيش في أسرة على دين إبراهيم تنكر عبادة الأصنام ، ولا تقتنع بها دينًا ولا تأكل لحمًا ذُبح على الأنصاب ، فعمّها زيد بن نفيل وكذلك زوجها سعيد بن زيد غير مقتنعَيْن بما تعبد قريش . فالتربة ملائمة لتستقبل بذور الإسلام فتنمو وتترعرع . ولهذا فإن فاطمة اقتنعت بالله ربًا وبمحمد نبيًا ثم جاءت إلى زوجها سعيد تعلمه بالنبأ فآمن فورًا[٢] .

فالبيئة واحدة والتفكير واحد ، فأبوه وعمها زيد بن نفيل ، هو الذي أعلن مستندًا على جدار الكعبة وعلى مسامع الناس جميعًا : يا معشر قريش والله ما آكل ما ذبح لغير الله ، والله ما أحد على دين إبراهيم غيري . وقد سمعته يقول ذلك أسماء بنت أبي بكر وهي أكبر من أم المؤمنين عائشة بعشر سنوات .

لكن فاطمة كانت تخاف أخاها عمر عليها وعلى زوجها ، وعلى من اعتنق الدين الحنيف ؛ فقد كان عمر رضي الله عنه أشد المعارضين لدين الله ، وكان قويًا شديدًا ، لا يتورع عن البطش بأخته وزوجها إذا سمع بإسلامهما .

(١) نساء رائدات ، ص(٧٦ـ٨٤) .

(٢) بعض المصادر تقول إنها آمنت قبل زوجها ، وبعضها يقول إنه آمن قبلها .

فأخفيا الأمر وشرعا يحفظان القرآن الكريم، فقد أرسل لهما رسول الله ﷺ خبابًا ابن الأرت يعلمهما شؤون دينهما ويحفظهما آيات كتاب الله.

دورها في إسلام عمر رضي الله عنه:

قلنا إن عمر رضي الله عنه كان من أشد المعارضين لدين الله. وكان المشركون قد جعلوه في مقدمة من يدافع عنهم مع أبي جهل. ثم اشتد دفعهم لعمر وأقنعوه بضرورة قتل محمد ﷺ، وهو الذي لا يهاب شيئًا، ولا يمنعه من تنفيذ ما يريد أي مانع؛ فجعلوا عمر يتوهّج من الانفعال، فقام والشر يتطاير من عينيه.

مضى على إسلام حمزة بن عبد المطلب ثلاثة أيام. حين خرج عمر من بين المشركين ثائرًا غاضبًا، متجهًا نحو مكان محمد ﷺ. يريد أن يحسم الموقف بقتله فيقضي على كل خلاف. تقلد سيفه، وعيناه تتطايران شررًا من شدة ثورته وغضبه. لقيه رجل من بني زُهرة اسمه نعيم بن عبد الله. قال له: أين تريد يا عمر؟ وما الذي قلدك سلاحك وأغضبك؟ قال: أريد قتل محمد؛ هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش، وسفه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها. قال له نُعيم: والله لقد غرَّتك نفسك من نفسك، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض؟ وقد قتلت محمدًا؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم. قال: وأي أهل بيتي؟ قال: خَتَنُك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله أسلما، وتابعا محمدًا على دينه فعليك بهما.

وفي رواية أن نُعيمًا قال له: وكيف يا عمر تأمن على نفسك من قبيلة بني هاشم وبني زهرة إن قتلته. فكر عمر قليلاً وقال: بني زهرة؟! إن الرجل من بني زهرة؛ فوجه كلامه للرجل وقال: ما أراك إلا صبوت. قال الرجل:

هل أدلك على أعجب من إسلامي أنا؟ قال عمر: وما هو؟ قال: قد فعل ذلك من هو أعظم عليك حقًا مني. قال عمر: ومن هو؟ قال: إن ختنك سعيد بن زيد وأختك فاطمة قد صبوا أيضًا، وتركا دينك، ودين آبائك وأجدادك. دهش عمر من قول نعيم، واشتد غضبه أضعافًا مضاعفة، مما لا عهد له به وقال: لئن كان كلامك حقًا لأقتلنهما.

اندفع عمر إلى منزل أخته وهو يتفجر غيظًا، وتصميمًا على قتلهما إذا صدق الرجل الزُهري.

كان خَبَّابُ ابن الأرت معلمُ فاطمة وزوجها، في البيت يقرأ لهما القرآن، بصوته المؤثر.ويعيدان من ورائه الآيات؛ آيات سورة طه.

وصل عمر إلى دار أخته، فوجد الباب مغلقًا وأنصت إلى أصوات في الداخل فضرب الباب، ونادى أخته فما أن سمع صوتَه خَبّابٌ حتى اختبأ في مخدع لهم، أو في بعض البيت. وأخفت فاطمة صحيفة القرآن تحت فخذها.

دخل عمر وقال: ما هذه الهينمة التي سمعتها؟ قالا: ما سمعت شيئًا. قال عمر: بلى. والله لقد أُخبرتُ أنكما تبعتما دين محمد. قال سعيد: ومن أخبرك بذلك؟ ثم اشتد النقاش بينهما حتى لم يعد عمر يستطيع صبراً على كلام سعيد، فهجم عليه ليبطش به. فخافت فاطمة من احتدام الشر بينهما، فأسرعت نحو أخيها تبعده عن زوجها. عند ذلك أخذ عمر برأسها ودفعها نحو الجدار وضربها، فَشُجَّ رأسها وسال الدم على وجهها.

أعطى الله فاطمةَ قوةً ما عرفتْها في نفسها طوال حياتها، فقالت بأعلى صوتها: نعم لقد أسلمنا يا عمر، وآمنا بالله ربًا وبرسوله نبيًا فافعل ما بدا لك، وكان ذلك رغم أنفك.

حين رأى عمر الدمَ يسيل على وجه أخته، استحيا أنه ضرب امرأة، وأي امرأة؟ إنها أخته فاطمة. فندم على ما فعله وأحس بأنه متسرع في موقفه ذاك فحاول تهدئة أعصابه. ثم قام لأخته يمسح دمها ويقول لها بمنتهى الوداعة: أروني الكتاب الذي كنتم تقرؤون حتى أرى بماذا جاء محمد ـ وكان عمر كاتبًا ـ قالت فاطمة خائفة: إننا نخشاك يا عمر عليها. فأقسم عمر بآلهته أنه سيرد الصحيفة بعد قراءتها.

طمعت فاطمة بإسلام أخيها، وأحست بعاطفة الأخوة تطغى على كل ألم ذاقته. إنها تريد أن تهدي من أحبت والوقت قد حان لذلك. قالت لنفسها: هيا يا فاطمة أقدمي. قالت: يا أخي، يمكنني أن أعطيك إياها، ولكن ديننا يقول عن هذا الكتاب: ﴿ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٩] وأنت نجس على شركك، ولست أهلاً أن تمسك به، فقم واغتسل. خلع عمر سيفه، وقام واغتسل ثم عاد وقد هدأ كل ما فيه من غضب، وعصبية، ثم أمسك بالصحيفة، وراح يقرأ فيها: ﴿ طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢) إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٣) تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ١ ـ ٥] وما قرأ أول السورة حتى قال: ما أحسن هذا الكلام وما أكرمه، واستمر يقرأ حتى أنهى السورة وقد بُهر بها.

كادت فاطمة تطير فرحًا بكلمات أخيها وكذلك زوجُها. ولما سمع خَبَّاب المختفي قوله خرج من مخبئه وقال له: يا عمر إني لأرجو أن يكون الله خَصَّك بدعوة نبيه فإني سمعته أمس يقول: «**اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب**»، فالله َالله َيا عمر. فقال عمر: فَدُلَّني يا خبّابُ على محمد حتى آتيه فأسلم. فدلَّه على بيت عند الصفا مع نفرٍ من أصحابه.

خرج عمر من الدار متوجهًا إلى الرسول ﷺ، وما وصل إلى المكان المطلوب حتى ضرب الباب عليهم، فقام رجل من أصحاب النبي ﷺ ونظر من خلل في الباب، فرجع إلى رسول الله ﷺ فزعًا وقال: إن هذا يا رسول الله عمرُ متوشِّحًا سيفه. احتار الحاضرون ماذا يفعلون؟ قال حمزة بن عبد المطلب: فَأذنْ له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه.

وله الحق في هذا الكلام فهم كثرة وهو واحد. قال رسول الله: «**ائذن له**».

فأدخله الرجل ونهض رسول الله ﷺ إليه حتى لقيه في الحجرة فأخذ بحجزته[١] أو بجُمْع ردائه[٢] ثم جبذه جبذة[٣] شديدة وقال: «**ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة**». فقال عمر: يا رسول الله جئتك لأؤمن بالله ورسوله، وبما جاء من عند الله. فحمد اللهَ رسول الله ثم قال: «**قد هداك الله يا عمر**»، ثم مسح صدره ودعا له بالثبات.

ثم كبر رسول الله ﷺ تكبيرة؛ عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله أن عمر قد أسلم.

تفرق أصحاب رسول الله ﷺ من مكانهم وقد عزوا في أنفسهم حين أسلم عمر بعد إسلام حمزة بن عبد المطلب وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله ﷺ وينتصفون بهما من عدوهم.

---

(١) حجزته: الحجزة: موضع شد الإزار.
(٢) جُمْعُ ردائه: جُمْع الكف ملؤها. هنا ملأ كفه من ردائه.
(٣) جبذه: لُغَةٌ في جذبه. أي شده.

وتذكر الروايات أن عمر قال حين أسلم :

الحمدُ لله ذي المنِ الذي وَجَبَت ... لـه علينا أياد ما لَها غير[١]

وقد بَدأنا فكذَّبنا فقال لنا ... صدْقَ الحديث نبيٌّ عنده الخبرُ

وقد ظلمتُ ابنة الخطابِ ثم هدى ... ربي عشيةَ قالوا قَد صَبا[٢] عُمَرُ

وقد ندمْتُ على ما كان من زَلَلِ ... بظُلْمها حين تُتلى عندَها السُوَرُ

لمَّا دَعَتْ ربَّها ذا العرش جامدَةً ... والدمُع من عينها عجلانُ يَبْتَدرُ

أيقنْتُ أن الذي تدعوهُ جاهدَةً ... تكاد تسبقُني من عبرة دُرَرُ

فقلتُ أشهدُ أن الله خالقُنا ... وأنَّ أحمدَ فينا اليومَ مشتهرُ

نبيُّ صدقٍ أتى بالحقِ من ثقَةِ ... أوفى الأمانَةَ ما في عودهِ خَوَرُ[٣]

لم يكتف عمر بإسلامه، بل إنه أراد أن يذيع في الناس النبأ، وأن يعلم الجميع أنه أسلم. في حين كان رسول الله وأصحابه يدعون سراً ويعملون خفيةً.

سأل عمر: أي إنسان في قريش أكثر نقلاً للحديث ينشره؟ قالوا: جميل ابن معمر الجمحي، فذهب إليه عمر وتبعه ابنه عبد الله بن عمر وكان غلامًا يافعًا يَعْقلُ ما يرى ويسمع. قال عمر لجميل: أعلمتَ يا جميل أنني قد أسلمتُ؟ ودخلتُ في دين محمد؟ فلم يعلِّقْ جميل، بل انطلق من وقته ينشر الخبر يجر وراءه رداءه. فتبعه عمر وتبعهما عبد الله ـ وهو الذي روى الحديث[٤] ـ

(١) في منح المدح: كلها عبر. ومعنى مالها غيرُ: غيَرُ الدهر: أحواله المتغيرة.

(٢) صبا يصبو: جهل جَهْلَ الفتوة واللهو، لسان، مادة (صبو).

(٣) الخَوَرُ: الضعف.

(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٤٩.

حتى إذا وصلا إلى باب المسجد، صرخ جميل بأعلى صوته: يا معشر قريش - وهم في أنديتهم حول الكعبة - ألا إن عمر بن الخطاب قد صبا. ويقول عمر من خلفه: (كذبَ، ولكني أسلمتُ وشهدتُ أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله).

ثم طَلَحَ[1] عمر فقعد، وقاموا على رأسه (أي أحاطوا به واقفين) وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله لو كنا ثلاثمئة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا. وبينما هم على ذلك، إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حِبْرَة[2] وقميص موشى حتى وقف عليهم فقال: ما شأنكم؟ قالوا: صبا عمر. فقال: فمه[3]، رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون؟ أترون بني عدي بن كعب يسلّمون لكم صاحبهم هكذا؟ خلّوا عن الرجل. قال عبد الله بن عمر - راوي الخبر -: فوالله فكأنما كانوا ثوبًا كُشطَ عنه. قال: فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة: من الرجل الذي زجر القَوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك جزاه الله خيرًا؟ فقال: ذاك - أي بُني - العاص بن وائل السهمي لا جزاه الله خيراً[4].

(١) طَلَحَ: أعيا وتعب.

(٢) الحبرة: ثوب من برود اليمن.

(٣) مهَ: اسم فعل أمر بمعنى كفوا.

(٤) العاص بن وائل السهمي: . . . - ٣ ق هـ: من قريش، أحد الحكام في الجاهلية. أدرك الإسلام وظل على شركه، يعد من المستهزئين ومن الزنادقة الذين ماتوا كفاراً. وهو الذي منع عمر بن الخطاب من قريش حين أظهر عمر إسلامه نحو سنة ٥ ق هـ. قيل في خبر موت العاص: خرج يومًا على راحلته ومعه أبناء له يتنزه ونزل في أحد الشعاب، فلما وضع قدمه على الأرض صاح، فطافوا فلم يروا شيئًا.
وانتفخت رجله حتى صارت مثل عنق البعير ومات. فقالوا لدغته الأرض. الأعلام ٣/ ٢٤٧.

لقد كانت فاطمة بنت الخطاب رضي الله عنها وراء إسلام الفاروق عمر .

وإسلام عمر ليس حدثًا عاديًا ؛ لأنه نقطة انعطاف في حياة الإسلام الفتي . ولكي ندرك قيمة إسلامه رضي الله عنه ، علينا أن نتصور أنه رضي الله عنه لم يسلم وأنه بقي كافرًا فكيف سيكون الأمر؟

إنه عمر الذي كان وزير رسول الله ﷺ وبسببه نزلت آيات كثيرة وهو درعُ الإسلام في حياته عليه الصلاة والسلام ، وهو أول قاض في الإسلام أيام أبي بكر ، ثم صار أمير المؤمنين فيما بعد . شخصيته لها من القيمة ما لها مما تعجز عن ذكره الكتب الكثيرة المؤلفة ، لولا فاطمة التي كانت سبب إسلامه لما برز رضي الله عنه وحمى الإسلام والمسلمين وحكم بلادًا مترامية الأطراف بكل حزم ، ورفق وتحملٍ للمسؤولية كلها بكل ما فيها ، حتى مسؤولية دوابها وحيواناتها فقد أحس رضي الله عنه أنه مسؤول عن كل دابة تزِلُّ أن يسأله الله لِمَ لَمْ تعبد لها الطريق يا عمر؟

إنه عمر الذي قال عنه رسول الله ﷺ :

«**أرحم أمتي أبو بكر ، وأشدهم في أمر الله عمر ...**» إلى آخر الحديث .

ثالثًا: فاطمة بنت الخطاب قدوة نساء المسلمين في الإيمان والدعوة:

إن موقف فاطمة بنت الخطاب من أخيها عمر بن الخطاب موقف فريد يغني عن المئات من المواقف ، ويُسجل لها في صفحات التاريخ موقف المرأة المؤمنة بدعوتها الباذلة له كل شيء بثبات ويقين ، وإيمان صلب لا يتزعزع .

هكذا فلتكن نساء المسلمين الصالحات في بذلهن أوقاتهن وجهدهن وأموالهن من أجل الدعوة إلى الله عز وجل .

إن للمرأة المسلمة في أي عصر وفي أي مكان دورًا في الدعوة يمكن أن تقوم به، لاسيما في البيئات العائلية ووسط جيرانها وزميلاتها، ولهن في أمهات المؤمنين القدوة الحسنة.

قال الله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾.

[الأحزاب: ٣٤]

قال ابن العربي: «أمر الله أزواج رسوله بأن يخبرن بما أنزل الله من القرآن في بيوتهن، وما يرين من أفعال النبي ﷺ وأقواله فيهن، حتى يُبلغ ذلك إلى الناس فيعملوا بما فيه، ويقتدوا به، وهذا يدل على جواز قبول خبر الواحد من الرجال والنساء في الدين»[1].

إن للمرأة دورًا دعويًا داخل أسرتها مع زوجها وأولادها وغيرهم من المحارم، ولها دور دعوي مع قريباتها وأقربائها من المحارم، ولو بموعظة حسنة، أو بإحياء سنة، أو للدلالة على الخير، وأعلى من ذلك أن تقف بجوار زوجها أو أخيها أو ابنها على طريق الثبات في الدعوة إلى الله.

وللنساء المثل الحي في فاطمة بنت الخطاب التي كانت ـ بفضل الله ـ سببًا في إسلام أخيها (فكم من داعية ارتفع إلى المعالي بدفع أخته أو أمه لذلك، والحوادث كثيرة في صفحات التاريخ أو في تجاربنا المعاصرة.

فانظر إلى تأثير بنات المحدث الثقة عاصم بن علي بن عاصم، أحد شيوخ الإمام أحمد بن حنبل، ومن أقرانه شُعبة، وكيف صبر في محنة الإمام أحمد، وتقوى على الثبات عندما كتبن إليه بناته بتثبيته على الحق:

(١) أحكام القرآن (٣/ ١٥٣٨).

يا أبانا: إنه بلغنا أن هذا الرجل أخذ أحمد بن حنبل فضربه على أن يقول: القرآن مخلوق، فاتق الله ولا تجبه، فوالله لئن يأتين نَعْيُك، أحب إلينا من أن يأتينا أنك أجبت.

ومن أمثلة السلف التي اقتدت بها هذه الداعية المسلمة، التابعية الجليلة معاذة بنت عبد الله، زوجة التابعي الجليل، السيد القدوة صلَة بن أشْيَم الذي استشهد هو وولده في معركة واحدة، وقد قال له رجل: (يا أبا الصهباء، رأيت أني أعطيت شهدة وأعطيت شهدتين، فقال تستشهد، وأنا وابني، فلما كان يوم يزيد بن زياد، لَقِيَتْهم الترك بسجستان ٦٢ هـ، فانهزموا، وقال صلة: يا بني ارجع إلى أمك، قال: يا أبه تريد الخير لنفسك وتأمرني بالرجوع، قال: فتقدم، فتقدم حتى أصيب، فرمى صلة عن جسده، وكان راميًا حتى تفرقوا عنه، وأقبل حتى قام عليه، فدعا له، ثم قاتل حتى قُتل..)[١].

أما قصة زوجته فهي كالتالي:

(اجتمع النساء عندها، فقالت: مرحبًا بكن إن كنتن جئتن للهناء، وإن كنتن لغير ذلك فارجعن.. وكانت تقول: والله ما أحب البقاء إلا لأتقرب إلى ربي بالوسائل، لعله يجمع بيني وبين أبي الشعثاء وابنه في الجنة..)[٢].

فانظري ـ أختي الداعية ـ كيف كان دور بنات عاصم في تثبيته على الحق، وكيف كان فعل زوجة صلة مع زوجها وولدها، فلا تبخسي جهدك مع والدك وولدك، ولا تسأمي أو تتواضعي في أن تقومي بالنصح في كل

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٩٩.

(٢) المرجع السابق ٤/ ٥٠٩.

مجال، وأن تبلغي الدعوة لكل رجل، وإياك واستضعاف النفس، فإن الكلمة الصادقة، والنية الخالصة، تصل إلى كل القلوب لا يحجزها حاجز، ولا يصدها عائق)[١] .

* * *

(١) انظر: مسافر في طريق الدعوة، الدكتور عادل الشويخ، ص (٤٧٩ ـ ٤٨١).



(١٤)

امرأة رجل من الأنصار

امرأة رجل من الأنصار

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فبعث إلى نسائه، فقلن: ما معنا إلا الماء، فقال رسول الله ﷺ: «**من يَضُمُّ - أو يُضَيِّف هذا؟**» فقال رجل من الأنصار: أنا، فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ. فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني، فقال: هيئي طعامك، وأصْبِحي سراجك، ونوِّمي صبيانك إذا أرادوا عشاءً.

فهيأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تُصْلح سراجها فأطفأته، فجعلا يريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين.

فلمَّا أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال: «**ضحك الله الليلة - أو عجب - من فعالكما**» فأنزل الله: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[1] [الحشر: ٩].

* * *

(١) رواه البخاري (٣٧٩٨) والسياق له، ومسلم (٢٠٥٤) وغيرهما.

الدروس والعبر

أولاً: معيشة النبي ﷺ وأهل بيته:

هذا الحديث يبين لنا ما كان عليه النبي ﷺ وأهل بيته من الزهد في الدنيا والصبر على الجوع وضيق حال الدنيا، وعدم الضجر أو الشكوى.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما شبع آل محمد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض»[١]. وفي رواية: «ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدِم المدينة من طعام البُر ثلاث ليالٍ تباعًا[٢] حتى قبض».

قال ابن علان رحمه الله: «وهذا لإعراضه عن الدنيا وزهده فيها، ولم يضطره مولاه سبحانه لذلك، بل عرض عليه جبال مكة وبطحاءها تسير معه ذهبًا أينما سار - كما تقدم في الباب قبله - فاختار ذلك إعلامًا بحقارة الدنيا وأنها ليست بحيث ينظر إليها ﷺ تحريضًا لأمته على الزهد فيها والإعراض عما زاد على الحاجة منها.

ولا منافاة - كما قال المصنف في شرح مسلم - بين حديث الباب وحديث أنه ﷺ كان يدخر قوت عياله سنة، لأنه كان يفعل ذلك أواخر حياته، لكن تعرض عليه حوائج المحتاجين فيخرجه فيها، فصدق أنه ادخر قوت سنة وأنهم لم يشبعوا - كما ذكر - لأنه لم يبق عندهم ما ادخره لهم»[٣].

---

(١) متفق عليه.

(٢) تباعًا: أي متتابعة.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (٢/ ٤٣٩).

وعن عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: «والله يا ابن أختي إن كنَّا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أُوقد في أبيات رسول الله ﷺ نارٌ قط، قلت: يا خالة فما كان يُعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان للنبي ﷺ جيران من الأنصار، وكانت لهم منايح[(١)] ، فكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فَيَسْقينا»[(٢)] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «أنه مر بقوم بين أيديهم شاةٌ مَصْلِيَّة[(٣)]، فَدعَوْه فأبى أن يأكل، وقال: خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير»[(٤)]..

وعن أنس رضي الله عنه قال: «لم يأكل رسول الله ﷺ على خِوان[(٥)] حتى مات، وما أكل خبزًا مُرققًا حتى مات»[(٦)] .

وفي رواية له: «ولا رأى شاة سميطًا[(٧)] بعينه قط».

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: «لقد رأيت نبيكم ﷺ وما يجد من الدَّقَل[(٨)] ما يملأ به بطنه»[(٩)] .

---

(١) منايح: جمع منيحة وهي الشاة أو الناقة يعطيها صاحبها رجلاً يشرب لبنها ثم يردها إذا انقطع لبنها.
(٢) متفق عليه.
(٣) مصلية: أي مشوية.
(٤) رواه البخاري.
(٥) هي المائدة ما لم يكن عليها طعام.
(٦) رواه البخاري.
(٧) السميط: هو ما أزيل شعره بماء سخن وشوي جلده، وإنما يفعل ذلك بصغير السن.
(٨) الدقل: رديء التمر.
(٩) رواه مسلم.

وقال سهل بن سعد رضي الله عنه: «ما رأى رسول الله ﷺ مُنْخَلاً من حين ابتعثه الله تعالى، حتى قبضه الله، فقيل له: كيف كنتم تأكلون الشعير غير منخول؟ قال: كنا نطحنه وننفخه فيطير ما طار وما بقي ثرّيناه[١]»[٢] .

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «أخرجت لنا عائشة رضي الله عنها كساءً، وإزارًا غليظًا، قالت: قُبض رسول الله ﷺ في هذين»[٣] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان فراش رسول الله ﷺ من أَدَمٍ حشوه ليف»[٤] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاويًا وأهلُه لا يجدون عَشاءً، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير»[٥] .

ثانيًا: فضيلة إكرام الضيف وإيثاره[٦] :

(بين الكرم والتضحية ارتباط وثيق وصلة قوية؛ فالمجاهد يجود بنفسه - وهذا غاية الجود - والمتحرر من شهوة المال، الباسط يده في أبواب البر والإحسان، قد يكون أقدر على الجهاد؛ لما يؤصله الكرم في النفس من معاني التضحية والإيثار . . .

---

(١) ثرّيناه: أي بللناه وعجناه.

(٢) رواه البخاري.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه البخاري. والأدم: الجلد المدبوغ.

(٥) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٦) ذكرنا من قبل في الحديث عن «أم الدحداح رضي الله عنها وقمة البذل في سبيل الله». نماذج للإيثار فلتراجع ص(٢٣٦) .

ولأن الكرم له مجالاته المشروعة فإن بذل المال في غيرها قد لا يكون كرمًا ولذلك يقول ابن حجر: «والجود في الشرع إعطاء ما ينبغي لمن ينبغي وهو أعم من الصدقة»[١]، وضده الشح الذي يعني البخل مع مزيد من الحرص.

وصاحب الكرم لابد أن يكون شديد التوكل، عظيم الزهد، قوي اليقين. ولذلك فإن الكرم مرتبط بالإيمان ظاهره كرم اليد ودافعه كرم النفس، وقد وصف رسول الله ﷺ المؤمن بقوله: «**المؤمن غرّ كريم، والفاجر خبّ لئيم**»[٢]، وفي حديث آخر: «..**ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبدًا**»[٣].

وأعظم صور الكرم ما يكون مع الفقر والحاجة وقلة ذات اليد، وهذه كانت من أخلاق العرب في الجاهلية، وأهل الإيمان بها أولى.

وقد ورد أن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت لرسول الله ﷺ: «إنه ليس لي من شيء إلا ما أدخل علي الزبير، أفأعطي؟» قال: «**نعم، لا توكي فيوكى عليك**»[٤]. وعلى قلة ما يدخل عليها أشار عليها بالعطاء وبعدم الإحصاء ليبارك في الرزق ولمزيد من التوكل.

وجيء إلى الرسول ﷺ ذات يوم بلحم، أتدرون ممن كان، كان من بريرة الفقيرة ومن صدقة قدِّمت إليها: قال: «**ما هذا؟**» قالوا: شيء تُصُدّق به على بريرة. فقال: «**هو لها صدقة ولنا هدية**»[٥]. فقد كان الواحد منهم لا يملك

---

(١) فتح الباري ١ / ٣١ من شرح الباب رقم ٥ كتاب الوحي.

(٢) صحيح سنن الترمذي - أبواب البر - باب ٤١ - الحديث ١٥٩٩ / ٢٠٤٧ (حسن).

(٣) صحيح سنن النسائي - كتاب الجهاد - باب ٨ - الحديث ١٩١٣ (صحيح).

(٤) صحيح سنن الترمذي - أبواب البر - باب ٤٠ - الحديث ١٥٩٨ / ٢٠٤٣ (صحيح).

(٥) صحيح سنن أبي داود - كتاب الزكاة - باب ٣١ - الحديث ١٤٥٧ / ١٦٥٥ (صحيح).

إلا قوت يومه ويكون كريمًا، وحين سئل رسول الله ﷺ: أي الصدقة أفضل؟ قال: «**جهد المقل...**»[1].

إن ديننا بما له من أهداف عظيمة ليحتاج إلى النفوس الكريمة التي يفيض خيرها على الأقربين، وينصب في الإعداد والجهاد «**أفضل الدينار: دينار ينفقه الرجل على عياله، ودينار ينفقه الرجل على دابته في سبيل الله، ودينار ينفقه الرجل على أصحابه في سبيل الله**»[2].

قد تنطلق نفحات الكرم من فاقد الأمل بالدنيا حين يشرف على الموت. ولكن الكرم الحقيقي لصاحب قوة البدن، وطول الأمل، ودواعي الحرص محيطة به من كل جانب، لذلك حين سئل رسول الله ﷺ: أي الصدقة أعظم أجرًا؟ قال: «**أن تَصَّدَّق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى....**»[3] قال ابن حجر: «ولما كانت مجاهدة النفس على إخراج المال مع قيام مانع الشح دالاً على صحة القصد وقوة الرغبة في القربة كان ذلك أفضل من غيره، وليس المراد أن نفس الشح هو السبب في هذه الأفضلية»[4].

من الصفات المميزة لمن تأصلت فيه خصلة الكرم أنه لا يرد أحدًا يسأله وقد كان هذا حال رسول الله ﷺ (ما سئل... عن شيء قط فقال: لا)[5]، حتى حين أهديت إليه بردة وكان محتاجًا إليها رآها عليه رجل من الصحابة

---

(١) صحيح سنن أبي داود - كتاب الزكاة - باب ٤١ - الحديث ١٤٧١ / ١٦٧٧ (صحيح).
(٢) صحيح سنن الترمذي - أبواب البر - باب ٤٢ - الحديث ١٦٠١ / ٢٠٤٩ (صحيح).
(٣) صحيح البخاري - كتاب الزكاة - باب ١١ - الحديث.
(٤) فتح الباري ٣ / ٢٨٥.
(٥) صحيح البخاري - كتاب الأدب - باب ٣٩ - الحديث ٦٠٣٤.

فقال: يا رسول الله ما أحسن هذه فاكسنيها. قال: «**نعم**». فلام الصحابة ذلك الرجل قائلين له: (.. أخذها محتاجًا إليها ثم سألته إياها وقد عرفت أنه لا يُسأل شيئًا فيمنعه. فقال: رجوت بركتها حين لبسها النبي ﷺ لعلي أكفّن فيها)[1].

والكرم من صفات الرب سبحانه وتعالى، يقول رسول الله ﷺ: «**إن ربكم حيي كريم، يستحيي من عبده أن يرفع إليه يديه؛ فيردهما صفرًا، (أوقال: خائبتين)**»[2]. وعباد الله الصالحون يمنعهم حياؤهم وكرمهم من رد حاجة العبد من عباد الله.

ومن أوجب الكرم معاملة الكرام بما يستحقون كما في الحديث: «**إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه**». وقد حث رسول الله ﷺ على الضيافة - كمظهر من مظاهر الكرم - بتحريك المشاعر الإيمانية: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه...**» ومن كانت المادة قد التهمته واستولت على قلبه وجعلته يعد ويحصي ويحجم عن المكارم استبقاء لما في الجيب وحذرًا مما يأتي به الغيب فلا خير فيه، يقول ﷺ: «**لا خير فيمن لا يضيف**»)[3].

وقد تكاثرت الأدلة من الكتاب والسنة على الحث على الكرم والجود والإنفاق في وجوه الخير ثقةً بالله تعالى، ومنْ هذه الأدلة[4].

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ: ٣٩]، وقال

---

(١) نفس المرجع السابق - الحديث ٦٠٣٦.

(٢) صحيح سنن ابن ماجه - كتاب الدعاء - باب ١٣ - الحديث ٣١١٧ / ٣٨٦٥ (صحيح).

(٣) هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين، محمود محمد الخازندار، ص(٥٠٣-٥٠٦).

(٤) رياض الصالحين ص(١٧٤-١٧٧).

تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا حَسَدَ إلاَّ في اثنتين: رَجُلٌ آتَاهُ الله مَالاً، فَسَلَّطَه عَلى هَلَكَتِهِ في الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتاه الله حِكْمَةً، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُها**» متفق عليه.

معناه: ينبغي أن لا يغبط أحد إلاَّ على إحدى هاتين الخصلتين

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟**» قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه. قال: «**فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر**» رواه البخاري.

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة**» متفق عليه.

وعن جابر رضي الله عنه قال: ما سُئِلَ رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال: لا. متفق عليه

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من يوم يُصبِح العبادُ فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط مُنفقًا خلفًا ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا**» متفق عليه.

وعنه أن رسول الله ﷺ قال: «**قال الله تعالى: أنفق يا ابن آدم ينفق عليك**» متفق عليه.

وعن عبد الله بن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما أن رجلاً سأل

رسول الله ﷺ : أي الإسلام خير؟ قال : «**تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وتَقْرَأُ السَّلامَ على مَنْ عَرَفتَ ومَنْ لم تَعْرِفْ**» متفق عليه .

وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**أربعون خصلة أعلاها منيحة العنزِ ما من عامل يعمل بخصلةٍ منها رجاء ثوابها وتصديق موعُودِها إلاَّ أدخلهُ الله تعالى بها الجنة**» رواه البخاري .

وعن أبي أُمامة صُدَيِّ بن عَجْلاَن رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**يا ابن آدم إنك أن تَبْذُلَ الفضلَ خيرٌ لك، وأن تمسِكَهُ شَرٌّ لك، ولا تُلامُ على كَفَافٍ، وابْدأ بمن تَعُول، واليدُ العُليَا خيرٌ من اليد السُّفْلى**» رواه مسلم .

وعن أنس رضي الله عنه قال : ما سُئِلَ رسولُ الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه، ولقد جاءه رجل، فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال : يا قوم أسلمُوا، فإن مُحَمَّدًا يُعطي عطاء من لا يخشى الفقر، وإن كان الرجل ليُسلمُ ما يُريدُ إلاَّ الدُّنيا، فما يَلْبَثُ إلاَّ يسيرًا حتَّى يكُونَ الإسلامُ أحبَّ إليه من الدُّنَيا وما عليها . رواه مسلم .

وعن عُمر رضي الله عنه قال : قسم رسول الله ﷺ قَسَمًا، فقلت : يا رسول الله لغيرُ هؤلاء كانوا أحق به منهم؟ قال : «**إنهم خيروني أن يسألُوني بالفُحشِ، أو يُبَخِّلُوني، ولستُ بباخلٍ**» رواه مسلم .

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه أنه قال : بينما هو يسير مع النبي ﷺ مقفله من حنين، فعلقه الأعراب يسألونه، حتى اضطروه إلى سمرة، فخطفت رداءه، فوقف النبي ﷺ فقال : «**أعطوني ردائي، فلو كان لي عدد هذه العضاه**

نعمًا، لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذَّابًا ولا جبانًا» رواه البخاري.

«مقفله» أي: حال رجوعه. و«السمرة»: شجرةٌ. و«العضاه»: شجرٌ له شوك.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ما نقصت صدقةٌ من مال، وما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عزًا، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله عز وجلَّ**» رواه مسلم.

وعن أبي كبشة عمر بن سعد الأنماري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**ثلاثةٌ أقسم عليهن وأحدثكم حديثًا فاحفظوه: ما نقص مال عبد من صدقةٍ، ولا ظُلِمَ عبد مظلمةً صبر عليها إلا زاده الله عزًا، ولا فتح عبدٌ باب مسألةٍ إلا فتح الله عليه باب فقرٍ** ـ أو كلمة نحوها ـ **وأحدثكم حديثًا فاحفظوه قال: إنما الدنيا لأربعة نفرٍ:**

عبدٍ رزقه الله مالاً وعلمًا، فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقًا، فهذا بأفضل المنازل.

وعبد رزقه الله علمًا، ولم يرزقه مالاً، فهو صادق فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقًا، فهذا بأفضل المنازل.

وعبد رزقه الله علمًا، ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلانٍ، فهو بنيته، فأجرهما سواءٌ.

وعبد رزقه الله مالاً، ولم يرزقه علمًا، فهو يخبطُ في ماله بغير علمٍ، لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقًا، فهذا بأخبث المنازل.

وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علمًا، فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلانٍ، فهو بنيته، فوزرهما سواءٌ» رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وعن عائشة رضي الله عنها أنهم ذبحوا شاةً، فقال النبي ﷺ: «**ما بقي منها؟**» قالت: ما بقي منها إلا كتفها، قال: «**بقي كلها غير كتفها**» رواه الترمذي وقال: حديث صحيح.

ومعناه: تصدقوا بها إلا كتفها فقال: بقيت لنا في الآخرة إلا كتفها.

وعن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «**لا توكي فيوكى عليك**».

وفي رواية: «**أنفقي أو انفحي، أو انضحي، ولا تحصي فيحصي الله عليك، ولا توعي فيوعي الله عليك**» متفق عليه.

و«انفحي» بالحاء المهملة: وهو بمعنى «أنفقي» وكذلك: «انضحي».

ثالثًا: ماذا فعلت هذه المرأة حتى يكون موقفها موقفًا خالدًا؟

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ﷺ: أصابني الجهد، أي المشقة من الجوع، وعند مسلم: إني مجهود، أي أُصابني الجهد وهو المشقة والحاجة وسوء العيش والجوع.

فبعث ﷺ إلى نسائه واحدة واحدة يطلب منهن ما يُضيفه به، فقلن ما معنا أي ما عندنا إلا الماء، فقال ﷺ: «**من يَضُم أو يُضيف هذا؟**» أي من يؤوي هذا فيضيفه، وفي رواية: «**ألا رجل يضيفه هذه الليلة يرحمه الله**».

فقال رجل من الأنصار: أنا. فانطلق به إلى امرأته، وفي رواية مسلم: فانطلق به إلى رحله أي منزله؛ فقال لامرأته: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ، فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني. فقال: فعلليهم بشيء، فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج، وأريه أنا نأكل، فإذا أهوى ليأكل فقومي إلى السراج حتى تطفئيه. هذه رواية مسلم.

وعند البخاري: فقال: هيئي طعامك، وأصبحي سراجك أي أوقديه، ونوِّمي صبيانك إذا أرادوا عشاءً.

فهيأت طعامها وأصبحت سراجها، ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين أي بغير عشاء.

فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال: «**ضحك الله الليلة - أو عجب - من فَعَالكما**، فأنزل الله: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [الحشر: ٩].

قال ابن حجر: وفي الحديث دليل على نفوذ فعل الأب في الابن الصغير وإن كان مطويًا على ضرر خفيف إذا كان في ذلك مصلحة دينية أو دنيوية، وهو محمول على إذا ما عرف بالعادة من الصغير الصبر على مثل ذلك، والعلم عند الله تعالى(١).

وقال النووي رحمه الله في شرحه على مسلم لقول الرجل: فعلليهم بشيء: (هذا محمول على أن الصبيان لم يكونوا محتاجين إلى الأكل، وإنما

---

(١) الفتح (٧/ ١٥) ط مكتبة الإيمان - المنصورة.

تطلبه أنفسهم على عادة الصبيان من غير جوع يضرهم، فإنهم لو كانوا على حاجة بحيث يضرهم ترك الأكل لكان إطعامهم واجبًا، ويجب تقديمه على الضيافة.

وقد أثنى الله ورسوله ﷺ على هذا الرجل وامرأته فدل ذلك على أنهما لم يتركا واجبًا، بل أحسنا وأجملا رضي الله عنهما.

وأما هو وامرأته فآثرا على أنفسهما برضاهما مع حاجتهما وخصاصتهما، فرحمهما الله تعالى، وأنزل فيهما: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩][1]. فالعجيب في موقف هذه المرأه الصالحة أنها لم تعترض على زوجها ولم تعارضه ولو لأول وهلة، أو تقنعه حتى بتقسيم الطعام قسمين: قسم للأولاد وقسم للضيف، بل وافقته على الفور وأعانته على طاعة الله تعالى بإكرام الضيف ونكران الذات، فأطفأت السراج ونومت الصبيان وتظاهرت أنها تأكل وزوجها مع الضيف.

فسبحان الله! ما هذا الموقف العجيب من أحوالنا التي ظاهرها: إما الرياء أو المفاخرة والتكلف ليقال كذا!

بعضنا لا يكرم ضيفه بما عنده ولو كان قليلاً أو متواضعًا، خوفًا من أن يقال عنه ما لا يرضاه، فالمرء يحب أن يثنى عليه دائمًا ويشكر ويمدح أنه فعل كذا وكذا، ولذلك نجد البعض ربما لا يقدم الطعام إلى ضيفه في وقت الغداء والعشاء، لأنه ليس عنده ما يُشَرِّفُ نفسه به أمامه!! فإما التكلف للضيف والمفاخرة وإما لا!!

(١) مسلم بشرح النووي(١٤/ ٢٠٩) ط دار الخير.

قال النووي رحمه الله وهو يعدد فوائد هذا الحديث: (ومنها: منقبة لهذا الأنصاري وامرأته رضي الله عنهما، ومنها الاحتيال في إكرام الضيف إذا كان يمتنع منه رفقًا بأهل المنزل لقوله: «أطفئي السراج، وأريه أنَّا نأكل» فلو رأى قلة الطعام وأنهما لا يأكلان معه، لامتنع من الأكل)[1] .

رابعًا: ذم الشح والبخل:

روى أحمد والبخاري في الأدب ومسلم وغيرهما عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «**اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح قد أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم**».

(وقد كانت السمعة والصيت عند أبناء الجاهلية عرضًا يخشون عليه أن يمسّ، فيتحدث الناس عنهم بما لايحبون، فكانوا يهينون أموالهم حفاظًا على سمعتهم. وعزّز الإسلام خيار الأخلاق فقال ﷺ: «**ذُبُّوا عن أعراضكم بأموالكم**»[2] . وأي دناءة يصل إليها المرء حين يؤثر المال الوفير المحفوظ بالشح والبخل والتقتير؟!

الناس بفطرتهم لا يحبون الشحيح البخيل، وإذا لم تتحقق المحبة لم تنفتح القلوب للاستجابة والاستقبال، وقد ورد بهذا المعنى: «**السخي قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار، ولَجَاهل سخي**

(١) المصدر السابق.

(٢) صحيح الجامع ـ الحديث ٣٤٢٦ (صحيح).

أحب إلى الله تعالى من عابد بخيل»[١] .

ومما يعين المرء على اكتساب صفة الكرم وتأصيلها في نفسه أن يستحضر صفة ربه ـ عز وجل ـ «**إن الله تعالى جواد يحب الجود، ويحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها**»[٢] ، «**إن الله كريم يحب الكرماء جواد يحب الجَوَدة...**»[٣] ، «**إن الله كريم يحب الكرم**»[٤] ومن لا يحب أن يكون كما يحب الله؟!

وإن في تأمل الحياة العملية للرسول القدوة صلوات الله وسلامه عليه ما يفجر معاني الجود والكرم في قلب المتبع المحب. جاء في الحديث: «كان النبي ﷺ أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس...»[٥] . كما ورد بمثل هذا المعنى: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان، ... فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة»[٦] وجوده هذا كان سبب إيمان الكثيرين، ومحبة الكثيرين، واحترام العدو والصديق. وما على حملة الدعوة إلا أن تكون الدنيا أحقر ما يكون في أعينهم لتفيض بها أيديهم، وليعم الخير من حولهم.

وللشيطان نصيب كبير في قلب البخيل الشحيح. ولذلك شرع لنا الاستعاذة بالله من هذه الصفات الشيطانية فقد كان رسول الله ﷺ يتعوذ دبر

---

(١) أخرجه الترمذي. وقال المناوي: روي بأسانيد ضعيفة يقوي بعضها بعضًا. قال الأرناؤوط: ومعنى الحديث صحيح (جامع الأصول ٥ / ٣ ـ الحديث ٢٩٧٩).

(٢) صحيح الجامع ـ الحديث ١٧٤٤ (صحيح).

(٣) صحيح الجامع ـ الحديث ١٨٠٠ (صحيح).

(٤) صحيح الجامع ـ الحديث ١٨٠١ (صحيح).

(٥) صحيح البخاري ـ كتاب الأدب ـ باب ٣٩ ـ الحديث ٦٠٣٣ .

(٦) صحيح البخاري ـ كتاب بدء الوحي ـ باب رقم ٥ ـ الحديث ٦ .

كل صلاة: «**اللَّهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن...**»[١] ولعل السر في تلاحق وصف البخل والجبن أن من عز عليه ماله أن يصرفه في وجوه الخير فبخل، طبيعي من مثله أن تعزَ عليه روحه أن يزهقها في سبيل الله فيجبن. والجود بالنفس أسمى غاية الجود.

وإذا افتقدت الأمة الجود بالمال والجود بالنفس فقد سارت في طريق الهلاك لما جاء في الحديث: «**إياكم والشح، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح؛ أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا**»[٢].

وقد حذر رسول الله ﷺ من صفات شرار الخلق في آخر الزمان وكان من صفاتهم الشح: «**يتقارب الزمان، وينقص العمل، ويلقى الشح، ويكثر الهرج...**»[٣] ولأن الكرم صفة قلبية تنعكس على السلوك فإن المريض بالشح مريض بالقلب يقعد به بخله عن البناء، ويحجزه الشح عن المبادرة، ويغدو يأخذ ولا يعطي، وماذا بعد ذلك من شر؟ لذلك يقول رسول الله ﷺ: «**شرّ ما في رجل شحّ هالع، وجبن خالع**»[٤].

وقد عدّ رسول الله ﷺ الموبقات فذكر منها: «**الشرك بالله والشح..**»[٥]، وعدّ المهلكات فذكر فيها: «**هوى متبع، وشح مطاع وإعجاب المرء بنفسه**»[٦].

---

(١) صحيح سنن النسائي - كتاب الاستعاذة - باب ٢٧ - الحديث ٥٠٥٩ (صحيح).
(٢) صحيح سنن أبي داود - كتاب الزكاة - باب ٤٧ - الحديث ١٤٨٩/ ١٦٩٨ (صحيح).
(٣) صحيح البخاري - كتاب الأدب - باب٣٩ - الحديث ٦٠٣٧.
(٤) صحيح سنن أبي داود - كتاب الجهاد باب٢٢ - الحديث ٢١٩٢ / ٢٥١١ (صحيح).
(٥) صحيح سنن النسائي - كتاب الوصايا - باب ١٢ - الحديث ٣٤٣٢ (صحيح).
(٦) صحيح الجامع - الحديث ٣٠٣٩ (صحيح).

الجيل الأول تميز بزهده ويقينه فصعد؛ فما هي سنن السقوط والهلاك؟ يقــول ﷺ : «**صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، ويهلك آخرها بالبخل والأمل**» قبض اليد والإحجام عن المبادرة والامتناع عن تقديم أي جهد، ثم بعد كل ذلك بناء الأحلام الكبيرة والآمال العريضة، ذلكم تشخيص هلاك الدنيا فهل صرنا إليه؟

أما في الآخرة فإن الكانز لمال دون أن يؤدي حق الله فيه يخيل له المال يوم القيامة بصورة «**شجاع أقرع يفر منه صاحبه وهو يتبعه يقول له: هذا كنزك الذي كنت تبخل به ...**».

إذا لم يكن خلق (الكرم) يميز عامة أبناء الإسلام العاملين لنصرته فلن تجتمع حولهم القلوب ولن يحظوا بالثقة. وحين تكرم النفوس وتتخلص من رق الدنيا. ويصغر في عينها كل متاع تنجذب إليها القلوب، وتعظم في الأنظار، ويتسابق الناس في الجود والكرم لا في الحرص والشح، وعندئذ نكون أهلاً للتمكين ـ بإذن الله ـ)[1] .

* * *

(١) هذه أخلاقنا ـ ص(٥٠٦ ـ ٥٠٩).



(١٥)

فاطمة الزهراء رضي الله عنها

فاطمة الزهراء رضي الله عنها

قال عنها ﷺ : «فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها أغضبني، يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها»(١) .

وقال أيضًا ﷺ : «أفضل نساء أهل الجنة : خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون»(٢) .

* * *

(١) أخرجه البخاري (٣٧٦٧)، ومسلم (٢٤٤٩)، وأبو داود (٢٠٦٩)، والترمذي (٣٨٦٦).
(٢) أخرجه أحمد والحاكم وصححه وأقره الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١١٣٥).

الدروس والعبر

أولاً: التعريف بها[١] :

هي فاطمة بنت رسول الله ﷺ سيدة نساء العالمين في زمانها، البضْعة النبوية، والجهة المصطفوية، أم أبيها[٢] ، بنت سيد الخلق رسول الله ﷺ أبي القاسم محمد بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشية الهاشمية، وأم الحسنين.

مولدها وزواجها :

قبل المبعث بقليل، وتزوجها الإمام علي بن أبي طالب في ذي القعدة أو قُبيله، من سنة اثنتين بعد وقعة بدر.

وقال ابن عبد البر: دخل بها بعد وقعة أحد، فولدت له الحسن والحسين ومحسنًا وأم كلثوم وزينب وروت عن أبيها، وروى عنها: ابنها الحسين، وعائشة ، وأم سلمة، وأنس بن مالك وغيرهم وروايتها في الكتب الستة.

وفاتها :

توفيت بعد النبي ﷺ بخمسة أشهر أو نحوها. وعاشت أربعًا أو خمسًا وعشرين سنة. وأكثر ما قيل إنها عاشت تسعًا وعشرين سنة والأول أصح.

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (٤/ ٣٧٧)، سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٢٥).

(٢) كناية أنها كريمة الأبوين.

وكانت أصغر من زينب، زوجة أبي العاص بن الربيع، ومن رقية، زوجة عثمان بن عفان.

بناتها:

كان لها من البنات أم كلثوم زوجة عمر بن الخطاب، وزينب زوجة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.

مكانتها عند النبي ﷺ:

كانت من أحب الناس إلى رسول الله ﷺ وأشبههم به، وقد كان النبي ﷺ يحبها ويكرمها ويُسر إليها. ومناقبها غزيرة.

وكانت صابرة دينة خيرة صينة قانعة شاكرة لله.

وقد غضب لها النبي ﷺ لما بلغه أن أبا الحسن همَّ بما رآه سائغًا من خُطبة بنت أبي جهل، فقال: «**والله لا تجتمع بنت نبي الله وبنت عدو الله، وإنما فاطمة بضعة مني، يُريبني ما رابها، ويؤذيني ما آذاها**» فترك عليٌّ الخطبة رعاية لها[1].

وكانت إذا دخلت عليه قام إليها فقبَّلها، وأجلسها في مجلسه، وقالت عائشة رضي الله عنها: جاءت فاطمة تمشي ما تُخطِئ مشيتُها مشية رسول الله ﷺ فقام إليها وقال: «**مرحبًا بابنتي**»[2].

وصح أن النبي ﷺ جَلَّل فاطمة وزوجها وابنيها بكساء وقال: «**اللهم**

(١) رواه البخاري (٣٧٢٩)، ومسلم (٢٤٤٩) وغيرهما.

(٢) رواه مسلم (٢٤٥٠).

هؤلاء أهل بيتي اللهم فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا»[١] .

ولما تزوجها عليٌّ كرم الله وجهه لم يُطق الرسول الكريم صبرًا على بعدها عنه (فعزم على أن يُحولها إلى جواره وكانت تُجاوره منازل لحارثة بن النعمان فجاء إلى النبي صلوات الله عليه وقال: إنه بلغني أنك تريد أن تحول فاطمة إليك، وهذه منازلي وهي أقرب بيوت بني النجار إليك، وإنما أنا ومالي لله ورسوله، والله يا رسول الله: للمال الذي تأخذ مني أحب إليَّ من الذي تدع. فقال رسول الله ﷺ: «**صدقت، بارك الله عليك**».

ثم حول فاطمة إلى جواره وأسكنها منزلاً من بيوت حارثة رضوان الله عليه.

ومنذ استقرت الزهراء في جوار أبيها كان يُلم ببيتها كل صباح، فإذا أُذِّنَ للصبح كان يأخذ بعضادتي باب بيتها ويقول: «**السلام عليكم أهل البيت ويطهركم تطهيرًا**».

وكان النبي ﷺ إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ثم يثني ببيت فاطمة ويطيل عندها المكث، ثم يأتي بيوت نسائه)[٢] .

ثانيًا: الصبر على البلاء وتحمل الأذى في سبيل الله تعالى:

ولقد كانت سنوات عمر خير نساء العالمين مليئة بكل معاني الصبر، والكفاح في سبيل مرضاة الله تعالى.

وتحملت الأذى مع رسولنا ﷺ في بدء الدعوة إلى الإسلام، فصبرت

---

(١) رواه مسلم (٢٤٢٤).

(٢) صور من حياة الصحابيات، دكتور عبد الرحمن رأفت الباشا، ص(٤٠، ٤١).

على البلاء، وتحملت الكثير من المعاناة والمحن.

فهـا هي رضي الله عنها في يوم أحد، وقد انصرف المشركون، خرجت النساء إلى الصحابة يعينونهم، فكانت فاطمة رضي الله عنها فيمن خرج، فلما رأت النبي ﷺ اعتنقته، وجعلت تغسل جراحاته بالماء فيزداد بالماء.

فماذا فعلت البضعة النبوية؟

يروي سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فيقول: أما والله، إني لأعـرف من كان يغسل جرح رسول الله ﷺ، ومن كان يسكب الماء، وبما دُوي.

كانت فاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ تغسله، وعلي رضي الله عنه يسكب الماء.

فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير فأحرقتها، وألصقتها فاستمسك الدم[١].

ولنا أن نتخيل هذا البلاء، والدها الرسول ﷺ، قد أُصيب إصابات بالغة، حتى نزفت الدماء من وجهه الشريف، ومع ذلك كانت الطبيبة هي فاطمة رضي الله عنها، ولم تصب بهلع، أو بفزع، إنها تعلمت الصبر والمعاناة من كثرة الشدائد والمحن التي تعرضت لها في حياتها.

ومن أنواع الشدائد التي صبرت عليها البضعة النبوية في حياتها: صبرها على شظف العيش.

فلقد تزوجها علي رضي الله عنه وما كان لهما من فراشٍ سوى جلد كبش

(١) حديث صحيح. أخرجه البخاري (٣٠٣٧)، (٤٠٧٥)، (٥٧٢٢).

بالليل ينامان عليه، وبالنهار يجعلانه وسادة.

ومع ذلك صبرت، ولم تفتر عن طاعة ربها، ولم تطلب شيئًا من والدها ﷺ، فهي صابرة، قانعة، راضية بما قسم الله لها.

يقول علي رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ لما زوجه بفاطمة رضي الله عنها بعث معها بخميلة[1]، ووسادة حشوها ليف، ورحيين[2]، وسقاء[3]، وجرتين[4].

فقال علي رضي الله عنه: لقد سنوت حتى اشتكيت صدري، ولقد جاء إلى رسول الله ﷺ سبي، فاذهبي، فاطلبي منه خادمة جارية لنا.

فقالت فاطمة رضي الله عنها: وأنا والله، لقد طحنت حتى مجلت[5] يداي.

فذهبت رضي الله عنها إلى الرسول ﷺ لكي تسأله جارية تخدمها، فلما دخلت إلى بيت والدها ﷺ لم تجده، ووجدت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فذكرت ذلك لها، فلما جاء النبي ﷺ أخبرته بما كان من أمر فاطمة رضي الله عنها.

وفي رواية أخرى: فأتت النبي ﷺ فقال لها: «**ما جاء بك يا بنية؟**».

---

(١) الخميلة: القطيفة المخملة.
(٢) رحيين: صخرتين يطحن بهما الحب.
(٣) سقاء: كوز يشرب فيه.
(٤) جرتين: مثنى جرة، وهي إناء من فخار لحفظ الماء.
(٥) المجل: التقطيع، والمراد به غلظ اليد، فكل من عمل عملاً بكفه فغلظ جلدها، قيل: مجلت كفه.

فقالت : جئت لأسلم عليك ، واستحيت أن تسأله ، ورجعت ، فقال علي : ما فعلت؟ .

قالت : استحييت أن أسأله ، فأتياه جميعًا ، فقال علي : يا رسول الله ، والله لقد سنوت حتى اشتكيت صدري ، وقالت فاطمة : قد طحنت حتى مجلت يداي ، وقد جاءك الله بسبي وسعة فاخدمنا .

فقال عليه الصلاة والسلام :

«**لا أعطيكما ، وأدع أهل الصفة**[1] **تطوى بطونهم ، لا أجد ما أنفق عليهم ، ولكن أبيعهم ، وأنفق عليهم أثمانهم**» .

فرجعا ، فأتاهم النبي ﷺ وقد دخلا في قطيفتهما ، إذا غطيا رؤوسهما كشفت أقدامهما ، وإذا غطيا أقدامهما تكشفت رؤوسهما .

فدخل رسول الله ﷺ بعد الاستئذان عليها ، فلما دخل أرادت فاطمة وعلي أن يقوما ، فقال لهما رسول الله ﷺ : «**على مكانكما**» أي : الزما مكانكما .

ثم قال لهما : «**ألا أخبركما بخيرٍ مما سألتماني ؟**» .

قالا : بلى يا رسول الله . قال : «**بكلمات علمنيهن جبريل : تسبحان الله في دبر كل صلاة عشرًا ، وتحمدان عشرًا ، وتكبران عشرًا ، وإذا أويتما إلى فراشكما ، فسبحا ثلاثًا وثلاثين ، واحمدا ثلاثًا وثلاثين ، وكبرا أربعًا وثلاثين ، فهو خير لكما من خادم**»[2] .

---

(١) أهل الصفة : هم فقراء الصحابة الذين أسلموا ، ولم يكن لهم مال ، ولا دار .

(٢) حديث صحيح . أخرجه البخاري (٣١١٣) ، ومسلم (٢٧٢٧) ، وأبو داود (٥٠٦٢) ، والترمذي (٣٤٦٩) .

قال علي: فوالله ما تركتهن منذ علمنيهن رسول الله ﷺ.

فقيل: ولا ليلة وقعة صفين؟! قال: نعم، ولا ليلة وقعة صفين.

هذه هي حياة سيدة نساء العالمين في الأمة الإسلامية، ومع ذلك لم تتأفف ولم تكن أنانة، وصاحبة شكوى ليلاً ونهاراً.

بل كانت صابرة، قانعة، تحيا حياة بسيطة، لا تعرف معنى الكماليات التي تضيع حياة المسلم والمسلمة في أيامنا من أجل توفيرها.

لقد عاشت حياتها الزوجية بأسباب بسيطة، لكنها كانت أعبد لله تعالى من كثير من مسلمي اليوم، الذين انهمكوا في تحصيل كماليات الحياة حتى انشغلوا عن الدار الآخرة.

فمن نعم بالحياة البسيطة ارتاح باله، وهدأت نفسه، واستعد للدار الآخرة)[١].

ثالثًا: مهر خير نساء العالمين ودرس عظيم لأولياء المرأة:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما تزوج علي فاطمة قال رسول الله ﷺ: «**أعطها شيئًا**». قال: ما عندي شيء.

قال رسول الله ﷺ: «**أين درعك الحطمية**[٢]».

فأصدقها إياها، وكانت ثمنها أربعمائة درهم.

وقد سار الرعيل الأول على هذا المنهج من اليسر وعدم المغالاة في المهور،

---

(١) الصحابيات والصالحات حول الرسول ﷺ، مجدي فتحي السيد، ص(٨٤-٨٧).

(٢) الحطمية: التي تحطم السيوف وتكسرها، وهي عريضة ثقيلة.

إلى أن خلف من بعدهم خلفٌ أداروا ظهورهم لسماحة الإسلام ويسره وبساطته، واتجهوا إلى التقليد والمباهاة والفخر والخيلاء، حتى انتشرت العنوسة وقل الزواج وانتشرت المشاكل التي وصلت في بعض الأحيان إلى الطلاق قبل البناء، لعدم الاتفاق على مهر معين أو مؤخر صداق معين.

والواقع الذي نعيشه اليوم من المغالاة في المهور وتعنت أولياء المرأة فيه كي يستطيعوا إعداد منزل الزوجية إعدادًا فاخرًا، ليس من الإسلام في شيء.

(لقد فرض الشرع الشريف المهر للزوجة منحة تقدير تحفظ عليها حياءها وخفرها، وتُعبر عن تكريم الزوج لها ورغبته فيها، إلا أنه من جانب آخر حَثّ على يُسره وخفته.

فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**خير النكاح أيسره**»[1].

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «**إن من يُمن المرأة: تيسير خِطبتها، وتيسير صداقها، وتيسير رحِمها**»[2]، قال عروة: يعني تيسير رحمها للولادة.

وأتبع النبي ﷺ السنة القولية بالسنة العملية موضحًا معنى هذا التيسير،

---

(١) رواه أبو داود وابن حبان وغيرهما (السلسلة الصحيحة ـ ١٨٤٢).

(٢) رواه الإمام أحمد (٦/ ٧٧، ٩١)، والبيهقي (٧/ ٢٣٥)، وابن حبان (١٢٥٦)، والحاكم (٢/ ١٨١)، وقال: «صحيح على شرط البخاري ومسلم، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/ ٢٥١)، إن كان أسامة بن زيد ـ أحد الرواة ـ هو الليثي، وإن كان العدوي فضعيف، وقال عروة الراوي عن عائشة رضي الله عنها: (وأنا أقول من عندي: «من أول شؤمها أن يكثر صداقها»).

فلم يزد في مهور بناته ولا نسائه أكثر من اثنتي عشرة أُوقية ونَشًا:

فعن أبي العجفاء السلمي قال: خطبنا عمر يومًا، فقال: «ألا لا تُغالوا في صدقات النساء، فإن ذلك لو كان مكرمة[1] في الدنيا، وتقوى عند الله، كان أوْلاكم بها رسول الله ﷺ، ما أصدق رسول الله ﷺ امرأةً من نسائه، ولا أصدقت امرأة من بناته، أكثر من ثنتي عشرة أوقية»[2].

---

(١) وفي هذا النص من أمير المؤمنين رضي الله عنه إبطال صريح لما يتوهمه الذين لا يفقهون من أن غلاء مهر المرأة مكرمة لها في الدنيا، إذ لو كان كذلك لكان أحق الناس بهذه المكرمة رسول الله ﷺ الذي تزوج بمهر لا يتجاوز اثنتي عشرة أوقية، ومن الأمور المسلمة أن الشرف والمكرمة إنما يكون في البذل والعطاء والمسامحة والتيسير على الآخرين، وليس في الأخذ والطلب منهم، والتشديد عليهم، وهذا هو شأن الفضلاء والكرماء لا يرون كثرة الصداق في نفوسهم شيئًا، وإنما جل هم الكريم اختيار الكفؤ لوليته، الذي يتقي الله فيها، وهذا هو النكاح الجدير باليمن والبركة.

(٢) رواه أبو داود رقم (٢١٠٦) في النكاح: باب الصداق، والترمذي رقم (١١١٤) في النكاح: باب رقم (٢٣) وصححه، والنسائي (٦/ ١١٧-١١٨) في النكاح: باب القسط في الأصدقة، وابن ماجه (١٨٨٧)، والبيهقي (٧/ ٢٣٤)، والحاكم (٢/ ١٧٥) وصححه، ووافقه الذهبي، وابن حبان (١٢٥٩)، والدارمي (٢/ ١٤١)، وأحمد (١/ ٤٠، ٤٨)، وصححه الألباني في «الإرواء» (٦/ ٣٤٧).

فائدتان:

الأولى: في قيمة الأوقية، والنَّشِّ، والنواة، وهي من مضاعفات الدرهم.

وزن الدرهم الشرعي = ٢,٩٧ جرامًا من الفضة.

الأوقية = ٤٠ درهمًا = ٤٠×٢,٩٧ = ١١٨,٨ جرامًا.

النش = ٢٠ درهمًا = ٢٠ × ٢,٩٧ = ٥٩,٤ جرامًا.

النواة = ٥ دراهم = ٥ × ٢,٩٧ = ١٤,٨٥ جرامًا، وانظر «المقادير الشرعية» للكردي ص(١٤٧).

الثانية: شاع على الألسنة قصة اعتراض المرأة على عمر، قائلة له: «نهيت الناس آنفًا أن يغالوا في صداق النساء، والله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ =

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت عائشة رضي الله عنها: كم كان صداق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان صداقُه لأزواجه ثنتي عشرة أوقية ونشًا، قالت: «أتدري ما النَّشُّ؟» قلت: «لا»، قالت: «نصف أوقية، فذلك خمسمائة درهم»)[1].

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: (لما تزوج عليّ بفاطمة رضي الله عنهما، وأراد أن يدخل بها، قال له رسول الله ﷺ: «**أعطها شيئًا**» قال: «ما عندي شيء»، قال: «**أين دِرْعُكَ الحُطَمِيَّة؟**»، فأعطاها درعه)[2].

= شَيْئًا﴾؟!، فقال عمر رضي الله عنه: «كل أحد أفقه من عمر» مرتين أو ثلاثًا، ثم رجع إلى المنبر، فقال للناس: «إني كنت نهيتكم أن تُغالوا في صداق النساء، ألا فليفعل رجل في ماله ما بدا له»، أخرجه البيهقي (٧/ ٢٣٣)، وقال: «هذا منقطع»، وقال الألباني في «الإرواء»: (ضعيف منكر) اهـ. (٦/ ٣٤٨)، وحتى لو كان في الآية دليل على إباحة المغالاة في المهور كما قال القرطبي رحمه الله، لأن الله لا يمثل إلا بمباح، لكن ليس كل جائز مستحسنًا، ولا كل مباح مُرَغَّبًا فيه، بل لقد نهى عمر عنه لما تحوّل إلى وضع ضار، كما في رواية أبي العجفاء السلمي، وفي رواية النسائي زيادة تُجسد خطر المغالاة في المهور ولفظه: «وإن الرجل لَيُغلي بصدقة المرأة، حتى يكون لها عداوة في نفسه، وحتى يقول: «كلفت لكم علق القربة»، وعلق القربة: يقال: جشمت إليك علق القربة وعرق القربة، أي تكلفت إليك، وتعبت، حتى عرقت كعرق القربة، يعني بذلك: الشدة، وأصله: أن القرب إنما كان يحملها الإماء ومن لا معين له، وربما افتقر الرجل الكريم، واحتاج إلى حملها، فيعرق، لما يلحقه من المشقة والحياء من الناس، وهذا إنما يقال في الأمر يجد منه الإنسان كلفة وشدة.

(١) رواه مسلم رقم (١٤٢٦) في النكاح: باب الصداق، وأبو داود رقم (٢١٠٥) في النكاح: باب الصداق، والنسائي (٦/ ١١٦، ١١٧) في النكاح: باب القسط في الأصدقة، وابن ماجه رقم (١٨٨٦).

(٢) رواه أبو داود أرقام (٢١٢٥، ٢١٢٦، ٢١٢٧) في النكاح: باب في الرجل يدخل بامرأته قبل أن ينقدها شيئًا، والنسائي (٦/ ١٢٩، ١٣٠) في النكاح: باب تحلة الخلوة، والبيهقي =

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن النبي ﷺ رأى على عبد الرحمن ابن عوف أثر صُفْرة، فقال: «**ما هذا؟**» قال: «يا رسول الله إني تزوجت امرأة من الأنصار»، قال: «**كم سُقْتَ إليها؟**»، قال: «زِنَةَ نواة من ذهب»، قال: «**بارك الله لك، أَوْلِمْ ولو بشاة**»، وفي رواية البيهقي: «على وزن نواة من ذهب، قُوِّمَت خمسة دراهم»[1].

وغضب رسول الله ﷺ من كثرة المهر، فقد جاءه رجل من الصحابة يستعينه، فقال رسول الله ﷺ: «**على كم تزوجتها؟**»، قال: «على أربع أواق»، فقال له النبي ﷺ: «**على أربع أواقٍ؟ كأنما تنحتون الفضة من عُرْضِ هذا الجبل ما عندنا ما نعطيك، ولكن عسى أن نبعثك في بَعْثٍ تُصيب منه**»[2] الحديث.

قال الإمام الشافعي رحمه الله: (والقصد في المهر أحب إلينا، وأستحب أن لا يزيد في المهر على ما أصدق رسول الله ﷺ نساءه وبناته، وذلك خمسمائة درهم)[3].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: [(والمستحب في الصداق - مع

= (٧/ ٢٥٢)، (١٠/ ٢٦٩)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ٣٥٥)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٤/ ١٩٩)، وقال في تحقيق «جامع الأصول»: «إسناده صحيح»اهـ. (٧/ ٢١)، والحُطَمية: درع تكسر السيوف، وقيل: العريضة الثقيلة، وقيل: إنها منسوبة إلى بطن من عبد القيس يقال له: حُطَمة بن محارب، كانوا يعملون الدروع.

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) أخرجه مسلم رقم (١٤٢٤) في النكاح: باب ندب النظر إلى وجه المرأة وكفيها لمن يريد تزوجها، و«عُرْض» الشيء جانبه، وانظر: «المصنف» لابن أبي شيبة (٤/ ١٩٠).

(٣) «الأم» (٥/ ١٤٣).

القدرة واليسار ـ أن يكون جميع عاجله وآجله لا يزيد على مهر أزواج النبي ﷺ ولا بناته، وكان من بين أربعمائة إلى خمسمائة بالدراهم الخالصة، نحواً من تسعة عشر ديناراً، فهذه سنة رسول الله ﷺ، من فعل ذلك فقد استن بسنة رسول الله ﷺ في الصداق، قال أبو هريرة رضي الله عنه: «كان صداقنا إذ كان فينا رسول الله ﷺ عشر أواق، وطبق بيديه، وذلك أربعمائة درهم»(١) إلى أن قال رحمه الله:

(. . . فمن دعته نفسه إلى أن يزيد صداق ابنته على صداق بنات رسول الله ﷺ اللواتي هن خير خلق الله في كل فضيلة، وهن أفضل نساء العالمين في كل صفة، فهو جاهل أحمق، وكذلك صداق أمهات المؤمنين، وهذا مع القدرة واليسار، فأما الفقير ونحوه فلا ينبغي له أن يصدق المرأة إلا ما يقدر على وفائه من غير مشقة) اهـ.

ثم قال رحمه الله تعالى: (. . . وقد كان السلف الصالح الطيب يرخصون الصداق، فتزوج عبد الرحمن بن عوف في عهد رسول الله ﷺ على وزن نواة من ذهب، قالوا: وزنها ثلاثة دراهم وثلث، وزوَّج سعيد بن المسيب بنته على درهمين، وهي من أفضل أيم من قريش، بعد أن خطبها الخليفة لابنه، فأبى أن يزوجها به)(٢)] اهـ.

هكذا كانت سيرة السلف الصالح رضي الله عنهم في شأن المهر، ثم خلف

---

(١) رواه بنحوه النسائي (٦/ ١١٧) في النكاح: باب القسط في الأصدقة، والدارقطني (٣/ ٢٢٢) في النكاح، والإمام أحمد (٢/ ٣٦٧)، واللفظ له، ورجال إسناده ثقات كما في «نيل الأوطار» (٦/ ١٩٠)، و«الفتح الرباني» (١٦/ ١٦٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١٩٤، ١٩٥) بتصرف.

من بعدهم خلفٌ سيطر على أفكارهم النظرة التجارية، فتراهم يُغالون في المهور، حتى إنه لا يكاد يخرج بعضهم من عقد زواج إلا وهم يتحدثون عن المهر، وكم بلغ من الأرقام القياسية؟! كأنما خرجوا من حلبة سباق، أو مزايدة!

وترى بعضهم إذا خطب إليه الرجل ابنته أو موليته أخذ يُحدُّ شفرته ليفصل ما بين لحمه وعظمه، فإذا قطع منه اللحم، وهشم العظم، وأخذ منه كل ما يملك، سَلَّمَها له، وهو في حالة بؤس وفقر شديدين، مُثْقَلاً بأوزار الديون، والتي من لوازمها الهموم والغموم التي تكدر عليه صفوه، فتذله بالنهار، وتقض مضجعه بالليل، ويغلي بنارها قلبه، ولا تزال به حتى تجعل القوي ضعيفًا، والسمين نحيفًا، كما قيل:

والهم يخترم الجسيم نحافة ويشيب ناصية الصبي ويهرم

إن المغالاة في المهور، وعدم تيسيرها أنتجت أسوأ العواقب، فتركت البنات العذارى عوانس وأيامى في بيوت آبائهن، يأكلن شبابهن، وتنطوي أعمارهن سنة بعد سنة[1]، وتعذَّر النكاح على جمهور الشباب بل تعسر، فعزفوا عنه، رغم رغبتهم فيه، بل حاجتهم إليه، وفي هذا مضادة لمقاصد الشريعة التي رغبت في النكاح والتناسل، وبهذا يعلم مدى شؤم مخالفة مَنْ هَدْيُه خير الهدي ﷺ في الآخرة والأولى[2].

(١) ولاشك أن الولي الذي يمتنع من تزويج موليته بالكفء الصالح لظنه أنه لا يدفع له صداقًا كثيرًا، لاشك أنه غاش لرعيته، لا ينظر في مصلحتها، بل في هوى نفسه، وهو مع ذلك مرتكب للعضل الذي يعتبر من تكرر منه فاسقًا، ناقص الدين، ساقط العدالة حتى يتوب.
انظر: مجموعة ثلاث رسائل للشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله، ص(١٠٠).

(٢) انظر «عودة الحجاب» للشيخ محمد بن إسماعيل (٢/ ٣٠٥-٣١٠).

رابعًا: دعوة إلى البساطة في الحياة الزوجية:

يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما كان لنا إلا إهاب كبش ننام على ناحيته.

لقد تزوج علي رضي الله عنه بفاطمة رضي الله عنها، وما كان لهما من فراش سوى هذا الجلد ينامان عليه بالليل، ويجعلانه وسادة بالنهار.

ويقول علي رضي الله عنه أيضًا: إن رسول الله ﷺ لما زوجه بفاطمة رضي الله عنها، بعث معها بخميلة[١]، ووسادة حشوها ليف، ورحيين[٢]، وسقاء[٣]، وجرتين[٤].

ومع ذلك صبرت رضي الله عنها ولم تعترض، ولم تتأفف، ولم تطلب شيئًا من والدها ﷺ بل هي الصابرة القانتة، الراضية بما قسم الله لها.

ليس معنى ذلك أنني أدعو الناس جميعًا إلى أن تكون بيوتهم عبارة عن حصيرة وكوب ماء وقطعة قماش بالية ينامون عليها ونحو ذلك، بل يتمتعون في دنياهم بما أحل الله لهم ولكن شريطة ألا تكون قبلتهم الدنيا، وألا يبحثوا عن المباهاة والمفاخرة، وألا يرهقوا أنفسهم لأجل الناس، وإنما يتعاملون مع الأمور بحجمها الحقيقي، ووضعها الطبيعي، لانشغالهم بإعداد بيت الآخرة.

إن القلب لا يحتمل أن ينشغل بالدنيا وزينتها، والآخرة والاستعداد لها.

---

(١) الخميلة: القطيفة المحملة.

(٢) رحيين: صخرتين يطحن بهما الحب.

(٣) سقاء: كوز يشرب فيه.

(٤) جرتين: مثنى جرة، وهي إناء من فخار لحفظ الماء.

إن القلب المشغول بلقاء الله تعالى نجده يتعامل مع الدنيا ببساطة وزهد وقناعة.

وصدق من قال: يا ابن آدم إذا سلكت سبيل القناعة فأقل شيء يكفيك وإلا فإن الدنيا وما فيها لا تكفيك.

وإن من أخطر ما نقع فيه من المغالطات والسقطات في حياتنا عمومًا وحياتنا الزوجية بصفة خاصة تلك المقارنات والموازنات بيننا وبين غيرنا ممن فتح الله عليهم الدنيا، ونالوا منها بنصيب وافر.

(الموازنة سبب من أسباب شقائنا في الحياة، وسبب من أسباب وقوعنا في غضب جبار السموات والأرض، فما أكثر ما نسمع مثل هذه الموازنات من بعض الناس:

فلان ثروته ضخمة وأنا أعيش الكفاف!! وفلان وزير كبير وأنا رجل عادي فقير!! وفلان زواجه ناجح وأنا إنسان متعثر الحظ!! وفلان له دار بل دور واسعة وأنا أعيش بالكراء!! وفلان أولاده متفوقون وأنا أعاني من تخلف أولادي وضياعهم!! إلى غير ذلك من هذه الموازنات... وما أكثر ما نسمع من بعض النساء قولهن:

فلانة جميلة... وأنا متوسطة الجمال!! فلانة يشتري لها زوجها النفائس وأنا لا أحظى بالضروري من الثياب! فلانة عندها خادم وأنا أتجرع غصص الألم من الخدمة!!

فلانة وُفِّرت لها أسباب الرفاهية من المركب الفخم الجديد، والزينة الثمينة وروائع الحلي، وأنا محرومة من كل شيء!!

هذه الموازنة سرٌّ تصدع الحياة الاجتماعية عندنا، وسبب المشكلات التي تقوم في بيوتنا . . وكثيرًا ما تنتهي بأصحابها إلى تعقيد وكآبة، يدمران الحياة ويأتيان على عوامل السرور، أو إلى حقد أسود، وحسد مقيت، تغلي مراجلها في الصدور، أو إلى جريمة مروعة تنشر الفزع في المجتمع وتودي بصاحبها.

وكثير من هذه الموازنات مغلوطة؛ فمثلاً ما الذي أنبأني أن الوزارة سبب من أسباب السعادة والهناء؟! وما الذي أدراني أن زواج فلان ناجح؟! ومتى كان المال هو كل شيء في الوجود؟! وقد علمتنا الحياة أن المظاهر لا تنبئ عن الحقيقة دائمًا، فكم من الناس يبدون أغنياء فإذا ماتوا تبين أنهم مستورون؟! وكم من الناس جر عليهم الثراء الشغل في البال، والخوف على النفس والعرض، والمرض الوبيل الخطر!!

وكم من الناس يظن فيهم مراقبوهم أنهم سعداء في حياتهم أو زواجهم، وهم جد أشقياء!! وماذا يفيد المرأة أن تتلقى من زوجها النفائس إذا لم تجد منه الحنان الدافئ، ولا القلب المتفتح، ولا الود الصادق؟

ولنفترض أن ظننا فيمن نوازن حياتنا بحياتهم في محله، وأنهم كما نظنهم من السعادة والسرور، فالموازنة غير مجدية، ولا تستطيع أن تصنع شيئًا.

إن السعادة الحقة في أن ترضى بما قسم الله لك.

إن الموازنة المفيدة هي التي تكون بينك وبين من هم أقل مالاً منك؛ لأن مثل هذه الموازنة تبصرك بنعمة الله عليك، وتقودك إلى شكره، وتغمر نفسك بالرضى عن الله وعن واقعك.

أما تلك فتجعل الحسد يأكل قلبك، دون أن تفيد في تغيير وضعك، وزيادة كسبك.

إن الموازنة المفيدة هي التي تكون بينك وبين من هم أفضل منك في التقوى والبعد عن المحارم، لأن مثل هذه الموازنة تحضك على الخير، وتحملك على مضاعفة العمل بما يقربك منهم منزلة.

ويرشدنا رسول الله ﷺ إلى هذه الموازنة البناءة فيقول فيما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة عنه ﷺ: «**انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم**»، وفي رواية: «**إذا نظر أحدكم إلى من فُضِّل عليه في المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه**»[(١)].

قال ابن بطال: [هذا الحديث جامع لمعاني الخير، لأن المرء لا يكون بحال تتعلق بالدين من عبادة ربه مجتهداً فيها إلا وجد فيها من هو فوقه، فمتى طلبت نفسه اللحاق به استقصر حالَه، فيكون أبدًا في زيادة تقربه من ربه. ولا يكون على حال خسيسة من الدنيا إلا وجد من أهلها من هو أخسُّ حالاً منه، فإذا تفكر في ذلك علم أن نعمة الله وصلت إليه دون كثير ممن فُضِّل عليه بذلك، من غير أمر أوجبه، فيُلزم نفسه الشكر، فيعظم اغتباطه بذلك في معاده][(٢)] وقال غيره: [في هذا الحديث دواء الداء، لأن الشخص إذا نظر إلى من هو فوقه لم يأمن أن يؤثِّر ذلك فيه حسدًا، ودواؤه أن ينظر إلى من هو

---

(١) انظر «فتح الباري» ١١/ ٣٢٢، و«صحيح مسلم» ٨/ ٢١٣، و«اللؤلؤ والمرجان» ٣/ ٣١٧، و«رياض الصالحين» باب الزهد.

(٢) «فتح الباري» ١١/ ٣٢٣.

أسفل منه، ليكون ذلك داعيًا إلى الشكر][1] وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رفعه قال: «**خصلتان من كانتا فيه كتبه الله شاكرًا صابرًا: من نظر في دنياه إلى من هو دونه فحمد الله على ما فضله به عليه، ومن نظر في دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به**»، وأما من نظر في دنياه إلى من هو فوقه فأسف على ما فاته، فإنه لا يكتب شاكرًا ولا صابراً[2] .

وقال تعالى: ﴿**وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ**﴾ [طه: ١٣١].

ففي هذه الآية أعظم العبرة، يقول تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ: لا تنظر إلى ما هؤلاء المترفون وأشباههم ونظراؤهم فيه من النعيم، فإنما هو زهرة زائلة، ونعمة حائلة لنختبرهم بذلك[3] ، وقليل من عبادي الشكور، ورزق ربك خير وأبقى فلا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أصنافًا وأنواعًا من الناس.

وقال تعالى: ﴿**وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**﴾ [النساء: ٣٢] في هذه الآية نهي عن التمني، وتبيان للنهج السليم، هو أن يسأل الله من فضله، فخزائنه لا تنفد، وعطاؤه لا حدّ له.

وقد قصّ علينا القرآن الكريم قصة قارون، وهي قصة مليئة بالمواعظ والدروس النافعات، ولن نستطيع أن نتبين الآن كل هاتيك العظات والدروس،

---

(١) «فتح الباري» ١١/ ٣٢٣.

(٢) «تفسير ابن كثير» ٣/ ١٧٠.

(٣) سورة النساء: ٣١ وانظر تفسير هذه الآية في «تفسير ابن كثير».

ولكننا نود أن نقتصر فيها على موضع الإشارة إلى الآثار الخطيرة التي تترتب على الموازنة الخاطئة.

قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [القصص: ٧٩-٨٢].

فلندع مثل هذه الموازنات الفارغة، ولنرض بما قسم الله لنا بعد أن نستفرغ الجهد ونبذل الطاقة في تحصيل ما كتب الله لنا من الرزق الحلال، ففي ذلك سعادتنا في الدنيا ونجاتنا في الآخرة يوم يقوم الناس لرب العالمين)[١].

ويقول الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود:

(إنه متى كان النكاح الشرعي من سنن المرسلين، ومن ضرورية بقاء نوع الآدميين:

فإن من الواجب على العقلاء فتح أبوابه، وتسهيل طرقه وأسبابه، وذلك بالقضاء على التطلبات المرهقة، والتكاليف الشاقة التي هي بمثابة العقبة الكئود في طريق المعوزين، والمتوسطين من أبناء المسلمين، بحيث تحول بينهم وبين الاتصال بمن يرغبون نكاحه من بنات عمهم، وأهل بلدهم، فيجب أن يعقدوا

---

(١) نظرات في الأسرة المسلمة، الدكتور محمد لطفي الصباغ، ص(١٠٧-١١٠).

الجمعيات على أثر الجمعيات، في تبادل الآراء النافعة في سبيل ما يختصر لهم الطريق، ويزيل عن شبابهم الحرج والضيق، وذلك بتخفيض مؤن تكاليف النكاح، الذي يذهب أكثرها في سبيل الإسراف والتبذير، والتوسع في العطايا والهدايا وسوء التدبير، فيكون خسارة على الزوج، وعلى أهل الزوجة، والمرأة حرة ليست بسلعة توضع للمزايدة، وإنما تقاطع الناس بالتكلف.

والنبي ﷺ قال: «**خير النكاح أيسره**»[١]، وقال: «**خير النكاح أقله كلفة**». ويقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: «لا تغالوا في صدقات النساء، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا، أو تقوى عند الله، لكان أولاكم بها رسول الله ﷺ فإنه ما أصدق أحدًا من نسائه، ولا أصدقت أحد من بناته أكثر من خمسمائة درهم». وهو قدر يقل عن مائة ريال، لأن الفضلاء من الكرماء، لا يرون كثرة الصداق في نفوسهم شيئًا، وإنما جل قصدهم اتصال حبل الخاطب الكفء بالمخطوبة في حالة راحة ورفاهية، فهم يحاربون الإسراف الضار بالزوج وأهل الزوجة.

ولا يستنكفون عن خطبة الرجل الكفء لبنت أحدهم، ومولیته، كما عرض عمر بن الخطاب ابنته حفصة على عثمان بن عفان فاعتذر، لعدم رغبته في النكاح، ثم عرضها على أبي بكر الصديق، فسكت، ولم يجب بنفي ولا إثبات، ثم خطبها رسول الله ﷺ فتزوجها.

إن التطلبات المرهقة، والتكاليف الشاقة، قد تركت البنات الأبكار العذارى عوانس وأيامى في بيوت آبائهن، يأكلن شبابهن، وتنطوي أعمارهن

(١) رواه أبو داود عن عقبة بن عامر بإسناد حسن.

سنة بعد سنة، والجريمة هي جريمة التكاليف الشاقة، يخطب الخاطب، فيقولون: هذا ليس بتاجر، ويخطب الآخر، ويقولون: هذا مرتبه ليس بكثير، ويخطب الآخر، ويقولون: هذا لا يدفع لنا إلا قليلاً. فتذهب نضارة البنت في سبيل هذا الترديد، كأنه يضع ابنته للمزايدة، ولو ترك لها الخيار لقبلت الخاطب الكفؤ على ما تيسر، وقالت: رزقي ورزقه على الله.

والله يقول: ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٢].

والأيامى هم كل من لا زوج له؛ من رجل وامرأة، يأمر الله عباده بأن يسهلوا ويساعدوا على تزويج الأيامى. ومعنى الآية: أنه لا ينبغي لكم أن تمتنعوا عن إجابة الخاطب الكفؤ بما تحسونه من قلة ماله، وضعف حاله، فإن الزواج من أسباب الغنى، ولأن الفقر وصف عارض يقع فيزول، وكم من فقير عاد بعد الزواج غنيًا.

والنبي ﷺ قال: «**إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه. إن لا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**»[1]. إن بعض الناس يعدون بناتهم بمثابة المتاجر، فمتى خطب أحد منهم ابنته، أو أخته، وأجاب خطبته، أخذ يسن له السكين، ليفصل ما بين لحمه وعظمه، بحيث يفضي إلى زوجته وهو عظم بلا لحم، وجسم بلا روح، كله من أجل التكاليف الشاقة التي تلجئه إلى تحمل الديون التي من لوازمها الهموم والغموم، ولم يشعروا أن راحة الزوج ورحمته، هو من راحة ابنتهم ورحمتها.

---

(١) هذا الحديث رواه الترمذي من حديث أبي هريرة، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٨٦٥).

فمن رأي الحزم، وفعل أولي العزم، تكاتف العقلاء على مراعاة التسهيل والتيسير، وعدم التعسير، فإن التيسيرْ يمن وبركة، فيسروا ولا تعسروا، والله إنه ليبلغني عن الرجل الكريم، وصاحب الخلق القويم، معاملة صهره بالتسامح والتسهيل، حيث يأخذه باليد التي لا توجعه، ثم يسلم إليه زوجته في حالة راحة، وعدم كلفة، فيرتفع في نفوسنا قدره، وينتشر بين الناس شرفه وفخره، لأن هذا هو النكاح الجدير باليمن والبركة، ومن نصيحتي للمرأة ذات الخلق والدين:

بأن تكون عونًا لزوجها على نوايب الدهر بما تستطيعه، فقد قيل: امرأة الصعلوك إحدى يديه، ولا ينبغي أن تطالبه بما يعجزه ويشق عليه؛ من نفقة زائدة على الحاجة، أو كساعة ثمينة، أو صيغة ذهب، أو غير ذلك من الكماليات التي قد يعجز عنها الموظف الصعلوك. وحرام عليها أن تهجر فراش زوجها، أو تخرج من بيته في سبيل مطالبته بما يعجزه ويشق عليه، والنبي ﷺ قال: «**انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر** أن **لا تزدروا نعمة الله عليكم**»[1].

فزوجة الموظف الصعلوك، لا ينبغي لها أن تنظر إلى زوجة التاجر، فإن جود الرجل من موجوده، وكل إناء ينضح بما فيه، وعادم المال لا يعطيه، بل ينبغي أن تصبر، فإن الصبر مفتاح الفرج، وعسى الله أن يجعل له بعد عسر يسرًا.

ومما ينبغي أن ننصح به مراعاة الاقتصاد والاقتصار في وليمة العرس، الذي وصفها رسول الله ﷺ: «**بأنها شر الطعام؛ يدعى إليها من يأباها،**

---

(١) رواه مسلم عن أنس بن مالك.

ويمنعها من يأتيها»، فيتجنبوا التوسع فيها، ويقتصروا على قدر الكفاية، عملاً بالسنة. حيث قال النبي ﷺ: «أولِم ولو بشاة»[1] و(لو) قيل: للتكثير، وقيل: للتقليل.

وقد أولم النبي ﷺ على بعض نسائه بمُدَّيْن من شعير، وهو سيد الخلق أجمعين. فما يفعله بعض الناس، من كون أحدهم يذبح في وليمة العرس خمسين ذبيحة، أو أربعين ذبيحة، أو أقل أو أكثر، وربما ذبح معها بكراً من الإبل، ويتبعها الأرز والفواكه، وغالب الناس يتعذرون من الحضور إليها، خصوصاً الفضلاء، فتبقى اللحوم والطعام بحالها، بحيث تحمل ويقذف بها في مواضع القمام، وبطون الأنعام، ونفوس الكثير من الفقراء تحن إلى القدر، ولاشك أن هذا مال ضائع على الزوج، وعلى أهل الزوجة كما قيل:

ولم يحفظ مضاع المجد شيء   من الأشياء كالمال المضاع

إن هذه التكاليف، قد أفضت بالكثير من شباب المسلمين إلى التزوج بالوثنيات من الهنديات، أو بالنساء الشيوعيات اللاتي لا دين لهن ولا خلق، واللاتي يتظاهرن بترك الصلاة والصيام، وسائر شرائع الإسلام، ويجهرن بعدم وجوب ذلك عليهن.

ومن المعلوم: أن نكاح مثلهن حرام على المسلم ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠]، ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠].

كما أنه يحرم على المسلم أن يزوج ابنته، أو موليته برجل ملحد، يعرف أنه لا يصلي ولا يصوم، أو يعرف عنه أنه يستحل فعل المنكرات، وشرب

---

(١) رواه مسلم عن أنس بن مالك.

المسكرات، لأن تزويج مثل هذا خطر على المرأة في دينها، وعقيدتها ونسلها، ونفسها، فقد قيل: من زوج موليته بفاجر، فقد قطع رحمه منها.

وتزويج المسلمة بمن يستبيح ترك الصلاة والصيام لا ينعقد بذلك النكاح أصلاً بل تبقى كشبه الزانية، والله يقول: ﴿**الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ**﴾ [النور: ٢٦].

فانتبهوا من غفلتكم، وتوبوا من زللكم، وتمسكوا بدينكم، وحافظوا على فرائض ربكم، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين)[١].

خامسًا: وهل بعد الجنة من شيء نبكي عليه؟!

قالت عائشة رضي الله عنها: أقبلت فاطمة تمشي كأن مشيتها مشية النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «**مرحبًا بابنتي**» ثم أجلسها عن يمينه، ثم أسرَّ إليها حديثًا فبكت، فقلت لها: لم تبكين؟ ثم أسرَّ إليها حديثًا فضحكت، فقالت: ما رأيت كاليوم فرحًا أقرب من حزن، فسألتها عما قال: قالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ حتى قبض النبي ﷺ فسألتها.

فقالت: «**أسرَّ إليَّ أن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة، وأنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي، وإنك أول أهل بيتي لحوقًا بي**» فبكيت، فقال: «**أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة**»، فضحكت[٢].

وتمضي الأيام تلو الأيام لتتحقق نبوءة رسول الله ﷺ، فكانت رضي الله

---

(١) «الاقتصاد في مؤن النكاح ومراعاة التسهيل» للشيخ عبد الله بن زيد آل محمود.

(٢) رواه البخاري (٣٦٢٣)، ومسلم (٢٤٥٠) وغيرهما.

عنها أول أهله لحوقًا به حيث الروح والريحان والنعيم المقيم عند رب العالمين.

إن فاطمة رضي الله عنها تركت البكاء وضحكت لما علمت أنها ستكون سيدة نساء أهل الجنة، وهل بعد تلك البشارة من شيء يستحق البكاء؟

إن عين المسلمة التي ترقب الطريق الموصل إلى الجنة يحملها على ألا تقيم وزنًا لهذه الحياة بزينتها وزخارفها وشهواتها وأهلها، لأن السلعة أغلى من كل ذلك، بل لا تقارن بذلك.

لذلك كان لابد من إطلالة ولو قصيرة على نعيم الجنة نذكر به أنفسنا ونساء المسلمين.

«قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٥ - ٤٨].

وقال تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨ - ٧٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

[الدخان: ٥١ - ٥٧]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٢-٢٨].

والآيات في الباب كثيرة معلومة.

وعن جابر رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يأكل أهل الجنة فيها، ويشربون، ولا يتغوطون، ولا يمتخطون، ولا يبولون، ولكن طعامهم ذلك جُشاءُ كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتكبير، كما يلهمون النفس**» رواه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**قال الله تعالى: أعددت لعباديَ الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، واقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [السجدة: ١٧]» متفق عليه.

وعنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون، ولا يَتْفُلُون، ولا يمتخطون. أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الأُلُوَّة - عود الطيب - أزواجهم الحور العين، على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعًا في السماء**» متفق عليه.

وفي رواية للبخاري ومسلم: «**آنيتهم فيها الذهب، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان يُرَى مُخُّ سوقهما من وراء اللحم من الحُسْن، لا**

اختلاف بينهم، ولا تباغض. قلوبهم قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشيًا».

قوله: «**على خلق رجل واحد**» رواه بعضهم بفتح الخاء وإسكان اللام، وبعضهم بضمهما، وكلاهما صحيح.

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**سأل موسى ﷺ ربه: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعد ما أُدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة. فيقول: أي رب كيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مُلْكِ مَلِك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب، فيقول: لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله، فيقول في الخامسة: رضيت رب، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك، ولذت عينك. فيقول: رضيت رب، قال: رب فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر**» رواه مسلم.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني لأعلم آخر أهل النار خروجًا منها، وآخر أهل الجنة دخولاً الجنة، رجل يخرج من النار حبوًا، فيقول الله عز وجل له: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها، فيخيل إليه أنها ملآى، فيرجع، فيقول: يا رب وجدتُها ملآى فيقول الله عز وجل له: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها، فيخيل إليه أنها ملآى، فيرجع. فيقول: يا رب وجدتها ملآى! فيقول الله عز وجل له: اذهب فادخل الجنة. فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا، فيقول: أتسخر**

بي، أو تضحك بي وأنت الملك» قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى نواجذه فكان يقول: «ذلك أدنى أهل الجنة منزلة» متفق عليه.

وعن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها في السماء ستون ميلاً. للمؤمن فيها أهلون، يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضًا». متفق عليه.

«الميل»: ستة آلاف ذراع.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة سنة ما يقطعها» متفق عليه.

وروياه في «الصحيحين» أيضًا من رواية أبي هريرة رضي الله عنه قال: «يسير الراكب في ظلها مائة سنة ما يقطعها».

وعنه عن النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة لَيَتَراءوْن أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم» قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين» متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَقَاب قوس في الجنة خير مما تطلع عليه الشمس أو تغرب» متفق عليه.

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة سوقًا يأتونها كل جمعة. فتهبُّ ريح الشمال، فتحثوا في وجوههم وثيابهم، فيزدادون حُسْنًا وجمالاً، فيرجعون إلى أهليهم، وقد ازدادوا حسنًا وجمالاً،

فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم حسنًا وجمالاً! فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسنًا وجمالاً!» رواه مسلم.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون الغُرَف في الجنة كما تتراءون الكوكب في السماء» متفق عليه.

وعنه رضي الله عنه قال: أخذت من النبي ﷺ مجلسًا وَصَفَ فيه الجنة حتى انتهى، ثم قال لي آخر حديثه: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» ثم قرأ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٦، ١٧]». رواه البخاري.

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة ينادي مناد: إن لكم أن تَحْيَوْا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تصِحُوا فلا تسقَمُوا أبدًا، وإن لكم أن تشِبُّوا فلا تَهْرَموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا، فلا تبأسوا أبدًا» رواه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أدنى مقعد أحدكم من الجنة أن يقول له: تمنَّ فيتمنى، ويتمنى، فيقول: هل تمنيت؟ فيقول: نعم، فيقول له: فإن لك ما تمنيت ومثله معه» رواه مسلم.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني، فلا

أسخط عليكم بعده أبداً» متفق عليه.

وعن جرير بن عبد اللَّه رضي اللَّه عنه قال: كنا عند رسول اللَّه ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر، وقال: «**إنكم سترون ربكم عيانًا كما ترون هذا القمر، لا تُضَامُون في رؤيته**» متفق عليه.

وعن صهيب رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ فَيَكْشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم**» رواه مسلم.

قال اللَّه تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [يونس: ٩، ١٠].

سادسًا: الستر والعفاف والحياء على فراش الموت:

لما حضر فاطمة رضي اللَّه عنها الموت قالت لأسماء بنت عميس: يا أسماء، إني قد استقبحت ما يصنع بالنساء، يطرح على المرأة الثوب فيصفها[١].

فقالت أسماء بنت عميس، يا ابنة رسول اللَّه ﷺ، ألا أريك شيئًا رأيته بأرض الحبشة؟ فدعت بجرائد رطبة فحنتها، ثم طرحت عليها ثوبًا.

---

(١) يقول محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العَمْروي في تحقيقه «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٤٣١): تريد تغطية المرأة عند موتها، بحيث يظهر شكل أعضائها. فمن أجل ذلك أمرتها بأنها إذا ماتت أن تغطي جسمها بجرائد النخل الرطبة ثم تطرح عليها ثوبًا يستر حجم جسمها.

فقالت فاطمة رضي الله عنها: ما أحسن هذا وأجمله؟! فإذا متُّ فاغسليني أنت وعلي، ولا تُدخلي عليَّ أحدًا.

فلنتأمل جميعًا ولتتأمل المرأة المسلمة ـ بصفة خاصة ـ هذه الطاهرة التي تحرص على سترها حتى وهي على فراش الموت. فهذا وإن دلَّ فإنما يدلُّ على مدى الحياء والحرص على العفاف التي بلغته فاطمة رضي الله عنها، كيف لا وهي ابنة رسول الله ﷺ.

فأين نساء اليوم من فاطمة رضي الله عنها؟!

إن الحجاب الشرعي هو عنوان لازم لستر المرأة وعفافها وحيائها.

(والمرأة المسلمة الراشدة التي نهلت من معين الإسلام الصافي، ونشأت في جَوِّه الوارف الظليل، لا تلتزم الحجاب الشرعي تقليدًا وعادة درجت عليه الأمهات والجدات، فورثتها عنهن، كما يحلو لبعض الفارغين والفارغات أن يصوروا الحجاب، من غير سند من علم، أو حجة من منطق، أو هَدْي من كتاب منير. بل تلتزمه وقلبها مطمئن بالإيمان أنه أمرٌ من الله عز وجل، ونفسها مفعمة بالقناعة أنه دين أنزله الله لصيانة المرأة المسلمة وتمييزًا لشخصيتها، وإبعادًا لها عن مزالق الفتنة ومرتكسات الرذيلة ومهاوي الضلال. ومن هنا هي تتقبله بنفس راضية، وقلب مطمئن، واقتناع راسخ، كما تقبلته نساء المهاجرين والأنصار، يوم أنزل الله فيه حكمه القاطع وأمره الحكيم:

فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها فيما رواه البخاري عنها، قالت: «يرحم الله نساء المهاجرات[1] الأول، لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى

(١) أي النساء المهاجرات.

جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، شققن مُروطهن[١]، فاختمرن بها[٢]. وفي رواية للبخاري أيضًا: «أخذن أُزُرَهن فشققنها من قِبَل الحواشي فاختمرن بها»[٣].

وفي رواية عن صفية بنت شيبة، قالت: «بينا نحن عند عائشة رضي الله عنها ذكرنا نساء قريش وفضلهن، فقالت عائشة رضي الله عنها: إن لنساء قريش لفضلاً، وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار، ولا أشد تصديقًا لكتاب الله، ولا إيمانًا بالتنزيل! لقد أُنزلت سورة النور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، فانقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته، وعلى كل ذات قرابة، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مِرْطها المرَحَّل[٤]، فاعتجرت به[٥]، تصديقًا وإيمانًا بما أنزل الله من كتابه، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ معتجرات، كأن على رؤوسهن الغِرْبان»[٦].

رحم الله نساء المهاجرين والأنصار، ما أقوى إيمانهن! وما أصدق إسلامهن! وما أجمل انصياعهن للحق حين نزوله! وإن كل مؤمنة بالله ورسوله حق الإيمان، لا يسعها إلا أن تتأسَّى بهؤلاء الفضليات من النساء، فتُلْزِم نفسها الزِّيَّ الإسلامي المتميز، غير عابئة بما يحيط بها من عُرْي وتكشف

---

(١) أي أزرهن.

(٢) أي تقنعن.

(٣) فتح الباري ٨/ ٤٨٩ كتاب التفسير: باب وليضربن بخمرهن على جيوبهن.

(٤) هو كساء من صوف نقشت فيه تصاوير الرِّحال.

(٥) أي تلففت به.

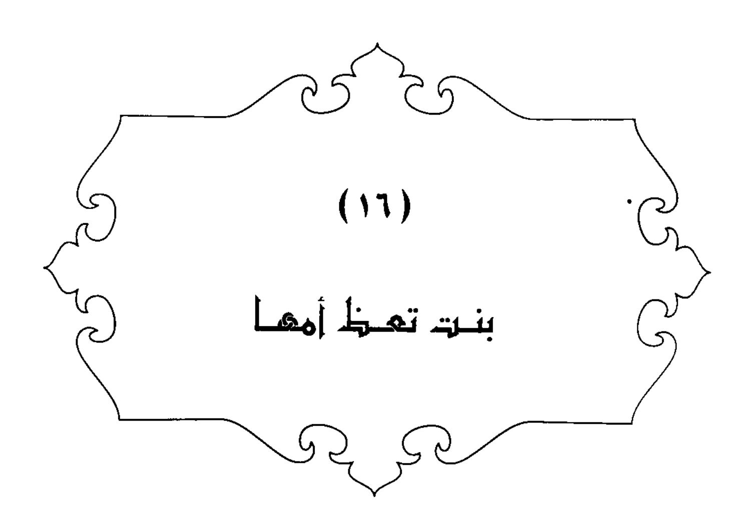
(٦) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري ٨/ ٤٨٩، ٤٩٠ كتاب التفسير: باب وليضربن بخمرهن على جيوبهن.

وتبرج. وإني لأذكر موقف فتاة جامعية مسلمة متحجبة، لا يقل روعة عن موقف نساء المهاجرين والأنصار رضي الله عنهن: إذ سألها مراسل صحفي زار جامعة دمشق عن حجابها وعما يصبرها عليه في حر الصيف القائظ، فأجابته: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ [التوبة: ٨١].

بمثل هؤلاء الفتيات المسلمات الواعيات الطاهرات تعمَّر البيوت المسلمة، وتُرَبَّى الأجيال على الفضيلة، ويزخر المجتمع بالرجال الأبطال العاملين البناة، وإنهن اليوم لكثيرات والحمد لله)[١] .

* * *

(١) شخصية المرأة المسلمة ص(٥٣، ٥٤).



(١٦)

بنت تعظ أمها

بنت تعظ أمها

عن أسلم مولى عمر قال:

بينما أنا مع عمر بن الخطاب وهو يعسُّ المدينة، إذ أعيا، فاتكأ إلى جانب جدار في جوف الليل، فإذا امرأة تقول لابنتها: يا ابنتاه، قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء؟ فقالت البنت: يا أمتاه، أو ما علمت ما كان من عزمة أمير المؤمنين اليوم؟

قالت: وما كان من عزمته يا بُنيَّة؟

قالت: إنه أمر مناديه فنادى أن لا يُشاب[1] اللبن بالماء.

فقالت لها: يا بنية قومي إلى ذلك اللبن فامذُقيه بالماء، فإنك بموضعٍ لا يراك عمر، ولا منادي عمر.

فقالت البنت لأمها: يا أمَّتاه، والله ما كنت لأطيعه في الملأ، وأعصيه في الخلاء[2].

وعمر يسمع كل ذلك، فقال:

يا أسلم، امض إلى الموضع فانظر مَن القائلة، ومَن المقول لها، وهل لهم من بعلٍ؟

---

(١) أي: لا يخلط.

(٢) يعني: ما كنت أطيعه علانية، وأعصاه في الخفاء.

فأتيت الموضع ، فإذا الجارية أيِّم لا بعل لها ، وإذا تيك أمها ، وإذا ليس لهم رجلٌ .

فأتيت عمر بن الخطاب فأخبرته ، فدعى عمر ولده فجمعهم ، فقال : هل فيكم من يحتاج إلى امرأة أزوجه؟ ولو كان بأبيكم حركة إلى النساء ما سبقه فيكم أحدٌ إلى هذه الجارية ، فقال عبد الله بن عمر : لي زوجة . وقال عبد الرحمن ابن عمر : لي زوجة . وقال عاصم : يا أبتاه ، لا زوجة لي فزوجني ، فبعث إلى الجارية فزوجها من عاصم ، فولدت لعاصم بنتًا ، وولدت البنت ، أو وولدت الابنة عمر بن عبد العزيز رحمه الله[1] .

فما أحوجنا إلى أمثال تلك البنت ! !

* * *

(١) انظر : صفة الصفوة (٤/ ٤٤١) لابن الجوزي ، مسند الفاروق (١/ ٣٩٣) لابن كثير .

الدروس والعبر

أولاً: نماذج على الطريق:

على نفس هذا الطريق، طريق الوعظ والنصح والأدب والتقوى سارت بنات أخريات يضربن المثل الرائع، عسى أن تتعلم بناتنا.

بنات علمن الآباء:

يروي أبو محمد خزيمة فيقول:

قال بناتُ رجل لأبيهن:

يا أبتاه، لا تطعمنا إلا من حلال، فإن الصبر على الجوع أيسر من الصبر على النار، فبلغ ذلك سفيان الثوري فقال: ما لهن رحمهن الله.

ويروي عبد الله بن محمد بن وهب فيقول:

كان ليحيى بن معاذ ابنة صغيرة السن جدًا، فطلبت من أبيها شيئًا، فقال لها: يا بُنَيَّتي، اطلبي ذاك من الله؟

فقالت: يا أبتاه، أو ما أستحيي من الله أن أتقدم إليه في شيء يؤكل؟!

فيالها من موعظة باهرة!!

ويالها من تذكرة ناجعة!!

وحقًا إنهن بنات مباركات.

وقال حاتم الأصم لأولاده:

إني أريد الحج فبكوا وقالوا: إلى من تتركنا؟!

وكان له بنتٌ فقالت: دعوه يذهب فليس برازقٍ، فخرج، فلما انتهى زادهم فباتوا جياعًا، فجعلوا يوبخون تلك البنت.

فمر بهم أمير البلدة، فقال لبعض أصحابه: اطلبوا لنا ماءً، فناوله أهل حاتم الماء، فلما شرب قال:

دار مَنْ هذه؟ فقالوا: دار حاتم الأصم، فرمى فيها بصُرَّة من المال، وقال لأصحابه: من أحبني وافقني، فوافقه أصحابه، فرمى العَسكر بصرر المال في الدار، ففرح أهل الدار سوى تلك البُنية الصغيرة، فإنها بكت.

فقيل لها: ما يبكيك، وقد وُسِّعَ علينا؟!

فقالت البنت: مخلوقٌ نظر إلينا فاغتنينا، [illegible] نظر الخالق إلينا؟ سبحانه وتعالى[1].

بنت تنصح أباها:

كان المأمون وَجَدَ[2] على قائد من قواده، فاستصفى ضياعه وداره، وأنهب دوابه وماله، وكان شيخًا فانيًا، ولم يكن له من الولد إلا بنية صغيرة، فأجمع أن يضرب في الأرض، ويطلب من فضل الله عز وجل، ويخلّف بنيته.

---

(١) أخرجه ابن الجوزي (٤/ ٤٤٣) في صفة الصفوة.

(٢) وجد: غضب.

فبكت البنت، وقبضت على أبيها، وقالت:

اقنع بما آتاك الله، واصبر على محن الزمان ونوائب الدهر، والزم الوطن وارحم وحدتي وضعفي وقلة حيلتي، أو اذبحني فلا أبتلى بفراقك.

فبكى الشيخ وقال:

تقولُ ابنتي لما أردتُ وداعَها ... وقد حضرتني نيةٌ ورحيلُ

لعل المنايا[1] في رحَالكَ تَنْبري[2] ... لنفسك خَتْلاً[3] أو تَغُولُكَ غُولُ

فتتركني أدعى اليتيمةَ بعدما ... تَبينُ وعِزِّي بعد ذَاكَ ذليلُ

أفي طلب الدنيا وربُّك بالذي ... تسيرُ له راعٍ عليك كفيلُ

أليس ضعيف القوم يأتيه رزقُهُ ... يُساق إليه والبلاد مُحُولُ

ويُحرمُ جمعَ المالِ مَن قد يرومُهُ[4] ... يكد[5] عليه رحلُهُ وحلُولُ

فلو كنت في طَوْدٍ[6] على رأس هضبة ... لها نجفٌ[7] فيه الوعولُ تقيلُ

مُصَعَّدة[8] لا يُستطاعُ ارتقاؤها[9] ... ولا لنزولٍ يستطاعُ سبيلُ

إذًا لأتاك الرزقُ يحدُوه سائقٌ ... حثيثٌ ويهديه إليك دليلُ

(١) المنايا: جمع منية، وهي الموت. وقيل: أسباب الموت.

(٢) تنبري: تتعرض لك.

(٣) ختلاً: الختل: الخداع، ختله يختل ختلاً وختلانًا: خدعه عن غفلة.

(٤) يرومه: يطلبه.

(٥) يكد: يتعب.

(٦) طود: الجبل العظيم.

(٧) نجف: هي أرض مستديرة مشرفة، ويقال لشبه التل: نجفة، ويقال للتل: نجف.

(٨) الصعود خلاف الهبوط، وصعد إذا ارتقى.

(٩) رقي فلان في الجبل يرقى رقيًا إذا صعد، ويقال: هذا جبل لا مرقى فيه، ولا مرتقى.

قال الراوي: فنمى الخبر إلى المأمون، فدعا بالشيخ، فاستنشده شعره فأنشده، فرق له، وأمر برد جميع ما أخذ منه، وأعاده إلى مرتبته، وزاده من عنايته[١] .

بنات جلبن الحياة للآباء:

يقول عوانة الراوية:

بلغنا أن شيخًا من أصحاب معاوية بن أبي سفيان، كان يكاتب علي بن أبي طالب، وكان قد طعن في السن، فبلغ معاوية خبره، فدعاه، وقال:

أيها الشيخ إنك لتكاتب عليًا، ولولا سنك لقتلتُك فلا تفعل، ولا تعد.

فوقع كتاب له بعد ذلك إلى عليٍّ في يدي معاوية، فدعاه، وقال:

أتعرف هذا الكتاب؟ قال: نعم، كتب فأجبته، فأمر معاوية بقتله.

فانتهى الخبر إلى ابنة له صغيرة، فجاءت حتى قامت بين يدي معاوية، وأنشأت تقول:

مُعاويَ لا تقتُلْ أبًا كان مُشفقًا ... علينا فنبقى إن فقدناه شُرَّدا[٢]

وتُوتَمُ أولادٌ صغارٌ بقتله ... وإن تعفُ عنه كُنتَ بالعفو أسعدا

معاوي هَبْهُ اليومَ لله وحده ... وللباكياتِ الصارخاتِ تلدُّدا

معاوي منك العلمُ والحلمُ والتقى ... وكُنتَ قديمًا يا ابن حربٍ مسدَّدا

---

(١) انظر: المحاسن والمساوئ (ص/ ٥٦١-٥٦٢) للبيهقي.

(٢) التشريد: الطرد.

فعجب معاوية وأصحابه منها، ودمعت عيناه، ووهبه لها[1] .

وقال عوانة الراوية :

عاش يزيد بن زبيبة الشيباني دهرًا طويلاً حتى لحق زمن الحجاج، وسعى مع ابن الأشعث، فظفر به الحجاج، وورد عليه كتاب عبد الملك بن مروان، يأمره بقتله.

فلما دعا به قال له :

أيها الأمير، اتق الله بسبع عشرة نسوة، أو تسع عشرة نسوة ليس لهن قيم غيري.

قال : أحضرهن، فلما حضرن سألهن الحجاج عن شأنهن، فما منهن امرأة إلا وهي تقول : اقتلني ودعْهُ.

فقامت بنية له صغيرة، فبكت بكاء حارًا، موجعًا، محرقًا، وأنشأت تقول :

أحجّاجُ إمّا أن تجودَ بنعمةٍ ... علينا وإمّا أن تقتلنا مَعَا

أحجّاج كَمْ تفجعْ به إن قتلته ... ثلاثًا وعشرًا واثنتينِ وأرْبَعَا

فَمَنْ رَجُلٌ دانٍ يقومُ مقامهُ ... علينا فمَهَلاً لا تزدنا تضعضعا[2]

ثانيًا: من غشنا فليس منا:

(والمرأة المسلمة الصادقة التي ألفت الصدق، وأصبح سجية من سجاياها

---

(١) انظر : المحاسن (ص٥٦١) للبيهقي.

(٢) انظر : المحاسن (ص٥٦٢).

وخليقة من خلائقها، لا تغش الناس، ولا تخدعهم، ولا تغدر بهم؛ لأن الغشّ والخداع والغدر خلائق وضيعة، تُنافي الصدق ولا تلائمه؛ ذلك أن الصدق يستدعي النصيحة والاستقامة والوفاء والإنصاف والعدل، ويتجافى عن المخاتلة والكذب والمداورة والغشّ والخداع.

وإن فطرة المرأة المسلمة الصادقة، المتشبعة بهدي الإسلام الحنيف لَتنفر من الغشّ والخداع والغدر، وترى في هذه الأخلاق السيئة أمارة على انسلاخ صاحبها من الانتساب للإسلام، كما قرر الرسول ﷺ بقوله في الحديث الذي رواه مسلم: «**مَنْ حَمَلَ عَلَيْنا السِّلاح فَلَيْسَ مِنا، ومَنْ غَشَّنا فَلَيْسَ مِنّا**»[١].

وفي رواية لمسلم أيضًا أن رسول الله ﷺ مرَّ على صُبْرَةِ[٢] طعام، فأدخل يده فيها، فنالت أصابعُهُ بَلَلاً، فقال:

«**ما هذا يا صاحبَ الطَّعام؟**» قال: أصابَتْهُ السَّماءُ[٣] يارسول الله. قالَ: «**أَفَلا جَعَلْتَهُ فوقَ الطَّعامِ حتّى يَراهُ النَّاسُ! مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنّي**»[٤].

ذلك أن مجتمع المسلمين قائم على نظافة المشاعر الإنسانية، وعلى النصيحة لكل مسلم، وعلى الوفاء بالعهد لكل فرد من أفراده، فإذا ما وُجِدَ فيهم غشّاش مخادع غدّار، فإنما هو دخيل على هذا المجتمع، غريب عن أفراده، مجانب لسجاياهم الغرّ وخلائقهم الحسان.

ولقد عدَّ الإسلام الغشّ والخديعة والغدر من الجرائم البشعة التي تزري

---

(١) صحيح مسلم ٢/ ١٠٨ كتاب الإيمان: باب قول النبي ﷺ من غشنا فليس منا.

(٢) أي كومة.

(٣) أي المطر.

(٤) صحيح مسلم ٢/ ١٠٩ كتاب الإيمان: باب من غشنا فليس منا

بصاحبها في الدنيا، وتسود وجهه في الآخرة، إذ أعلن رسول الله ﷺ أن كل غادر سيحشر يوم القيامة، وهو يحمل لواء غدرته، والمنادي ينادي على رؤوس الأشهاد، دالاً عليه، لا فتًا إلى غدرته الأنظار:

«**لكل غادر لواء يوم القيامة، يقال: هذه غدرة فلان**»[1] .

فيا لخجلة الغدارين والغدارات الذين حسبوا أن غدراتهم طوتها الأيام، فإذا هي تنشر يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، وألويتها مرفوعة بأيديهم وإن خجلتهم لتزداد سوءًا وخزيًا يوم القيامة، حين يجدون رسول الله ﷺ، وهو المؤمل المرجى للشفاعة في هذا الموقف الرهيب، يعلن أن رب العزة يقف خصمًا لهم؛ لأنهم اقترفوا جريمة الغدر الفادحة، وإنها لجريمة كبرى، تحجب عن صاحبها رحمة الله، وتحرمه شفاعة رسوله الكريم:

«**قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرًا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره**»[2])[3] .

ثالثًا: المسلمة التقية:

إن تقوى الله تعالى ليس بالعبارات المنمقة، والجمل الجميلة، وإنما هو واقع ملموس تعيشه المسلمة بروحها وبجسدها وبسلوكها مع خالقها ومع الناس تأخذ بكل سبب يزيد من تقواها لله تعالى ويقربها منه عزوجل فهي

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة (١٠/ ٧١ـ ٧٣) كتاب الإمارة والقضاء: باب وعيد الغدر، ورياض الصالحين: (٧٠٥) باب تحريم الغدر.

(٢) فتح الباري ٤/ ٤١٧ كتاب البيوع: باب إثم من باع حرًا.

(٣) شخصية المرأة المسلمة ـ ص(٣٠٨ـ ٣٠٩).

تعطي (نفسها حقها من صقل الروح بالعبادة، فتقبل على عبادتها بنفس صافية هادئة مطمئنة مهيأة لتغلغل المعاني الروحية في أعماقها، بعيدًا عن الضجة والضوضاء والشواغل، ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً. فإذا صلت أدت صلاتها في هدأة من النفس، وفي صفاء من الفكر، بحيث تتشرب نفسها معاني ما تلفظت به في صلاتها من قرآن وذكر وتسبيحات، ثم تخلو إلى نفسها قليلاً، فتسبح ربها، وتتلو آيات من كتابه، وتتأمل وتتدبر معاني ما يجري على لسانها من ذكر، وما يدور في جنانها من فكر، وتستعرض بين حين وآخر حالها، وما يصدر عنها من تصرفات وأفعال وأقوال، محاسبة نفسها إن ندَّت عنها مخالفة، أو بدا منها في حق الله تقصير، فبذلك تؤتي العبادة ثمرتها المرجوة في تزكية النفس وتصفية الوجدان من أدران المخالفة والمعصية، وتحبط حبائل الشيطان في وسوسته المستمرة المردية للإنسان، فالمرأة المسلمة التقية الصادقة، قد تخطئ، وقد تقصر، وقد تزل بها القدم، ولكنها سرعان ما تنخلع من زلتها، وتستغفر الله من خطئها، وتتبرأ من تقصيرها، وتتوب من ذنبها، وهذا شأن المسلمات التقيات الصالحات:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[1].

ولهذا كان الرسول ﷺ يقول لأصحابه: «**جددوا إيمانكم**». قيل: «يا رسول الله، وكيف نجدد إيماننا؟ قال: «**أكثروا من قول لا إله إلا الله**»[2].

والمرأة المسلمة التقية تستعين دومًا على تقوية روحها وتزكية نفسها بدوام

(١) سورة الأعراف، آية: ٢٠١.

(٢) رواه أحمد بسند جيد٢/ ٣٥٩.

العبادة والذكر والمحاسبة واستحضار خشية الله ومراقبته في أعمالها كلها، فما أرضاه فعلته، وما أسخطه أقلعت عنه. وبذلك تبقى مستقيمة على الجادة، لا تجور، ولا تنحرف، ولا تظلم، ولا تبتعد عن سواء السبيل)[١] .

رابعًا: صفة الزوجة الصالحة:

إن المرأة المسلمة (بما وعت من هدي دينها، في القيام بواجباتها نحو زوجها، كانت بحق خير متاع للرجل في حياته؛ إذا دخل البيت تلقته بابتسامتها المشرقة وثغرها المفتر وتحيتها الطيبة، وأقبلت عليه إقبال الربيع، تنضر حياته بالكلمة الطيبة، والعبارة المؤنسة، واللفتة البارعة، والدعابة الحلوة، والزينة المبهجة، والهيئة الأنيقة المعجبة، والبيت النظيف المرتب، والحديث الطلي السار، والمائدة الحافلة الشهية، وكانت في جل أحوالها فيما يرضيه، وتُدخل البهجة والسرور إلى نفسه.

إنها مطيعة لزوجها، بارة به متوددة إليه، حريصة على رضاه، لا تفشي له سرًا، ولا تفسد له أمرًا، تقف إلى جانبه في وقت الشدة، تمده بالرأي السديد، وتمحضه النصيحة الخالصة، تفرح لفرحه، وتحزن لحزنه، تملأ نفسه في مظهرها ومخبرها، وتترع حياته بالسعادة والبهجة والسرور، تشجعه على الطاعة بألوانها المتعددة، وتنشطه للقيام بها بمشاركتها إياه، تبر والديه وتحترم أهله وأقاربه، تغض طرفها عن الرجال، وتسمو عن السفاسف واللغو ورديء الكلام، وتحرص على توفير الهدوء والراحة والسكينة والاستقرار لزوجها وأولادها، وهي بعد، قوية الشخصية في غير خشونة ولا جلافة طبع، رقيقة

(١) شخصية المرأة المسلمة ـ ص(١٣١ ـ ١٣٢). وللمؤلف رسالة بعنوان «المسلمة التقية» ضمن سلسلة «المرأة الصالحة» فلتراجع لأهميتها.

المشاعر في غير مسكنة ولاضعف، تحمل من يخاطبها على احترامها وتقديرها، متسامحة صفوح، تنسى الإساءة، وتطرح الضغينة.

ومن هنا كانت الزوجة المسلمة بحق من أنجح الزوجات، وكانت من نعم الله الكبرى على الرجل، ومتعته التي لا يدانيها في حياته متاع، وصدق رسول الله ﷺ: **«الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة»**[١].

* * *

(١) صحيح مسلم (١٠/٥٦) كتاب الرضاع: باب استحباب نكاح البكر.
وراجع للمؤلف «هذه هي زوجتي» و«أشكو إليك زوجتي» ففيهما فوائد كثيرة إن شاء الله.



(١٧)

أم زفر والصبر على المرض

أم زفر والصبر على المرض

قال عطاء بن أبي رباح رحمه الله: قال لي ابن عباس رضي الله عنهما: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى.

فأراني حبشية صفراء عظيمة، فقال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع، وإني أتكشف[1]، فادع الله لي.

وفي رواية أخرى: إني أخاف الخبيث أن يجردني.

فقال عليه الصلاة والسلام: «**إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك**».

فقالت: أصبر.

ثم قالت: إني أتكشف، فادع الله لي أن لا أتكشف، فدعا لها[2].

فكانت إذا خشيت أن يأتيها تأتي أستار الكعبة فتتعلق بها.

قال عطاء: رأيت أم زفر[3] تلك المرأة الطويلة السوداء على ستر الكعبة.

---

(١) المراد أنها خشيت أن تظهر عورتها وهي لا تشعر وذلك بسبب تجريد الخبيث لها.

(٢) حديث صحيح، أخرجه البخاري (٧/ ١٥٠)، ومسلم (١٦/ ١٣١).

(٣) انظر: الاستيعاب (٤/ ١٩٣٨)، أسد الغابة (٧/ ١٤٢، ٣٣٣)، الإصابة (٨/ ٢٣٢، ٢٣٣).

الدروس والعبر

أولاً: الابتلاء سنة الله الماضية في عباده:

من سنن الله تعالى في خلقه الابتلاء (وذلك أن طبيعة الحياة وطبيعة البشر فيها، تجعلان من المستحيل أن يخلو المرء فيها من كوارث تصيبه، وشدائد تحل بساحته.

فكم يخفق له عمل، أو يخيب له أمل، أو يموت له حبيب، أو يمرض له بدن، أو يُفقد منه مال، أو... إلى آخر ما يفيض به نهر الحياة... حتى قال الشاعر يصف الدنيا:

جُبلت على كدر وأنت تريدها　　صفواً من الأقدار والأكدار

ومكلف الأيام ضد طباعها　　متطلب في الماء جذوة نار)[1]

هذه سنة الله تعالى في الحياة الدنيا، وهو سبحانه إنما خلق السموات والأرض، وخلق الموت والحياة، وزين الأرض بما عليها، لابتلاء عباده وامتحانهم، ليعلم من يريده ويريد ما عنده ممن يريد الدنيا وزينتها.

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [هود: ٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً

(١) الإيمان والحياة - الدكتور يوسف القرضاوي - ص(١٧٨).

(٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً ﴾ [الكهف: ٧، ٨].

وقد بين سبحانه وتعالى الحكمة في خلق الموت والحياة فقال: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [الملك: ٢] أي ليبلو الخلق أيهم أحسن عملاً، وأيهم أكثر ذكرًا للموت وأكثر استعدادًا له.

قال الطبري: وقوله: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ فأمات من شاء وما شاء، وأحيا من أراد وما أراد إلى أجل معلوم ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ يقول: ليختبركم فينظر أيكم له أيها الناس أطوع وإلى طلب رضاه أسرع.

وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ [البلد: ٤]، أي في شدة ومشقة لما يعانيه منذ طفولته من شدائد الحياة المختلفة اللذات والآلام، وما يعانيه بعد بلوغه من الابتلاء بالمسئولية وأمانة التكليف، ومكابدة أمر الدنيا والآخرة، ولما يعانيه من أذى الناس.

وإذا كان هذا سنة الله تعالى في الحياة عامة وفي الناس كافة، فإن أصحاب الرسالات - خاصة - وأتباعهم، المؤمنين الداعين بدعوتهم، هم أشد تعرضًا للأذى والمحن والابتلاء في أموالهم، وأنفسهم، وأعراضهم، وأبدانهم، وأهليهم، وكل عزيز لديهم.

روى الترمذي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قلت: يارسول الله: أي الناس أشد بلاءً؟ قال: « **الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل. يبتلى الرجل**

على حسب دينه. فإن كان في دينه صُلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه. فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئه»[١].

ثانيًا: فوائد المرض:

مع أن المرض من الابتلاءات التي تكرهها النفس، لما يصاحبها من ألم، وترك السعي على المعاش، وعدم التمتع بما يحبه المرء ربما من مطعم أو مشرب، إلا أنه بميزان الإيمان نجد له فوائد من أهمها:

(١) استخراج العبودية من نفوس العباد:

قال ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**»[٢].

وقد دلت الأدلة على أن المصائب والآلام والأمراض ملازمة للبشر، وأنه لابد لهم منها لتحقيق العبودية لله تعالى، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦]، وقولهم هذا من مظاهر العبودية لله عز وجل التي قد لا تستخرج إلا بالمصائب، دقيقها وعظيمها.

وقال تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم**

---

(١) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» رقم (٩٩٢).

(٢) رواه الإمام أحمد ومسلم عن صهيب رضي الله عنه.

﴿مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾ [البقرة: ٢١٤].

قال ابن كثير رحمه الله: هي الأمراض والأسقام والآلام والمصائب والنوائب.

ولننظر إلى مظاهر هذه العبودية نجد الذل التام لله تعالى، والخضوع له، وكثرة التعبد له، فلعل الموت قد اقترب، فضلاً عن الدعاء بحرارة وإلحاح بالمعافاة من المرض، وكذلك انكسار القلب، والشعور بهوان هذه الدنيا وحقارتها، والتفكير في الموت بل والاستعداد له، كل ذلك يظهر عبودية المرء لله تعالى وقت المرض.

(٢) تكفير الخطايا والذنوب:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال ﷺ: «**إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة**»[١]

وقال ﷺ أيضًا: «**ما يصيب المسلم من نصب ولاوصب ولاهم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه**»[٢]. وفي الحديث دليل على أن المرض النفسي كالمرض البدني في تكفير السيئات. وقال ﷺ: «**ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها**»[٣].

---

(١) رواه الترمذي وغيره، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» رقم (٣٠٨).

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

وقال ﷺ: «**لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة**»(١).

وقال قيس بن عبَّاد: «ساعات الوجع يذهبن ساعات الخطايا».

(٣) رفع الدرجات وكسب الحسنات:

قال ﷺ: «**ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كُتب له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة**»(٢).

وقال ﷺ: «**إن العبد إذا سبقت له من الله منزلة لم يبلغها بعمله ابتلاه الله في جسده أو في ماله أو في ولده ثم صبَّره على ذلك حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له من الله تعالى**»(٣).

وهذا من تمام رحمة اللَّه تعالى وفضله على عباده، بل ومن كمال حكمته: أنه إذا كتب على العبد منزلة قربى منه سبحانه وتعالى ولكنه لم يبلغها لأن أعماله الصالحة أضعف من أن توصله إلى هذه المنزلة، ابتلاه اللَّه سبحانه وتعالى ثم رزقه الصبر على الابتلاء كي يصل إلى هذه المنزلة التي كتبها له سبحانه وتعالى.

(٤) دخول الجنة:

قال ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «**إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر**

---

(١) رواه الترمذي وغيره، وصححه الألباني رحمه اللَّه في «الصحيحة» رقم (٢٢٨٠).

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه أبو داود وغيره، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»، و«الصحيحة» برقم (٢٥٩٩).

عوضته منهما الجنة»[١] - يريد عينيه.

(٥) النجاة من النار:

قال ﷺ: «**الحمى حظ كل مؤمن من النار**»[٢].

وقال أيضًا: «**الحمى كير من جهنم، فما أصاب المؤمن منها كان حظه من النار**»[٣].

(٦) يرد العبد إلى ربه ويوقظه من غفلته:

قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ**﴾[الأنعام: ٤٢].

فالله تبارك وتعالى يحب أن يرى من عباده التضرع والخضوع والتذلل له، فأحيانًا لا يتحقق ذلك إلا إذا أصابهم بالأمراض والأوجاع، وضيق الرزق، وقلة البركة، حتى يستيقظوا من غفلتهم.

(٧) يذكر العبد بنعم الله السابقة والحاضرة:

فحينما تمرض المسلمة وتكون طريحة الفراش، تتذكر أيام الصحة والعافية، عندما كانت تذهب هنا وهناك، وتفعل ما تريد، فتشعر حينئذ بقيمة النعمة فتحافظ عليها وتبتعد عن كل سبب - ما أمكنها - ينسيها نعم الله تعالى

---

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه البزار عن عائشة رضي الله عنها، وصححه الألباني في الصحيحة (١٨٢١).
(٣) رواه الإمام أحمد عن أبي أمامة رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم(٣١٨٨).

السابقة والحاضرة .

(٨) تطهير النفس من أمراضها :

إن الله تعالى يطهر النفوس بالأمراض من الأشَر والبَطَر والإعجاب بالنفس، وذلك أن العبد إذا كان في نشاط وقوة وهدوء بال ثم قيده المرض وتجاذبته الآلام انكسرت نفسه ورق قلبه وتطهر من أدران الأخلاق الذميمة من الكبر والخيلاء والعجب والحسد والحقد وسائر أمراض القلوب .

ثالثًا: نماذج لجيل شامخ من الصابرات:

* أم العلاء صبرت على المرض صبراً جميلاً وزارها الرسول ﷺ في مرضها تقول رضي الله عنها :

لما عادني رسول الله ﷺ وأنا مريضة ، فقال عليه الصلاة والسلام : «**أبشري يا أم العلاء ، فإن مرض المسلم يذهب الله به خطاياه كما تُذهب النار خبث الحديد**»[١] .

* وروى مسلم عن جابر رضي الله عنه : إن رسول الله ﷺ دخل على أم السائب وهي تزفزف - يعني ترتعد - وتتحرك حركة شديدة .

فقال عليه الصلاة والسلام : «**مالك يا أم السائب تزفزفين؟**» .

قالت : الحمى لا بارك الله فيها .

---

(١) رواه الطبراني ، وصححه الألباني في صحيح الجامع(٣٧) ، والصحيحة(٧١٤) .

فقال: «**لا تسبي الحمى فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خَبث الحديد**»[١].

*** المرأة السوداء التي كانت تصرع:**

عن عطاء: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟! هذه المرأة السوداء، أتت إلى رسول الله ﷺ، فقالت له: يا رسول الله، إني أصرع، فادع الله لي. فقال: «**إن شئت، صبرت ولك الجنة، وإن شئت، دعوت الله أن يعافيك**». فقالت: أصبر. ثم قالت: يا رسول الله، إني أتكشف فادع الله لي أن لا أتكشف. فدعا لها.

فرضي الله عنها، صبرت على الصرع ونالت الجنة، فما أعقلها وما أصبرها!!

*** صبر امرأة تفضل ملايين الرجال:**

هذه زوجة فتح الموصلِي، انقطعت إصبعها، فضحكت، فقال لها بعض من معها: أتضحكين، وقد انقطع أصبعك؟! فقالت: أخاطبك على قدر عقلك، حلاوة أجرها أنستني مرارة قطعها.

قال ابن القيم رحمه الله: إشارة إلى أنَّ عقله لايحتمل ما فوق هذا المقام، من ملاحظة المبتلى، و مشاهدة حسن اختياره لا في ذلك البلاء، وتلذذها بالشكر له، والرضا عنه، ومقابلة ماجاء من قبله بالحمد والشكر، كما قيل:

لئن ساءني أن نلتني بمساءة فقد سرني أني خطرت ببالكا[٢]

---

(١) مسلم بشرح النووي(١٦/ ١٣١).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٦٧-١٦٨).

* وعن عبد المؤمن بن عبد الله القيسي قال: ضربت أم إبراهيم العابدة دابة فكسرت رجلها، فأتاها قوم يعزونها، فقالت: «لولا مصائب الدنيا لوردنا الآخرة مفاليس».

وهذه نماذج أخرى لصبر مسلمات مؤمنات على ابتلاء الله عزوجل لهن في الدين في أولادهن وغيرهن:

(وكان من أول ما لقنت المرأة من أدب الله تعالى ورسوله ﷺ، الاعتصام بالصبر، إذا دجا الخطب، وجل المصاب.

وقد تقدم ذكر خبر الخنساء، وما ذهب به الدهر من حديث جزعها، وتصدع قلبها، واضطرام حشاها على أخيها، لقد استحال كل ذلك إلى صبر أساغه الإيمان، وجمَّله التقى، فلم تأس على فائت من متاع الحياة الدنيا.

أولئك أبناؤها، وهم أشطار كبدها، ونياط قلبها، خرجوا إلى القادسية وكانوا أربعة، فكان مما أوصتهم به قولها: «يا بني إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إله إلا هو، إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما هجنت حسبكم، وما غيرت نسبكم، واعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية.

اصبروا، وصابروا، ورابطوا، واتقوا الله لعلكم تفلحون، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، وجللت نارًا على أرواقها، فيمموا وطيسها[1]، وجالدوا رسيسها[2]، تظفروا بالغُنْم والكرامة، في دار الخلد والمقامة».

---

(١) الوطيس: المعركة، أو الضرب فيها.

(٢) الرسيس: الأصل.

فلما كشرت الحرب عن نابها، تدافعوا إليها، وتواقعوا عليها، وكانوا عند ظن أمهم بهم، حتى قتلوا واحداً في أثر واحد.

ولما وافتها النعاة بخبرهم، لم تزد على أن قالت: «الحمد للَّه الذي شرفني بقتلهم وأرجو من اللَّه أن يجمعني بهم في مستقر الرحمة»[١].

ذلك أبعد مدى تبلغه المرأة من جلال الصبر وقوة الإيمان، ولعل أبعد منه:

ما حدَّث أنس بن مالك عن أمه أم سليم بنت ملحان الأنصارية زوج أبي طلحة زيد بن سهل قال: (مرض أخ لي من أبي طلحة يدعى أبا عمير، فبينا أبو طلحة في المسجد مات الصبي، فهيأت أم سليم أمره، وقالت: «لا تخبروا أبا طلحة بموت ابنه» فرجع من المسجد، وقد تطيبت له وتصنعت، فقال: «ما فعل ابني»؟ قالت: «هو أسكن مما كان»، وقدمت له عشاءه، فتعشى هو وأصحابه الذين قدموا معه، ثم قامت إلى ما تقوم له المرأة، فأصاب من أهله، فلما كان آخر الليل قالت: «يا أبا طلحة، ألم تر إلى آل فلان، استعاروا عارية[٢]، فتمتعوا بها، فلما طلبت إليهم شق عليهم؟» قال: «ما أنصفوا». قالت: «فإن ابنك فلانًا كان عارية من اللَّه فقبضه إليه». فاسترجع، وحمد اللَّه، وقال: «واللَّه لا أدعك تغلبينني على الصبر»، حتى إذا أصبح غدا على رسول اللَّه ﷺ، فلما رآه قال: «**بارك الله لكما في ليلتكما**»،

---

(١) انظر: الاستيعاب لابن عبد البر (٤/ ٢٩٧)، والإصابة (٧/ ٦١٥ـ٦١٦)، والمرأة العربية (٢/ ٧٩ ـ ٨٠)ـ وقد مر الحديث عنها بالتفصيل ص (٢٤٩).

(٢) العارية: إباحة الانتفاع بعين من أعيان المال، مع بقاء عينها.

فاشتملت منذ تلك الليلة على عبد الله بن أبي طلحة، ولم يكن في الأنصار شاب أفضل منه، وخرج منه رجل كثير، ولم يمت عبد الله حتى رزق عشر بنين كلهم حفظ القرآن، وأبلى في سبيل الله)[١] .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: شهدت أم سليم «حنينًا» مع رسول الله ﷺ ومعها خنجر قد حزمته على وسطها، وإنها يومئذ حامل بعبد الله بن أبي طلحة، فقال أبو طلحة: « يا رسول الله إن أم سليم معها خنجر» فقالت: «يارسول الله أتخذه إن دنا مني أحد من المشركين بقرت بطنه، أقتل به الطلقاء، وأضرب أعناقهم إن انهزموا بك»، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «**يا أم سليم، إن الله قد كفى وأحسن**»[٢] .

[وقال أبو الفرج بن الجوزي في «عيون الحكايات»: (قال الأصمعي: خرجت أنا وصديق لي البادية، فضللنا الطريق، فإذا نحن بخيمة عن يمين الطريق فقصدناها، فسلمنا فإذا امرأة ترد علينا السلام، قالت: «ماأنتم؟» قلنا: «قوم ضالون عن الطريق أتيناكم فأنسنا بكم»، فقالت: «يا هؤلاء ولوا وجوهكم عني حتى أقضي من حقكم ما أنتم له أهل»، ففعلنا فألقت لنا مسحًا[٣] فقالت: « اجلسوا عليه إلى أن يأتي ابني»، ثم جعلت ترفع طرف

---

(١) الإصابة (٨/ ٢٢٩)، الطبقات الكبرى (٨/ ٣١٦)، وقد استشهد عبد الله بفارس، وأصل الحديث في الصحيحين وغيرهما، وله عدة روايات جمعها العلامة الألباني في أحكام الجنائز وبدعها ص (٢٤ـ٢٦).

(٢) الطبقات (٨/ ٣١١)، وصححه الحافظ في الإصابة (٨/ ٢٢٩).

(٣) المسح: الفراش.

الخيمة وتردها[١] إلى أن رفعتها، فقالت: «أسأل الله بركة المقبل أما البعير فبعير ابني، وأما الراكب فليس بابني»[٢]، فوقف الراكب عليها، فقال: «يا أم عقيل، أعظم الله أجرك في عقيل»، قالت: «ويحك مات ابني؟» قال: «نعم»، قالت: «وما سبب موته؟» قال: «ازدحمت عليه الإبل فرمت به في البئر»، فقالت: «انزل فاقض ذمام[٣] القوم، ودفعت إليه كبشًا، فذبحه وأصلحه، وقرب إلينا الطعام فجعلنا نأكل ونتعجب من صبرها، فلما فرغنا خرجت إلينا وقد تكورت، فقالت: «يا هؤلاء هل فيكم من يحسن من كتاب الله شيئًا؟» قلت: «نعم»، قالت: «اقرأ علي من كتاب الله آيات أتعزى بها»، قلت: «يقول الله عزوجل في كتابه: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ قالت: «آلله إنها لفي كتاب الله هكذا؟» قلت: «آلله إنها لفي كتاب الله هكذا»، قالت: «السلام عليكم»، ثم صفت قدميها وصلت ركعات، ثم قالت: «إنا لله وإنا إليه راجعون، عند الله أحتسب عقيلاً»، تقول ذلك ثلاثًا، «اللهم إني فعلت ما أمرتني به فأنجز لي ما وعدتني»][٤].

ولما مات عبد الله بن الفرج لم تعلم زوجته لإخوانه بموته، وهم جلوس بالباب ينتظرون الدخول عليه في علته، فغسلته، وكفنته في كساء كان له، فأخذت فرد باب من أبواب بيته، وجعلته فوقه، وشدته بشريط، ثم قالت

---

(١) يعني ترتقب قدوم ولدها.
(٢) يعني أنها تفرست وحدثت نفسها بوقوع مكروه لولدها لما رأت غيره راكبًا بعيره.
(٣) الذمام: الحرمة، والحرمة ما لا يحل انتهاكه، والمقصود هنا أنها قالت له في أشد وقت وأصعبه عليها: اقض حق ضيافة القوم.
(٤) المنحة المحمدية للشيخ محمد عبد السلام الشقيري رحمه الله، ص (٢٠٨-٢٠٩).

لإخوانه: «قد مات، وقد فرغت من جهازه»، فدخلوا، فاحتملوه إلى قبره، وأغلقت الباب خلفهم[1].

وقد مر بك نبأ صفية بنت عبد المطلب الهاشمية رضي الله عنها، وهي عمة النبي ﷺ، وشقيقة أسد الله حمزة، وأم حواري رسول الله ﷺ الزبير بن العوام، والعوام زوجها هو أخو سيدة النساء خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وأمها من بني زهرة وهي هالة بنت وهب خالة رسول الله ﷺ، وهي من المهاجرات الأول، وكانت قد خرجت يوم أحد في طليعة النسوة اللواتي خرجن لخدمة المجاهدين، ومداواة الجرحى.

ولما انهزم المسلمون بعد أن خالف الرماة أمر رسول الله ﷺ بالثبات سواء كان النصر أم كانت الأخرى، وانفض أكثر الناس عن رسول الله ﷺ، ولم يبق حوله سوى القلائل من أصحابه، قامت «صفية» رضي الله عنها وبيدها رمح تضرب به في وجوه الناس الفارين المنهزمين، والأعداء المشركين، وتقول لهم: «انهزمتم عن رسول الله!!»، فلما رآها رسول الله ﷺ أشفق عليها فقال لابنها «الزبير بن العوام»: «**القها فأرجعها، لاترى ما بشقيقها**» أي حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه فلقيها «الزبير» فقال:

«يا أمه، إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي...».

فقالت صفية: «ولم؟ فقد بلغني أنه مُثل بأخي، وذلك في الله عز وجل قليل، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله تعالى».

---

(١) الغرباء للآجري، ص(٦٧).

وعاد الزبير إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك، فقال ﷺ: «**خل سبيلها**»، فأتت «صفية» «الحمزة» فنظرت إليه، وصلت عليه، واسترجعت، واستغفرت، ثم أمر رسول الله ﷺ به فدفن.

ولما خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق جعل نساءه في أطم[1] يقال له فارع، ويروى عن أبي أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه قال: «كان النبي ﷺ إذا خرج لقتال عدوه رفع نساءه في أطم حسان رضي الله عنه لأنه كان من أحصن الآطام» إلى أن قال: (فجاء يهودي فلصق بالأطم ليسمع، قالت صفية: «فأخذت عمودًا فنزلت إليه حتى فتحت الباب قليلاً قليلاً، فحملت عليه فضربته بالعمود فقتلته»[2].

وفي رواية ابن إسحاق زيادة: (وهي أول امرأة قتلت رجلاً من المشركين).

وفي رواية: (... فجاء إنسان من اليهود فرقي في الحصن، حتى أطل عليهن، قالت صفية بنت عبد المطلب: «فقمت إليه، فضربته حتى قطعت رأسه، فأخذت رأسه فرميت به عليهم»[3]).

في طريق عودة النبي ﷺ من غزوة أحد إلى المدينة خرج الناس من المدينة للاستفسار عن نبيهم ﷺ وذويهم المشتركين في المعركة، ويروى أنه كانت من

---

(١) الأطم: كل حصن مبني بحجارة.

(٢) رواه بنحوه ابن سعد في الطبقات (٨/ ٢٧)، والحاكم(٤/ ٥١)، وصححه، وتعقبه الذهبي بقوله: (عروة لم يدرك صفية)، وأورده الهيثمي في المجمع (٦/ ١٣٤)، وقال: رواه الطبراني ورجاله إلى عروة رجال الصحيح، ولكنه مرسل.

(٣) انظر: الإصابة (٧/ ٧٤٤).

بينهم امرأة من بني دينار قتل يوم أحد أبوها وزوجها وأخوها وابنها، فلما نعوا لها لم تكترث كثيراً، فقد أنساها قلقها على حياة الرسول ﷺ كل أحد، ولهذا فإنها قالت بعد أن نعي لها أبوها وابنها وأخوها وزوجها: «ما فعل رسول الله ﷺ؟» قالوا: «خيراً يا أم فلان هو بحمد الله كما تحبين»، قالت: «أرونيه حتى أنظر إليه»، فلما رأته سالمًا قالت ـ مشيرة إلى مصيبتها بفقد أبيها وزوجها وابنها وأخيها ـ: «كل مصيبة بعدك جلل»[١] .



(١) تريد صغيرة، قال ابن هشام: (الجلل يكون من القليل ومن الكثير) اهـ.
انظر عودة الحجاب للشيخ محمد إسماعيل (٢/ ٥٤٩ ـ ٥٥١) .



(١٨)

نساء يبكين لله تعالى

نساء يبكين لله تعالى

امرأة تبكي لانقطاع الوحي

روى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: قال أبو بكر رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله ﷺ لعمر: انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها، كما كان رسول الله ﷺ يزورها. فلما انتهينا إليها بكت، فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله ﷺ.

فقالت أم أيمن رضي الله عنها: ماأبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء.

فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معًا[١].

* * *

(١) رواه مسلم برقم (٢٤٥٤) وغيره.

الدروس والعبر

أولاً: نساء يبكين من خشية الله تعالى:

عفيرة الباكية المشفقة

ومن الباكيات المشفقات: عفيرة بنت الوليد البصرية.

بكت عفيرة من خشية الله تعالى كثيراً، وعرفت بكثرة البكاء حتى قال لها بعض أهلها:

بلغني أنك لا تنامين بالليل؟ فبكت، ثم قالت: ربما اشتهيت أن أنام فلا أقدر عليه، وكيف يقدر على النوم، من لا ينام عنه حافظاه ليلاً ولا نهاراً.

وكانت تناجي ربها قائلة:

اللهم . . .

عصيتك بكل جارحة مني على حدتها، والله لئن أعنت لأطيعنك ما استطعت بكل جارحة عصيتك بها.

وسئلت عفيرة رحمها الله:

أما تسأمين من طول البكاء؟

فبكت ثم قالت : يا بني ، كيف يسأم ذو داء من شيء يرجو أن له فيه من دائه شفاء؟

قال : ثم بكت ، فقمت فخرجت وتركتها[١] .

وقدم عليها ابن أخ لها قد طالت غيبته فبُشرت به ، فبكت ، فقيل لها : ما هذا البكاء؟! اليوم يوم فرح وسرور ، فازدادت بكاء ، ثم قالت :

والله ماأجد للسرور في قلبي مسكنًا مع ذكر الآخرة ، ولقد أذكرني قدومه يوم القدوم على الله تعالى ، فمن بين مسرور ومثبور .

ويقول يحيى بن بسطام رحمه الله :

بكت عفيرة العابدة حتى عميت ، فقال رجل : ما أشد العمى؟ فقالت عفيرة :

الحجاب عن الله أشد ، وعمى القلب عن فهم مراد الله في أوامره أشد وأشد[٢] .

* * *

(١) أخرجه ابن الجوزي (٣/ ١٨٩ ـ ١٩٠) في صفة الصفوة .

(٢) النسوة المتعبدات (ص ٣٩) للسلمي ، صفة الصفوة (٤/ ٣٤)، الطبقات الكبرى (١/ ٥٧)، أعلام النساء (٣/ ٢٩٩) .

عبيدة الباكية البصرية

هي عبيدة بنت أبي كلاب العابدة البصرية، بكت من خشية الله كثيرًا.

تقول سلامة العابدة:

بكت عبيدة بنت أبي كلاب أربعين سنة حتى ذهب بصرها. وسبب بكائها خوفها على نفسها من ذنوبها، حتى قيل لها: ما تشتهين؟ قالت عبيدة: الموت.

سبحان الله!! هكذا كانت إجابة عبيدة العابدة، ألا يعني ذلك أي نوع من أنواع القنوط؟!

ألا يستدعي ذلك أنها يائسة، ولا ينبغي أن يكون هذا هو حال العابدات؟!

لو علمنا الذي دعا عبيدة إلى تلك الإجابة لذهبت حيرتنا، تقول عبيدة:

لأني في كل يوم أصبح أخشى أن أجني على نفسي جناية يكون فيها عطبي أيام الآخرة.

فعبيدة - رضي الله عنها - إنما تحب المو ت خوفًا من الفتنة في الدين، وحذرًا من الوقوع في المعاصي والآثام.

والمؤمن إذا اشتهى الموت خوفًا على دينه فلا حرج، كما قص الله علينا عن مريم بنت عمران: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[مريم: ٢٣].

وإنما النهي عن تمني الموت لعارض دنيوي .

عاشت عبيدة تبكي من خشية الله، ولا تبالي على ما أصبحت من الدنيا أو أمست .

يقول البراء الغنوي يوم ماتت عبيدة بنت أبي كلاب : ما خلفت بالبصرة أفضل منها[1] .

وقال داود بن المحير : ما خلفت البصرة امرأة أفضل منها .

فسلام على عبيدة في عداد الصالحات .

ورحم الله عبيدة الباكية رحمة واسعة .

* * *

بردة الصريمية باكية حتى دخول الجنة

إنها بردة الصريمية من بصرى العراق، كانت تقوم تصلي في ليلها وتجلس تسبح ربها، وتبكي على ذنوبها .

يقول ثابت البناني : إن امرأة من الصدر الأول كان يقال لها بردة، وكانت تكثر البكاء حتى فسد بصرها .

---

(١) صفة الصفوة (٤/ ٣٤ـ٣٥)، أعلام النساء (٣/ ٢٤٤)، الطبقات الكبرى (١/ ٥٧)، النسوة المتعبدات (ص ٥٧).

فقيل لها : اتق الله، أما تخافين على بصرك أن يذهب؟

قالت : دعوني فإن أكن من أهل النار فأبعدني الله، وأبعد بصري، وإن أكن من أهل الجنة فسيبدلني الله عينين خيراً من عيني .

وقيل للحسن البصري رحمه الله:

يا أبا سعيد، إن هاهنا امرأة يقال لها بردة قد فسدت عيناها من البكاء، فدخل عليها فقال لها : يا بردة، إن لبدنك عليك حقًا، وإن لبصرك عليك حقًا .

فقالت : يا أبا سعيد، إن أكن من أهل الجنة فسيبدلني الله بصراً خيراً من بصري، وإن أكن من أهل النار فأبعد الله بصري .

وكانت تبكي حتى يرحمها من رآها من شدة بكائها، وذكرها يوماً سفيان الثوري - رحمه الله - فقال : رحمها الله ما كان هاهنا من أولئك النساء المجاورات أشد اجتهاداً منها، بكت حتى ذهب بصرها[1]

* * *

زجلة العابدة باكية الشام والعراق

هي زجلة عابدة الشام والعراق، وكانت مولاة لعاتكة بنت يزيد من آل معاوية .

---

(١) صفة الصفوة (٤/ ٣٦-٣٧)، أعلام النساء(١/ ١٢٦) .

روت عن أم الدرداء، وعمر بن عبد العزيز.

وروى عنها: صدقة بن خالد، وكليب بن عيسى.

وكانت زجلة تكثر من العبادة، وتبكي من خشية الله تعالى، يقول أبو عتبة الخواص:

دخلنا على زجلة العابدة، وكانت قد صامت حتى اسودت، وبكت حتى عمشت، وصلت حتى أقعدت، وكانت صلاتها قاعدة.

فسلمنا عليها، ثم ذكرناها شيئًا من العفو، أردنا أن نهون عليها الأمر هناك، فقالت: علمي بنفسي قرح فؤادي، وكلم قلبي.

والله لــوددت أن الله لم يخلقني، ولم أك شيئًا مذكورًا، ثم أقبلت على صلاتها، وتركناها فخرجنا من عندها.

وكانت - رحمها الله - تقول:

أيكم يأمر عبده بأمر فيحب أن يقصر فيه[1] ؟!!

فرحم الله زجلة العابدة، وأكرمها على حسن عبادتها.

* * *

مطيعة باكية حتى تعلم حالها

هي عابدة بصرية من الباكيات خوفًا من عقاب الله تعالى.

---

(١) صفة الصفوة (٤/ ٤٠ـ٤١)، أعلام النساء (٢/ ٣٠ـ٣١)، تاريخ دمشق (ص ١٠٧ ـ تراجم النساء).

يروي محمد بن الحسين فيقول: حدثني صاحب لي من البصريين فقال:

بكت مطيعة أربعين عامًا، فعوتبت على كثرة البكاء، فقالت:

لا أزال أبكي حتى أعلم على أي الحالين أنا عند الله؟!

وظلت مطيعة على حالها، حتى وافتها المنية بأمر من ربها.

ومن الباكيات. عابدة البصرة المجهولة، يقص علينا خبرها سعيد بن جبير رحمه الله فيقول:

مارأيت أرعى لحرمة هذا البيت، ولا أحرص عليه من أهل البصرة، ولقد رأيت جارية منهم ذات ليلة تعلقت بأستار الكعبة، فجعلت تدعو، وتبكي، وتتضرع حتى ماتت.

ومن الباكيات: عابدة أرجان.

يقول عبد ربه الخواص: كان بأرجان امرأة فارسية تقول:

يامولاي، تدبرت حكمتك في خلقك، فإذا العدل منك يقصمهم، ثم رجعت بعد إلى معرفتي بسعة رحمتك، فعلمت أن عفوك يسعهم، مولاي أخرت الخاطئين فلم تعجل عليهم بالعقوبة فلقد أطمعهم حسن إنظارك لهم في حسن عفوك عن جرائم الخاطئين، وما يمنعهم من ذلك، وقد تقدم إلى الأمم إحسانك قبل ذلك[١].

* * *

(١) صفة الصفوة (٤/ ٤١، ٤٨، ٦٨)، أعلام النساء (٥/ ٥٩).

شعوانة باكية الأبلة

«شعوانة» عابدة من عابدات الأبلة، كانت تبكي في الليل والنهار حتى خيف عليها.

يقول أبو عون: بكت شعوانة حتى خفنا عليها العمى، فقلنا لها في ذلك، فقالت: أعمى والله في الدنيا من البكاء أحب إلي من أن أعمى في الآخرة من النار.

ويحدثنا مالك بن ضيغم فيقول: كان رجل من أهل الأبلة يأتي أبي كثيراً، فيذكر له شعوانة، وكثرة بكائها فقال له أبي يومًا: صف لي بكاءها.

فقال: يا أبا مالك، أصف لك؟!!

هي والله تبكي الليل والنهار لا تكاد تفتر.

قال: ليس عن هذا أسألك، كيف تبتدئ بالبكاء؟

قال: نعم يا أبا مالك تسمع الشيء من الذكر فترى الدموع تنحدر من جفونها كالقطر.

قال فبكى أبي، وقال: ما أرى الخوف إلا قد أحرق قلبها كله، ثم قال:

كان يقال: إن كثرة الدموع وقلتها على قدر احتراق القلب، حتى إذا احترق القلب كله لم يشأ الحزين أن يبكي إلا بكى، والقليل من التذكرة يحزنه.

وكان من دعاء شعوانة :

إلهي . .

ما أشوقني إلى لقائك وأعظم رجائي لجزائك ، وأنت الكريم الذي لا يخيب لديك أمل الآملين ، ولا يبطل عندك شوق المشتاقين .

إلهي . .

إن كان دنا أجلي ولم يقربني منك عملي فقد جعلت الاعتراف بالذنب وسائل عللي ، فإن عفوت فمن أولى منك بذلك ، وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك .

إلهي . .

قد جرت على نفسي في النظر لها ، وبقي لها حسن نظرك ، فالويل لها إن لم تسعدها .

إلهي . .

إنك لم تزل بي براً أيام حياتي ، فلا تقطع عني برك بعد مماتي ، ولقد رجوت ممن تولاني في حياتي بإحسانه أن يشفعه عند مماتي بغفرانه .

إلهي . .

كيف أيأس من حسن نظرك بعد مماتي ، ولم تولني إلا الجميل في حياتي .

إلهي . .

إن كانت ذنوبي قد أخافتني ، فإن محبتي لك قد أجارتني فتول من أمري ما أنت أهله ، وعد بفضلك على من غره جهله .

إلهي . .

لو أردت إهانتي لما هديتني ، ولو أردت فضيحتي لـم تسترنى ، فمتعتني بما له هديتني وأدم لي ما به سترتني .

إلهي . .

ما أظنك تردني في حاجة أفنيت فيها عمري ؟ !

إلهي . .

لولا ما قارفت من الذنوب ما خفت عقابك ، ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك[١] .

وقيل لشعوانة : لو رفقت بنفسك فقصرت عن هذا البكاء شيئًا كان أقوى لك على ما تريدين .

فبكت ، ثم قالت :

والله لوددت أني أبكي حتى تنفد دموعي ، ثم أبكي الدماء حتى لا تبقى في جسدي جارحة فيها قطرة من دم ، وأنى لي البكاء ؟ !

قال : فلم تزل تردد ذلك حتى انقلبت باكية .

وقال مضر العابد : ما رأيت أحدًا أقوى على كثرة البكاء من شعوانة ، وكانت تقول : من استطاع منكم أن يبكي فليبك ، وإلا فليرحم الباكي فإن الباكي إنما يبكي لمعرفته بما أتى إلى نفسه[٢] .

---

(١) إتحاف السادة (١٣/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠) للزبيدي .

(٢) صفة الصفوة (٤/ ٥٦) ، الطبقات الكبرى (١/ ٥٧) ، أعلام النساء (٢/ ٢٩٩) .

وكانت شعوانة تردد هذا البيت فتبكي: وتُبكي النساك معها، تقول:

لقد أمن المغرور دار مقامه ويوشك يومًا أن يخاف كما أمن

فرحم الله شعوانة الباكية رحمة واسعة.

* * *

باكية البحرين من الليل للصباح

إنها منيفة بنت أبي طارق، عابدة من عابدات البحرين.

عرفت بكثرة العبادة، فكانت إذا دخل الليل عليها قالت: بخ.. بخ..

يا نفس قد جاء سرور المؤمن، فتلبس ثيابها، وتقوم إلى محرابها، فكأنها الجذع القائم حتى تصبح.

وفي يوم قيل لها: لو جعلت نومتك في الليل كان أهدأ لبدنك؟

فقالت منيفة بنت أبي طارق: ظلمة الليل تذكرني بظلمة القبر، فكيف المنام؟!

وكانت ـ رحمها الله ـ متأنية في عبادتها، متفكرة في قراءتها.

تحدثنا أم عامر البحراني فتقول:

بت ليلة عند منيفة ابنة أبي طارق، فما زادت على هذه الآية من أول الليل إلى آخره ترددها وتبكي[١].

(١) صفة الصفوة (٤/ ٧٢ـ٧٤)، أعلام النساء (٥/ ١١٨).

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

فرحم الله منيفة الباكية من خشية الله الملك الجبار.

* * *

بكاء حكيمة المجاورة بمكة

يروي أبو عبد الرحمن المغازلي فيقول:

كانت حكيمة مجاورة بمكة، فدخلنا عليها ذات يوم، فقالت لها امرأة كانت تخدمها: إخوانك جاؤوك يحبون أن يسمعوا كلامك.

قال: فبكت طويلاً، ثم أقبلت علينا فقالت: إخوتي وقرة عيني، مثلوا القيامة نصب أبصار قلوبكم، وردوا على أنفسكم ما قد تقدم من أعمالكم، فما ظننتم أنه يجوز في ذلك اليوم فارغبوا إلى السيد في قبوله، وتمام النعمة فيه.

وما خفتم أن يرد في ذلك اليوم عليكم فخذوا في إصلاحه من اليوم، ولا تغفلوا عن أنفسكم فترد عليكم حيث لا يوجد البدل، ولا يقدر على الفداء.

ثم بكت طويلاً، ثم أقبلت علينا فقالت: إخوتي وقرة عيني، إنما صلاح الأبدان وفسادها في حسن النية وسوئها.

إخوتي وقرة عيني، إنما نال المتقون المحبة لمحبتهم له، وانقطاعهم إليه، ولولا الله ورسوله ما نالوا ذلك، ولكنهم أحبوا الله ورسوله فأحبهم عباد الله لحبهم الله ورسوله.

إخوتي وقرة عيني، كلم الخوف قلوب أهله فاقتطعهم والله، وشغلهم عن مطاعم اللذات والشهوات.

إخوتي وقرة عيني، بقدر ما تعرضون عن الله يعرض عنكم بخيره، وبقدر ما تقبلون عليه كذلك يقبل عليكم ويزيدكم من فضله، والله واسع حكيم[١].

فرحم الله العابدة حكيمة.

* * *

خنساء بنت خدام باكية اليمن

يحدثنا حفص بن عمرو الجعفي فيقول:

كانت باليمن امرأة من العرب جليلة، جهورية حسنًا وجمالاً، كأنها بدنة، يقال لها: «خنساء بنت خدام».

صامت أربعين عامًا حتى لصق جلدها بعظمها، وبكت حتى ذهبت عيناها، وقامت حتى أقعدت من رجليها.

وكان طاووس بن كيسان ووهب بن منبه يعظمان قدرها، وكانت إذا جن عليها الليل، وهدأت العيون، وسكنت الحركات تنادي بصوت لها حزين:

يا حبيب المطيعين.. إلى كم تحبس خدود المطيعين في التراب، ابعثهم حتى ينجزوا موعدك الصادق الذي أتعبوا له أنفسهم، ثم أنصبوها.

قال: فيسمع البكاء من الدور حولها[٢].

(١) صفة الصفوة (٢/ ٢٧٨-٢٧٩).

(٢) صفة الصفوة (٢/ ٣٠٢)، إتحاف السادة (١٣/ ٢٧٠).

ثانيًا: فضل البكاء من خشية الله تعالى:

* روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة الله عزوجل، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**».

* وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله**»[(١)].

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم**»[(٢)].

* وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**عينان لا تريان النار: عين بكت وجلاً من خشية الله، وعين باتت تكلأ في سبيل الله**»[(٣)].

* وروي أبو يعلى في مسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «**عينان لا تمسهما النار أبدًا، عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله**»[(٤)].

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٤١١٢).
(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» برقم (٧٧٧٨).
(٣) رواه الطبراني في الأوسط، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٤١١١).
(٤) صححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٤١١٣).

* وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ليس شيء أحب إلى الله من قطرتين وأثرين: قطرة دموع من خشية الله، وقطرة دم تهراق في سبيل الله، وأما الأثران: فأثر في سبيل الله**[1]**، وأثر في فريضة من فرائض الله**[2]»[3].

* وعن ابن أبي مليكة قال: جلسنا إلى عبد الله بن عمرو في الحجر فقال: «ابكوا فإن لم تجدوا بكاء فتباكوا. لو تعلموا العلم لصلى أحدكم حتى ينكسر ظهره، ولبكى حتى ينقطع صوته».

* وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: «**أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك**»[4].

* وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**طوبى لمن ملك لسانه، ووسعه بيته، وبكى على خطيئته**»[5].

(يقول الله تعالى في بعض كتبه المنزلة: وعزتي وجلالي لا يبكي عبد من خشيتي إلا أبدلته ضحكًا في نور قدسي. قل للبكائين من خشيتي أبشروا فإنكم أول من تنزل عليه الرحمة إذا نزلت. قل للمذنبين من عبادي يجالسوا البكائين من خشيتي، لعلى أن أصيبهم برحمتي إذا رحمت البكائين).

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: لأن أدمع دمعة من خشية الله

---

(١) أي ما يبقى بعد الاندمال من ضربة سيف أو طعنة رمح.

(٢) وذلك لبلل في أعضاء الوضوء وأثر السجود. دليل الفالحين (٢/ ٣٨٠).

(٣) رواه الترمذي وقال: حديث حسن، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» برقم (١٣٦٣).

(٤) رواه الترمذي وغيره، وصححه الألباني رحمه الله «المصدر السابق» برقم (١٩٦١).

(٥) رواه الطبراني وحسن إسناده كما قال المنذري في الترغيب والترهيب، وحسنه الألباني أيضًا في «صحيح الجامع» برقم (٣٩٢٩).

تعالى، أحب إلي من أن أتصدق بألف دينار.

إخواني . . إذا تمكن الخوف من أرض القلوب والضلوع، جرت سواقي الدموع فسقت بستان الخشية، فأزهر بالندم وأثمر بالتوبة.

وقال أبو بكر الكناني رحمه الله: رأيت في المنام شابًا لم أر أحسن منه، فقلت له: من أنت؟ فقال: أنا التقوى. فقلت له: أين تسكن؟ فقال: في قلب كل حزين بكَّاء.

وحكي عن عطاء السلمي أنه كان كثير البكاء، فسئل عن ذلك فقال: لم لا أبكي ووثاق الموت في عنقي، والقبر منزلي، والقيامة موقفي، والخصوم حولي يقولون: يا مرائي بيننا وبينك الموقف لفصل القضاء.

وبكى بعض العبَّاد عند موته فسئل عن ذلك، فقال: أبكي بأن يصوم الصائمون ولست فيهم، ويذكر الذاكرون ولست فيهم، ويصلي المصلون ولست فيهم.

إخواني . . انظروا إلى هؤلاء السادات، كيف يتأسفون على الفوت ويندمون على ترك العمل الصالح بعد الموت، فاستدرك ما بقي من عمرك واعلم أنك كما تدين تدان.

أما آن لك يامسكين أن تقلع عن هواكُ، أما آن لك أن ترجع إلى باب مولاك، أنسيت ما خولك وأعطاك، أما خلقك فسواك، أما عطف عليك القلوب وبرزقه غذاك، أما ألهمك إلى الإسلام وهداك، أما قربك بفضله وأدناك، أما بره في طرفة عين يغشاك، فقابلت ذلك بالغفلة وركوب

الشهوات، والمبادرة بالخطايا والزلات، فنقضت عهده وعصيت أمره، ودمت على إصرار وأطعت هواك وخالفت الجبار.

أما آن لك أن تستحي ممن شاهدك على المعصية ورآك، ومع هذا الحرمان والبعد عن مولاك، إن عدت إليه قبلك وارتضاك، وإن لزمت خدمته قربك وأدناك.

بكت عـــيني على ذنبي	ومـــا لا قـــيت من كـــربي
فـــيـــا ذلي ويا خـــجلي	إذا مـــا قـــال لي ربي
أما استـحـييت تعـصـيني	ولا تخـــشى من العـــتب
وتخـــفي الذنب من خلقي	وتأبى في الهـــوى قـــربي
فـــتب مما جنيت عـــسى	تعـــود إلى رضـــا الرب][1]

وروى البخاري ومسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**اقرأ علي القرآن**» قلت: يارسول الله، أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: «**إني أحب أن أسمعه من غيري**»، فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾ قال: «**حسبك الآن**»، فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان».

قال ابن علان: «قال ابن النحوي، وبكاؤه عند هذه الآية لأنه لابد من أداء

(١) الروض الفائق في المواعظ والرقائق - للشيخ شعيب بن سعد بن عبد الكافي - المجلس العاشر - بتصرف.

الشهادة. والحكم على المشهود عليه إنما يكون بقول الشاهد، فلما كان ﷺ هو الشاهد وهو السامع بكى على المفْرطين منهم.

وقيل بكى لعظم ما تضمنته هذه الآية من هول المطلع وشدة الأمر، إذ يؤتى بالأنبياء شهداء على أممهم بالتصديق والتكذيب.

وقيل بكى فرحًا بقبول شهادة أمته وتزكيته لهم ذلك اليوم»[١].

وروينا أيضًا عن أنس رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قطُّ، فقال: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا**». قال: فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين».

وعن عبد الله بن الشِّخير رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز[٢] المِرْجل[٣] من البكاء[٤].

قال ابن علان: «قال الزمخشري: وذلك ناشئ عن عظيم الرهبة والخوف والإجلال لله سبحانه، وذلك مماورثه من أبيه إبراهيم عليه السلام، فقد ورد أنه كان يسمع من صدره صوت كغليان القدر من مسيرة ميل»[٥].

وروى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (٢/ ٣٦٩).

(٢) الأزيز: صوت البكاء أو غليانه في الجوف.

(٣) المرجل: القدْر.

(٤) قال النووي: حديث صحيح رواه أبو داود والترمذي في الشمائل بإسناد صحيح.

(٥) دليل الفالحين (٢/ ٣٧٣).

لأبي بن كعب رضي الله عنه: «**إن الله عز وجل أمرني أن أقرأ عليك :لم يكن الذين كفروا، قال: وسماني لك، قال: نعم، فبكى**».

وفي رواية لمسلم: «فجعل أبي يبكي».

قال ابن علان رحمه الله: (فبكى): إما فرحًا وسرورًا بذلك، أو خشوعًا وخوفًا من التقصير في شكر تلك النعمة، أو استحقارًا لنفسه وخشية، أو تعجبًا وهذا شأن الصالحين إذا فرحوا بشيء خلطوه بالخشية[١].

وعنه قال: قال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما بعد وفاة رسول الله ﷺ: انطلق بنا إلى أم أيمن رضي الله عنها نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما انتهينا إليها بكت، فقالا لها: ما يبكيك، أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ؟ قالت: إني لا أبكي أني لا أعلم أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان معها[٢].

وعن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف: «أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أتي بطعام وكان صائمًا، فقال: قتل مصعب بن عمير رضي الله عنه وهو خير مني، فلم يوجد له ما يكفن فيه إلا بردة، إن غطي بها رأسه بدت رجلاه، وإن غطي بها رجلاه بدا رأسه، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط، أو قال: أعطينا من الدنيا ما أعطينا، قد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام[٣].

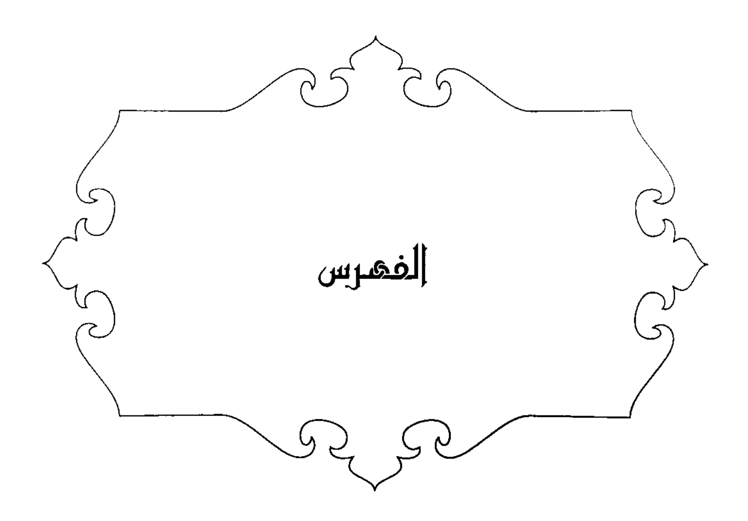
(١) المصدر السابق (٢/ ٣٧٤).
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه البخاري.

قال ابن علان: وقوله: (قد خشينا أن تكون حسناتنا) أي أعمالنا الصالحة الحسنة (عجلت لنا) أي عجل لنا جزاؤها، فلا نقدم على ثواب مدخر - جملة مستأنفة استئنافًا بيانيًا - وهذا منه من فريد خوفه من الله تعالى وشدة خشيته له. خشى أن يكون ما فيه من اليسار من جزاء طاعته التي فعلها، مع أن ذلك اليسار من أسباب عمله الصالح، ومتجره الأخروي الرابح كما علم من إنفاقه في سبيل الله تعالى، وتصدقه على عباد الله، ومع ذلك لعدم نظره لعمله واعتداده، خشي أن يكون ما يدخره سواه من أسباب إبعاده عن مولاه.

(ثم جعل يبكي) خوفًا من ذلك، وأن يكون صفر اليدين من صالح الأعمال في المآل[1] .

* * *

(١) دليل الفالحين (٢/ ٣٧٩).



الفهرس

الفهرس







دار الصفوة
للنشر والتوزيع
٤٢ ش جزيرة بدران / أول شبرا ت وفاكس ٥٧٧٤٩٢١
دار التدمرية
الرياض ٤٩٢٤٧٠٦ - ٤٩٢٥١٩٢
بريدة ٣٢٦٢٢٩٢/٠٦
SR 1٤
1
24735